الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا
قسم الدراسات العليا للعلوم
الإنسانية والاجتماعية

الرسالة الفنية
في العصر المملوكي الأول
بمصر والشام

إعداد الطالب

خالد عبد الرؤوف عثمان جبر

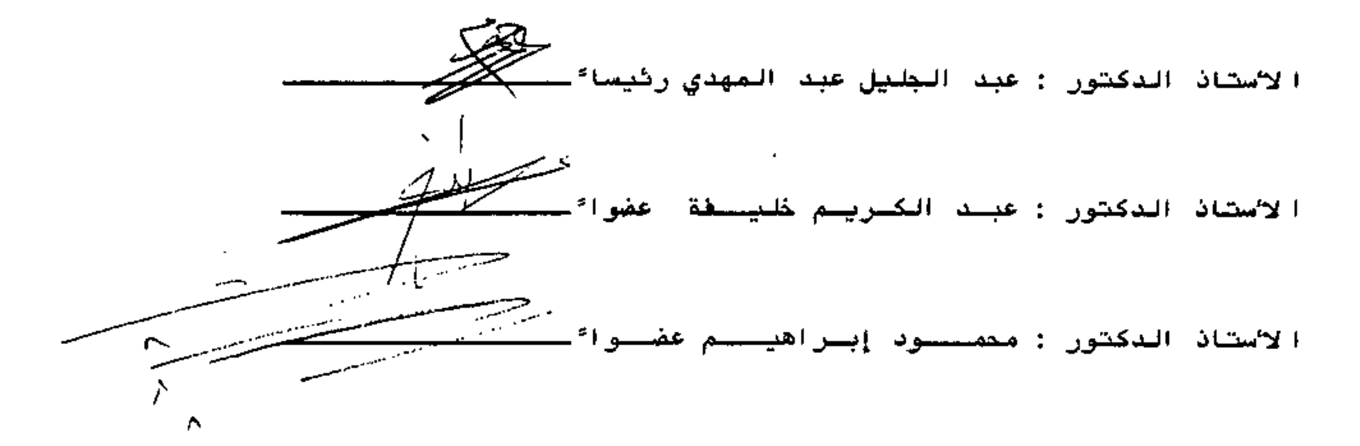
إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في قسم اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية .

١٩٩٢

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٠/٨/١٩٩٢م ، واجيزت .



الاستاذ الدكتور : عبد الجليل عبد المهدي رئيساً ____________

الاستاذ الدكتور : عبد الكريم خليفة عضواً ____________

الاستاذ الدكتور : محمود إبراهيم عضواً ____________

إهـــداء

إلـى روح والـدي ،

وإلـى أمي ، يداً تكفكف دمعة فرح فـي عينيها ،

وعبـادة ،

ويمـان ،

وشقيقة روحي فريدة ، فقد عانت وأعانت .

خـالـد

شكر

أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الكريم الدكتور عبدالجليل حسن عبد المهدي ، وأقدر له أناته ورعايته ، فلولاهما ، بعد توفيق الله ، ما كانت هذه الدراسة على صورتها هذه .

كما أشكر لأستاذيّ الكريمين : الدكتور عبدالكريم خليفة ، والدكتور محمود إبراهيم ما منحاني من عناية ، وملاحظاتهما القيمة التي أثرت هذه الدراسة .

مقدمـــة

نحا المحدثون في دراسة أدب العصر المملوكي منــاحي متباينــة فــي تنــاول فــن الرسائل ؛ فمنهم من درسها في سياق العصر المملوكي كلـه ٦٤٨-٩٢٣ هـ علميـّـاً وأدبيـّاً ،كما فعل محمود رزق سليم في كتابه "عصر سلاطين المماليك" ، ومنهم مـن عرضَ لها في دراسته لأدب العصر مثل الدكتور محمد كامل الفقي فـي كتابـه "الأدب العربي في العصر المملوكي" ، والدكتور محمد زغلول سلام فـي كتابـه "الأدب فـي العصر المملوكي" . ومنهم من من عرض للنثر المملوكي في ثنايا بحثه تطـور النـثر العربي كما في كتاب الدكتور شوقي ضيف : "الفـن ومذاهبـه فـي النـثر العـربي" ، وكتاب : "تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي" للدكتور أنيس المقدسي ، كما اتخذ بعضهم من دراسة الكتاب فـي عصر الممـاليك نهجاً لدراسة نـثره مثـل : الدكتور عمر موسى باشا في كتابه "الأدب العربي في العصر المملوكي" ، ومحمد بن الخوجة في كتابه : "الترسّل وابن عبد الظاهر" .

وقد كان الدكتور شوقي ضيف من أوائل الدارسين للنثر في العصر المملـوكي فـي كتابه "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ، لكن الجزء الذي خصصه لدراسته لـم يـك كافياً لتبيـّن فن الرسائل موضوعياً وفنيّاً . وقد حكم على النثر في هـذا العصـر بأنه متكلف يقلل من قيمته سعي الكتّاب وراء التزيين(١) ، وتجدر الإشارة إلـى عودته عن هذا الحكم في كتابه البحث الأدبي(٢) .

أما الدكتور محمد زغلول سلام ، فقد عرض للرسائل عرضاً سريعاً ، واستعرض بعض نصوصها ، وجمع إليها المقامات والكتابة الأدبية ، ثم خلص إلى الخصـائص الفنيـة للكتابة ، وأطلق حكماً عامّاً على لغة الكتاب مفاده أن تعبيرات عامية وألفاظاً دارجة دخلتها(٣) ، ولعله حكم لم ينبع من استقراء دقيق للنصوص .

ولم يفرد الدكتور أنيس المقدسي في كتابه "تطور الأساليب النثرية فـي الأدب

---

(١) انظر الفن ومذاهبه في النـثر العـربي ، دار المعـارف بمصر ١٩٦٥م ، (ط٤) : ٣٨٥ - ٣٨٦ .
(٢) انظر البحث الأدبي ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م ، ٢ : ٥ - ١٦ .
(٣) انظر الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف بمصـر ١٩٧١م ، ٢: ٥-١٦ ، ٤١ .

العربي" جزءاً لدراسة الرسائل في العصر المملوكي، بل أورد في سياق حديثه عن الرسائل الأدبية رسائل كتبت قبل هذا العصر ، وبعده ، وأخّر لكتّاب أندلسيين ، ثم حكم على الإنشاء بعد القرن السادس الهجري بأنه كان صناعة متكلّفة (١) .

وقد أوجز الدكتور محمد كامل الفقي في حديثه عن فن الرسائل في كتابه "الأدب العربي في العصر المملوكي" ، حيث لم يعرض لنصوص كثيرة ، بل لم يمثّل للرسائل الديوانية ، ومثل للرسائل الإخوانية برسالة واحدة قصيرة ، كما حكم على كتاب العصر بأنهم مقلّدون ضعيفو السلائق(٢) .

أما الدكتور جودت الركابي ، فقد حكم على النثر في العصر المملوكي بالعقم ، ووسم العصر كله بالجمود والانحطاط ، دون أن يستعرض نماذج واحداً من الرسائل(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن دراسة محمد بن الخوجة مقصورة على دراسة محيي الدين بن عبد الظاهر ، وقد ضمّن جزءاً منها دراسة رسائله ، لكنّه لم يحلل نصوصاً منها ، كما تحدث عن ديوان الإنشاء ، واتبع ذلك ببعض نصوص لرسائل كتبها محيي الدين(٤) .

أما الدكتور عمر موسى باشا ، فإن دراسته لنثر هذا العصر تعتمد على دراسة الكتّاب ، ولم يفرد جزءاً من كتابه "تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي" للرسائل ، ولم يعط صورة واضحة لفن الرسائل(٥) .

وقد فتحت هذه الدراسات آفاقاً جديدة أمامي للبحث ، وأعانت على تحديد معالم هذه الدراسة موضوعياً وفنيّاً ، إذ أفدت من آراء الباحثين فيها ، وتلمّست الجوانب التي أخلّت بها . وأرى أن أكثر الدراسات المتقدمة فائدة كانت دراسة

---

(١) انظر تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢م ، ط ٧ : ٣٢٥ - ٣٤٤ .
(٢) انظر الأدب العربي في العصر المملوكي ، دار الموقف العربي ، القاهرة ١٩٨٤م ، ط٣ : ١٠٧ ، ١١٠- ١١٢ ، ١٢٢ - ١٢٧ .
(٣) انظر الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٣م : ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٥٢ .
(٤) انظر الترسل وابن عبدالظاهر ، منشورات اتحاد الكتاب ، تونس ١٩٥٦م : ٢٠ - ٢٤ ، ٥٦ - ٨٧ .
(٥) انظر تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٩م : ٤٥٣ - ٥٤٠ .

محمود رزق سليم .

أشرتُ آنفاً إلى أن هذه الدراسة تشمل نتاج العصر المملوكي كلّه علما وأدبا ونقدا وتاريخا ، من قيام دولة المماليك عام ٦٤٨هـ وحتى بداية الحكم العثماني عام ٩٢٣هـ ، ومما يُلاحظ أنّ الباحث كان يسعى وراء الكشف عن معالم الروح "المصريّة" في دراسته (١) ؛ ولذا كان بحثه مركزاً على مصرية أدب عصر المماليك ، كما جمع في دراسته بين فن الرسائل والمقامات والحكايات والكتب الأدبية والتاريخية والنقدية ، واعتمد في تقسيماته على تقسيمات القلقشندي في "صبح الأعشى" ؛ ولذا افتقد بحثه عنصراً مهمّاً في أدب هذه الفترة ، ألا وهو أثر الغزوين الصليبيّ والمغوليّ في فن الرسائل ، ويلاحظ اعتماده على إيراد النّصوص المطوّلة ، وقد آثرت أن أترك الحديث عن تفصيلات هذه الدراسة إلى مكانها المناسب في دراستي .

يتّضح مما تقدم أن فنّ الرسائل في العصر المملوكي الأوّل، لم يُدرس دراسة مستقلّة فيما اطلعت عليه من الدراسات المتقدمة ، وأن ما تقدّم منها ركّز على بيئة مصر دون الشام التي كانت موطن الحروب التي خاضها المماليك ضدّ الغزاة الصليبيين والمغول ، كما أهملت هذه الدراسات أثر تلك الحروب في فن الرسائل ، وقد كان لها أثر جليّ واضح ، بل كانت الرسائل الجهادية من أهم مميزات هذا العصر ونتاجه الأدبيّ . ومما أهمله الباحثون المتقدّمون ، الكشفُ عن صورة المجتمع من خلال الرسائل ، وموقف المماليك من بعض القضايا الاجتماعية ، ودراسة أحوال الطوائف في ذلك المجتمع مثل الشيعة وأهل الذمّة .

وأشير هنا إلى إيثاري عدم الفصل بين بيئتي : مصر والشام ، انطلاقاً من ارتباطهما في هذا العصر ارتباطاً وثيقاً ، وصعوبة الفصل بين كتّابهما لتنقّلهم في البيئتين ، وتأثرهم بروافد ثقافية واحدة ، وخضوع البيئتين لمؤثرات سياسية داخلية وخارجية واحدة .

---

(١) انظر عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ٥ : ٥ ، ٨٧ ، ١٠٧ ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ١٩٥٦م .

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، تناولت في التمهيد ديوان الإنشاء في عصر المماليك الأول ووظائفه ، ثم أتبعته ذلك بحديث عن ثقافة الكاتب وروافدها ؛ وذلك لما لهذين الموضوعين من أثر في فن الرسائل .

وفي الفصل الأول بحثت في الرسائل من حيث موضوعاتها ، وبدأت بتحديد مفهوم الرسالة الفنية ، ثم درجته في تقسيم الرسائل على ما درج عليه جملة الباحثين من تصنيفها إلى : ديوانية ، وإخوانية ، وأدبية ، وحاولت في دراستي للرسائل الديوانية ، أن أتبيّن صورة المجتمع المملوكي بمصر والشام من خلالها في الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية ، مؤجّلاً دراسة الرسائل الجهاديّة إلى مكانها المخصّص لها في الفصل الثاني ، وبيّنت أنّ الكتّاب عبّروا عن رأي المماليك في الحكم ، وموقفهم من الخلافة والخليفة ، واعتمادهم في تولّي الحكم على نظام ولاية العهد ، كما بيّنت ما صورته الرسائل من خلافات سياسيّة بين السلاطين والأمراء . أما فيما يتصل بالحياة الدينية فقد بحثت في موقف المماليك من بعض المذاهب الفقهية ، وموقفهم الصارم من الشيعة . وأمّا في الحياة الاجتماعية ، فقد بيّنت ما تصوره الرسائل الديوانية من مواقف المماليك في بعض الظروف القاسية مثل النكبات ، ومسامحتهم للعامة من بعض الديون والضرائب ، وسعيَ بعض السلاطين ونوابهم لإبطال المفاسد ، وموقفهم من أهل الذمة الذين عاشوا في المجتمع المملوكي. ودرست في سياق ذلك دور الرسائل في التعبير عن بعض مظاهر البهجة والفرح .

وفي الرسائل الإخوانية درست موضوعاتها المتمثلة في التهاني ، والتعازي ، والشكر ، والتشوق والاستدعاء ، والشكوى والعتاب ، والاعتذار ، والهدايا ، والشفاعات .

أما الرسائل الأدبية ، فقد بحثت في بعض موضوعاتها المتمثلة في: الطرديّات، والشتويّات ، والمفاخرات والمناظرات ، والمجونيّات ، ووصف النّكبات كالزلازل والأوبئة ، والنّقد والذم .

ولما كان الجهاد هو السمة البارزة لهذا العصر ، وكانت الرسائل الجهادية من

الكثرة والتنوع بمكان ، فقد أفردت الفصل الثاني لدراسة أثر الغزوين : الصليبي والمغولي في الرسائل في هذا العصر ، وحاولت أن أبيّن دور الكتاب ومشاركتهم في التعبير عن آمال الأمة وآلامها ، وأحلامها وأفراحها بالانتصارات ، فجعلت هذا الفصل في موضوعات تمثّل الرسائل الجهادية ، مثل : الحث على الجهاد ، والبشارات بالنصر ، التهديد ، والسخرية من العدو .

ثم تناولت بالدراسة موضوعات جزئية في هذه الرسائل مثل : صورة النصر فيها ، وصورة الهزيمة ، وصورة المجاهدين المسلمين ، وصورة الغزاة ، ووصف القلاع والحصون ، والأسلحة وأساليب القتال .

أما الفصل الثالث فقد خصّصته لدراسة الرسائل دراسة فنية ، فبحثت في بناء الرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية ، وبيّنت أساليب افتتاحها ، وعرضها ، وحسن التخلص فيها ، واختتامها .

ثم بحثت في أسلوب الرسالة ، فدرست أهم المؤثرات فيه ، ثم عرضت لأبرز خصائصه ، وكانت الصنعة الفنية أولاها ، فحاولت أن أعلل سيادة الذوق الفني البديعي في الرسائل ، مستعرضاً آراء النقّاد والباحثين الذين حاولوا تعليله ، وأضفت إليها ما اعتقدت صحّته ، ثم درست ملامح الصّنعة في الرسائل من سجع وجناس وطباق ومقابلة وتورية ، وربطت هذه الملامح بالموضوعات ، محاولاً تعليل كل منها ، مناقشاً آراء النقّاد فيها .

أمّا الظاهرة الثانية في الأسلوب فكانت بروز الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية فيه ، وتناولت هذه الظاهرة من حيث : اقتباس الكتاب للآيات القرآنية والأحاديث النبويّة ، وحلّهم لتلك الآيات والأحاديث ، مبيّناً ارتباطها بموضوعات محددة مثل رسائل الجهاد ، كما بيّنت مواقف النقاد من هذه الظاهرة .

وتتبعت النزعة الاتباعية في الرسائل من خلال تأثر الكتّاب بالأدباء السابقين : شعراء وكتاباً ، وحاولت تحت هذا العنوان ، أن أتبيّن الشعراء الذين تأثروا بهم ، وعصورهم ، والموضوعات الشعرية التي تأثروا بها ، محاولاً تعليل

ذلك من حيث : مناسبة ما تأثروا به لموضوعات الرسائل ، وقيمة الشعراء السابقين . وتناولت أثر الأمثال في الرسائل ، واهتمامهم بها وآراء النقاد في تضمينها وحلّها .

وأتبعت ذلك بحديث عن اللغة في الرسائل الفنية ، وقد اقتصرت في حديثي على بعض الظواهر اللغوية التي تكاد تكون مميّزة ، مثل الحذف الاكتفائي ، والتوليد اللفظي ، والألفاظ الكتابية ، وتوجيه الأسماء والاصطلاحات في الرسائل ، ودخول ألفاظ أعجمية في بعض الرسائل إلى غير المسلمين .

وخصصت قسماً من هذا الفصل للحديث عن آراء النقاد في الصورة الفنية ، واهتمام كتّاب العصر بها ، وأتبعت ذلك بعدد من صورهم محاولاً أن أمثّل لها بشمول وتنوع ؛ مظهراً مرتكزات الصور على اختلافها ، وأنماطها ، ثم درست مصادر تلك الصور ، ووظيفتها رابطاً ذلك بموضوعات الرسائل .

وأما في الخاتمة فقد أوجزت الحديث عن النتائج التي وصلت إليها في هذا البحث ، فيما يتعلق بنهوض فنّ الرسائل بالقضايا التي أنيطت به ، ومدى مشاركة الكتّاب في التعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية والدينية ، والتقويم الفنّي للرسائل . ثم ألحقت ذلك بفهرس للمحتوى ، وثبت بالمصادر والمراجع .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المصادر التي ألفت في العصر المملوكي ، وكان أهم هذه المصادر "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي ، وهو يحوي عدداً كبيراً من نصوص الرسائل المختلفة ، كما أورد كثيراً من آراء النقاد القدامى فيما يتصل بأصول الكتابة الفنية .

وكان كتابا محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهما "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" ، و "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" ، من مصادر هذه الدراسة ؛ إذ يؤرخ فيهما لما يقرب من ثلاثين عاماً شهدت كثيراً من الأحداث ، وفيهما نصوص لكثير من الرسائل الديوانية ، وبخاصة الجهادية منها .

كما اعتمدت على كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسّل" لشهاب الدين محمود

الحلبي ، وهو أحد المصادر لدراسة فن الرسائل ، فيه بعض نصوص الرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية .

ومن المصادر المهمة لهذه الدراسة ، ديوان ابن الوردي ، إذ ضمّن القسم الأول منه نصوصاً كثيرة لرسائل في موضوعات مختلفة .

وكان أهم المصادر في دراسة الرسائل الجهادية كتاب "ذيل مرآة الزمان" لقطب الدين اليونيني ، فهو يشتمل على كثير منها .

وبعد ، فهذا جهد أؤمّل أن يكون قد أوفى الموضوع حقّه ، والله حسبي، إنّه نعم المولى ونعم النصير .

خالد جبر

عمان بتاريخ ١٠/٨/١٩٩٢م

ملخص الرسالة

تحاول هذه الأطروحة أن تقدم صورة واضحة لفن الرسائل في العصر المملوكي الأول بمصر والشام ، وقد ركز الباحث على دراسة الرسالة الفنية التي تمتاز ببنائها القائم على مقدمة وعرض وخاتمة وبأسلوبها البديعي .

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وفصول ثلاثة وخاتمة . عرض الباحث في التمهيد لدراسة ديوان الإنشاء ووظائفه في هذا العصر ، وألحق بذلك دراسة حول ثقافة كاتب الإنشاء .

وفي الفصل الأول صنف الباحث الرسائل أصنافا ثلاثة ، وهي : الديوانية ، والإخوانية ، والأدبية ، ثم قدم عرضا لموضوعات الرسالة الديوانية ، فحاول أن يدرسها من خلال ربط موضوعاتها بالجوانب السياسية والدينية والإجتماعية في المجتمع المملوكي ، وتبين منها ان الكتّاب قد عبروا عن وجهات نظر المماليك في مختلف القضايا ، ومواقفهم من بعض الطوائف كالشيعة والمتصوفة .

أما الرسائل الإخوانية ، فقد تمثلت موضوعاتها في التهاني ، والتعازي ، والشكر ، والاعتذار ، والعتاب ، وغيرها مما يدور بين الأصدقاء ، وهي متسمة بصدق العاطفة إلى حد كبير .

وأما الرسائل الأدبية ، فهي تختلف في موضوعاتها عما تقدم ، إذ كتبت في وصف رحلات الصيد ، أو التجارب العاطفية والماجنة ، أو وصف مظاهر الطبيعة مثل الأمطار والثلوج ، ومنها ما كتب في المناظرة بين شيئين مختلفين كالقلم والسيف، ومنها ما كتب في وصف النكبات كالزلازل والأوبئة .

وفي الفصل الثاني درس الباحث أثر الغزوين الصليبي والمغولي في الرسالة الفنية ، ووجد أن الكتّاب قد شاركوا في الجهاد من خلال الحث عليه ، والبشارات بالنصر ، وتهديد الأعداء ، والسخرية منهم في رسائلهم ، ثم قدم دراسة لموضوعات جزئية في هذه الرسائل مثل : صورة النصر ، وصورة الهزيمة ، وصورة المجاهدين ، وصورة الأعداء ،ووصف الحصون والأسلحة وأساليب القتال .

أما الفصل الثالث ، فقد خصصه الباحث للدراسة الفنية للرسائل ، فتناول بناءها وأساليب افتتاحها وعرضها واختتامها ، ثم درس فنون البديع في الرسائل من سجع وجناس وطباق ومقابلة وتورية ، وهي فنون لم تكن مرفوضة في ذلك العصر ، بل حث النقاد عليها ، ووجد الكتّاب فيها جمالاً وروعة . وأتبع بذلك حديثاً عن أثر القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر العربي ، والأمثال ، والرسائل والخطب في الرسالة الفنية ، ووجد أن لها أثراً واضحاً وبخاصة القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي الجاهلي والعباسي . ثم درس الصورة الفنية في الرسائل . ووجد أنهم اهتموا بها ، واعتمدوا على التشبيه والمجاز والاستعارة في رسمها ، كما اهتموا بالصورة الحركية الحية أكثر من الجامدة أو الصامتة ، ولم تكن عنايتهم بالتصوير بغير هدف ، بل أكدت الدراسة أن صورهم كانت تخدم موضوعات الرسائل والأغراض منها .

وخلص الباحث إلى أن أدب هذا العصر يمثّل ذوقاً فنياً من نوع خاص ، له أسبابه المسوّغة ، ولا يجوز بأية حال أن نحاكمه ونحاكم أدبه وأدباءه بمقاييس عصرنا هذا ، أو أي عصر آخر ، بل من الإنصاف أن نحاكمه بمقاييسه وذوقه .

- ديوان الإنشاء

أشار القلقشندي إلى العلاقة بين تطور النظام الإداري للدولة وبين اهتمامها بديوان الإنشاء ، فقال :"فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لا علاقة لهم بكتابة الإنشاء ، وإذا استحضرت الدولة صرفت اهتمامها إلى ديوان الإنشاء ، وترتيبه"(١) . ومصداق ذلك تطور الديوان على مر العصور الإسلامية (٢) .

وثمة ظاهرة بارزة في عصر المماليك تجدر الإشارة إليها ، وهي أن" النظام الإداري فيه قد بلغ درجة عالية من التعقيد والدقة وتعدد الأجهزة (٣) ، إذ كانت الدولة موزعة في نيابات عدة بين مصر والشام (٤) ، وامتدت سيطرة المماليك إلى الحجاز (٥) ، وربطت الدولة علاقات متشعبة مع الدول الإسلامية وغيرها من الدول في أنحاء المعمورة (٦). وقد نشأت عن ذلك كله حاجة شديدة إلى نظام مراسلات دقيق ، مما أدى إلى عنايتهم بديوان الإنشاء ، بحيث أصبح من أهم أجهزة الدولة (٧) .

وقد ضمت دولة المماليك قسمين رئيسيين هما : مملكة الديار المصرية ، ومملكة الديار الشامية ، وكانت كل منهما تضم عدة نيابات مثل : الإسكندرية ، وحلب ، وحماة ، وطرابلس ، وصفد ، والكرك ، وغزة (٨) ، وقد اختصت كل نيابة من هذه النيابات بديوان للمراسلات ، تصدر عنه المراسلات للسلطان ويستقبل ما يصدر عنه من مراسيم وأوامر .

وقد ارتبطت مكانة الديوان والقائم عليه في كل ولاية بمكانة الولاية

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م ، ١ : ١٢٨ .
(٢) نفسه ١:١٢٣-١٣٥ ، وانظر معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، ابن شيث القرشي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ١٩٨٨م : ٥-١٣ ، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي ، غانم جواد رضا ، بغداد ، مطبعة أسعد ، ط١ : ٢٠٣ - ٢٠٧ .
(٣) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، بيروت (ب.ت) : ٢٩٩ - ٣٠٣ .
(٤) التعريف بالمصطلح الشريف ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨م : ٩٧ - ١٠١ ، ٢١٧ - ٢٣٧ .
(٥) نفسه : ١٤٢ ، ١٤٤ ، صبح الأعشى ١٢ : ٢٣٣ ، ٢٣٧ .
(٦) التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٦ - ٩٢ .
(٧) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٩٧ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٠٨-١٠٩ .
(٨) التعريف بالمصطلح الشريف : ٢١٧ - ٢٣٧ ، صبح الأعشى ١ : ١٣٨ .

واهميتها ، فكان الديوان المركزي في القاهرة عاصمة الدولة ، ومكانه في القلعة في عداد الأدُر السلطانية (١) ، وبجانبه دار القائم عليه (٢) المسمى بصاحب دواوين الإنشاء (٣) قبل أن يطلق عليه كاتب السر كما سيأتي ، وفي دمشق قاعدة المملكة الشامية ديوان يُطلق عليه ديوان الإنشاء بالشام ، ويبدو أنه مركزي بالنسبة لبقية الدواوين في نيابات الشام ، ويسمى القائم عليه صاحب ديوان الإنشاء بالشام (٤) ، وفي كل من حلب وطرابلس وحماة وصفد ديوان مكاتبات ، ويطلق على متولّيه صاحب ديوان المكاتبات ، أما النيابات الصغار ، مثل : غزة ، والكرك ، والإسكندرية ففيها كتابة دَرْج ، ولا يطلق على متولي ديوان إحداها كاتب سر بوجه (٥) .

وقد كان لصاحب الديوان (٦) مكانة خاصة عند السلطان ، وقد بلغ من الرتبة ما ليس لغيره من الموظفين ، من حيث إنه " أول داخل على الملك ، وآخر خارج عنه ، وانه لا غنى به عن مفاوضته في آرائه ، والإفضاء إليه بمهماته ، ... ، وانه لايثق بأحد من خاصته ثقته به" (٧) ، وجعل المقريزي رتبته " أجلّ الرتب ؛ ذلك أنها منتزعة من الملك" (٨) .

وقد أعطى قلاوون لصاحب الديوان منزلة أكبر عندما جعل منه كاتب سر السلطان

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق دورتيا كرافولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ١٩٨٦م : ١٤٣ ، خطط المقريزي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (ب - ت) ٢ : ٢٢٥ .
(٢) مسالك الابصار : ١٤٣ .
(٣) صبح الأعشى ١ : ١٣٨ .
(٤) نفسه ١ : ١٣٨ .
(٥) صبح الأعشى ١ : ١٣٨ ، ٥ : ٤٦٤ - ٤٦٥ ، ١٢ : ٨٩ ، ٩٣ ، ٢١٦ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٦ - ١٠٧ .
(٦) لم يك أمر هذا اللقب مستقرا قبل العصر المملوكي ، إذ عرف صاحب الديوان بصاحب الدست ، ومتولي كتابة الإنشاء ، وصاحب ديوان المكاتبات ، ورئيس الديوان ، ومتولي ديوان الرسائل ، وصاحب القلم الأعلى . انظر معالم الكتابة :٤٤ - ٤٥ ، الشارة إلى من نال الوزارة ، ابن الصيرفي ، تحقيق عبد الله مخلص ، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ١٩٢٤م : ٣٠ - ٣٣ ، الالقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، حسن الباشا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م : ٢١-٢٢ .
(٧) صبح الأعشى ١ : ٦٤ .
(٨) خطط المقريزي ٢ : ٢٢٦ .

عام ٦٧٨ هـ(١) واستقر الحال في القرن الثامن الهجري على هذه التسمية (٢) .

وصاحبُ الديوان كاتب مختارٌ بعناية ، وكان يشترط فيه العدالةُ ، والتكليفُ ، والذكورة ، والإسلام ، والحرّيّة ، والبلاغةُ ، ووفورة العقل ، والعلمُ بموادّ الأحكام الشرعيّة ، وشرف النفس ، والكفاية (٣) ، هذا إلى جانب جملة من الصفات الخَلْقيّة مثل : صباحة الوجه ، وطلاقة اللسان ، والخُلُقيّة كالمهابة ، والوقار ، والأناة ، والرفق ، والعفّة (٤) .

وقد بلغت عدة أعماله في وظيفته اثني عشر عملاً ، وهي : التوقيع ، ونظره في الكتب الواردة على الديوان ، والإجابة عن ما يحتاج منها إلى ردّ ، وتحديدُ المراتب في المكاتبات من : افتتاحات ، وأدعية ، وألقاب ، وإشرافه على ما يكتب في ديوانه قبل صدوره والتأشيرُ عليه ، ونظره في أمر البريد ومتعلقاته ، وأبراج حمام الزاجل ومتعلّقاتها ، وتولّيه أمر العيون والجواسيس ، واهتمامه بالفداويّة (٥) ، وإشرافه على السّعاة القائمين مقام البريد إن تعذّر وصوله ، وعلى المناور والمحرقات(٦) ، والنظر فيما يعود على الدولة بالنّفع(٧).

وتجدرُ الإشارة إلى أن الرسائل الواردة على ديوان الإنشاء ، كان صاحب الديوان يوجزُها عند تبليغها للسلطان ، فلا تُقرأ الرسالة كاملة ، بل يفهمُه ما فيها من مضمون بغير إطالة (٨) .

---

(١) انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩م ، ٧ : ٣٣٢ ، ٨ : ٥٠ .
(٢) انظر مسالك الأبصار : ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين السبكي ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٤٨م : ٣٠ ، خطط المقريزي ٢ : ٢٢٦ .
(٣) معالم الكتابة : ٢٧-٤٣ ، صبح الأعشى ١ : ٩٣-١٢٧ .
(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين النويري ، مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية (ب-ت) ٩ : ١-١٠ ، صبح الأعشى ١ : ١٣٩ .
(٥) فرقة من الشيعة الإسماعيلية ، الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وسمّوا بذلك لأنهم كانوا يفادون بالمال على من يُطلب منهم اغتياله (صبح الأعشى ١ : ١٥٤-١٥٨) .
(٦) المناورُ ابراج متصلة على مسافات من الفرات إلى بلبيس بمصر ، فيها عمّال يقومون بإشعال نار فيها تباعاً إن اريد الإخبار بحركة عدوّ . أما المحرقات فهي جماعات وظيفتها التحايل لإحراق زروع الأعداء (التعريف : ٢٥٩-٢٦٢ ، صبح الأعشى ١ : ١٦٣) .
(٧) صبح الأعشى ١ : ١٤٥-١٦٥ ، ٤ : ٣٠ ، مسالك الابصار : ١٢٠ .
(٨) معيد النعم : ٣٠ ، صبح الأعشى ١ : ١٤٠ .

أما الكتاب في الديوان ، فكانوا على طبقتين ، أولاهما طبقة كتّاب الدَّست ، و "هم الذين يجلسون مع كاتب السرّ بمجلس السلطان بدار العدْل(١) في المواكب على ترتيب منازلهم بالقِدْمة ، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السرّ على ترتيب جلوسهم ، ويوقّعون على القصص كما يوقّع عليها" . وقد أطلق عليهم ذلك اللقب إضافةً إلى دَسْت السلطان وهو مرتبة جلوسه(٢) .

كما أطلق عليهم لقب الموقّعين ؛ لأنّهم يوقّعون ما يأمرُ به السلطان على حواشي قصص المظالم(٣) ، وتزايد عددهم من ثلاثة في عهد بيبرس إلى عشرين وأكثر في أواخر هذا العصر(٤) . فانحطّت رتبة هؤلاء وصار أهلها في الحضيض بعد أن كانت لاحقة بشأو كتابة السرّ في الرفعة والمكانة(٥) ؛ إذ دخل فيها من ليس أهلاً لها .

وتمثّلت الطبقة الثانية من الكتاب في كتّاب الدَّرْج ، وقد سُمّوا بذلك لكتابتهم المكاتبات في دُروج الورق ، وتتمثل وظيفتهم في كتابة توقيعات كاتب السرّ أو كتّاب الدستِ ، أو إشارة النائب أو الوزير ، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات(٦) .

وقد روى المقريزي أن عددهم في عهد بيبرس كان سبعةً وتزايد عددهم حتى بلغوا في نهاية هذا العصر ما يقرب من مئة وثلاثين كاتباً ، و"سقطت رياسة هذه الوظيفة ، وانحطّ مقدارها حتى إنّه لم يبرُضها إلاّ من لم يكن أهلاً" (٧) .

وقد ذهب محمود رزق سليم إلى أن وظيفة هؤلاء كانت إدارية أكثر منها فنّية ،

---

(١) كان من عادة سلاطين المماليك أن يجلسوا في دار العدل (الإيوان الكبير) يومي الإثنين والخميس ، وهناك يأتيهم الناسُ بظلاماتهم على قصص فيأمرون فيها بما يناسبها (مسالك الأبصار : ١٠٠-١٠٢ ، صبح الأعشى ٤ : ٤٤ ، خطط المقريزي ٢ : ٢٠٦-٢٠٩ ، وانظر وصف ابن بطوطة لذلك في رحلته ، تحقيق د. علي الكتّاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥م ، ١ : ٨٩-٩١ .

(٢) صبح الأعشى ١ : ١٧٢ .

(٣) مسالك الأبصار : ١٠١ ، معيد النعم : ٣١ ، صبح الأعشى ١: ١٧٢ .

(٤) صبح الأعشى ١ : ١٧٢ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٤ .

(٥) صبح الأعشى ١ : ١٧٢ .

(٦) نفسه ١ : ١٧٢-١٧٣ ، والدَّرج هو الورق المستطيل المركّب من عدّة أوصال .

(٧) نفسه ١ : ١٧٣ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٥ .

وانهم خطّاطون أو يجيدون الخطّ" أكثر من إجادتهم للإنشاء ، في حين أن" كتّاب الدّست هم المختصّون "بتحرير رسائل الديوان في صورتها الإنشائية"(١) . والواقع انهم كانوا ممن لا يشترط فيهم جودة الخطّ . ويُفهم من كلام القلقشندي أنهم كانوا يُنشئون الرسائل وكتب التولية والتعيين طوال العصر المملوكي الاول . قال : "على أن" كتّاب الدست الان(٢) هم المتصدون لكتابة المهم من كتابة الدّرج ، كمتعلّقات البريد المختصّة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير، وصار كتاب الدرج في الغالب مخصوصين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها ، وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير ...، وربما شارك أعلاهم كتاب الدست في التقاليد وكبار التواقيع وما في معناهما إذا كان حسن الخط ، ...، وكل من لفق منهم شيئاً أو أنشاه كتبه بخطّه على أي طبقة كان في الخط"(٣) .

وقد استحدثت في الديوان وظائف إدارية في هذا العصر ، مثل وظيفة كاتب السجلات الذي يُعنى بما يصدر عن الديوان من مكاتبات ، وما يرد إليه في دفاتر خاصة ، حيث يكتب مضمون الرسالة ، وجهة إرسالها وتاريخها ومترجمها إن كانت بلسان غير عربي ، والرد عليها ومنشئه ، ويدون ذلك على تذاكر خاصة في الديوان ، حتى إذا ما احتيج إلى شيء من ذلك كان البحث عنه أسهل .

ومن مهماته أن يضع في الديوان سجلاً خاصاً بألقاب الموظفين ورتبهم وأسمائهم ، وطريقة خطاب كل منهم ، ومقدار دعائه ، ويضمنه ألقاب الملوك المكاتبين وأسماءهم والدعاء لهم ، ويكون هذا الدفتر حاضراً لدى كتاب الإنشاء ينقلون منه في المكاتبات ما يحتاجون إليه. ومن وظائفه كذلك ، أن يضع سجلاً في الديوان للحوادث المهمة ، ويذكر كلاً منها في تاريخه(٤) .

واصبح في عداد موظفي الديوان دوادار لكاتب السر ، وقد استحدثت هذه الوظيفة

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) أي في عصر القلقشندي الذي شهد نهاية هذا العصر ، وبداية عصر المماليك الجراكسة عام ٧٨٤ هـ (صبح الاعشى ١ : ٧-١١) .
(٣) صبح الاعشى ١ : ١٧٣ .
(٤) نفسه ١ : ١٦٨ - ١٧٠ ، وانظر ١ : ١٧٤ .

في أواخر عصر المماليك الأول . ذكر القلقشندي أن هذا الموظف حل محل الخازن والحاجب في الديوان ، فصار يرعى شؤون حفظ الكتب الواردة ونسخ من الكتب الصادرة ، وتولى حجابة الديوان ، بحيث لايمكن أحداً من دخوله سوى الموظفين فيه ، لصيانة أسرار الدولة(١) .

ويضاف إلى الوظائف المتقدمة بعض الوظائف الإدارية التي لاتعلق لها بالكتابة ، ويعاون هؤلاء الإداريون العاملين في الديوان من الكتاب في توفير ما يحتاجونه من أوراق ومداد وغيرها . وقد ذكر القلقشندي أنهم كانوا يسمون "المدراء" جمع مدير(٢) .

ومن وظائف الكتاب في الديوان تحليف أمراء المماليك وجنودهم على الولاء للسلطان أو لوليّ عهده من بعده ، فيجتمعون في القلعة ، ويتصدى كل منهم لتحليف جماعة على القرآن الكريم بنسخة يمين موحدة ، ثم يدون أسماءهم على ورقة تحفظ في الديوان(٣) .

- ثقافة الكاتب

عرف ابن الاثير الكاتب بقوله :"الكاتب عندي من إذا كلفته أن يكتب عنك كتاباً في أمر من الأمور ، وأفضيت إليه بالمعنى جملة واحدة ، فصله وأتى به على وجه إذا تأملته ، قلت : هكذا كان في نفسي ، ولكني لم أقدر أن أعبر عنه ، فهو ينطق عن خاطرك بما لاتقدر أنت أن تنطق به"(٤) ، وهو تعريف ينطبق إلى حد كبير على كتّاب هذا العصر ؛ إذ كانوا ينشئون الرسائل ، وبخاصة الديوانية ، بناءً على معانٍ مجملةٍ فصّلوها .

إن مقتضى هذا التعريف يفضي إلى التأكيد على أن الكاتب المجيد يجب أن يمتلك قدرة فريدة على الإنشاء ، ويستوجب ذلك منه ثقافة واسعة تفسح أمامه المجال

---

(١) صبح الأعشى ١ : ١٧٠ - ١٧٢ ، وانظر ١ : ١٧٤ .
(٢) نفسه ١ : ١٧٤ .
(٣) نفسه ١٣ : ٣١٩ .
(٤) الوشي المرقوم في حل المنظوم ، ضياء الدين بن الاثير ، تحقيق د. جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٩م : ٥٧ .

لصياغة المعاني وتفصيلها ، وإحساساً مرهفاً بما يقتضيه الحال الذي يكتب فيه ، وذكاء متوقداً يعينه على التوفيق بين ما يكتبه وبين الغرض منه ، وقبل هذا كله ، وجود القريحة والطبع .

وقد أشار القلقشندي إلى دور الطبع في صناعة الإنشاء بقوله : "أول معاون هذه الصناعة الجليلة القريحة الفاضلة والغريزة الكاملة" ، وجعل اكتساب العلوم وتحصيل الآداب غير ذوي فائدة للكاتب إن لم يك مطبوعاً(١) .

ومن الحق أن يقال : إن تنبّه القدماء إلى قضية الملكة والطبع أمر جدير بالاهتمام ، وبخاصة أن النقاد وعلماء الأدب الذين ألفوا كتباً في تعليم صناعة الإنشاء قد ركزوا عليها ، وأبرزوا أهميتها، وليس أدلّ على ذلك من اتفاقهم على ضرورة قيامها للكاتب .

قال ابن الأثير بعد إشارته إلى ما يجب على الكاتب حفظه :"إنما أردت أن تحصل لديه الملكة" ، فيستعين بالمحفوظ على الغريزة(٢) .

كما أشار ابن شيث إلى أن الوقوف على كلام المتقدمين "يرهف الخاطر ويشحذه ، ويسدد القول وينقذه"(٣) ، وكان أبو هلال العسكري قد أشار إلى شيء من ذلك(٤) ، وبه من بعده قال صاحب صبح الأعشى(٥).

وإذا كان هؤلاء قد نظروا إلى الملكة على أنها طبع واكتساب ، فإن ابن خلدون نفى دور الطبع فيها ، وجعل منها أمراً مكتسباً وسيلة الوصول إليه الحفظ ، وأشار على الأديب بأن يكثر من حفظ النماذج الجيدة حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، وذهب إلى أن ملكة الإنشاء تحصل بحفظ الأسجاع والترسيل(٦).

(١) صبح الأعشى ٢ : ٣٤٤ .
(٢) الوشي المرقوم : ٥٣ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، ١٩٦ ، صبح الأعشى ٢ : ٣٤٨ .
(٣) معالم الكتابة : ٨٩ .
(٤) (كتاب) الصناعتين ، أبوهلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجّاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ١٩٥٢م : ٧-٨ ، ١٣٩ .
(٥) صبح الأعشى ١ : ١٨٠ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي ، القاهرة ١٩٦٠م ٤: ١٢٩٦ ، ١٣٠٤ ، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣م : ٦١٩ .

ونلمح فيما تقدم من آراء أن الكاتب لم يكن باستطاعته أن يُبدع إن لم يقف على كتابات المتقدمين وأساليبهم ، وعليه أن يطّلع على الكتاب والسنة والأمثال والأشعار والخطب والرسائل ليتحقق له ذلك(١) . مما يرسم لثقافة الكاتب ملامح من نوع خاص ، فما هي أبعاد ثقافة الكاتب في هذا العصر ؟

قال ابن الأثير :"اعلم أن الكاتب يحتاج إلى التشبث بكل فن ، والنظر في كل علم ، وإرصاد السمع لمحاورات الناس ، فإنه لايعدم من ذلك فائدة" ، وقال في موضع آخر :"إن صاحب هذه الصناعة ينبغي أن يعلم ما تقوله النادبة في المأتم ، وما تقوله الماشطة عند جلوة العروس ، وما يقوله المنادي في السوق على السلعة"(٢) .

وجعل القلقشندي ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من مواد قسمين رئيسيين(٣) ، هما : ما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية ، وما يحتاجه من الأمور العملية ، وما يهمنا في هذا المقام هو القسم الأول ؛ إذ هو مرتكز ثقافة الكاتب ، وقد أسهب القلقشندي في حديثه عن هذا القسم ، واستغرق حديثه قسماً كبيراً من الجزأين : الأول والثاني(٤) .

ويدخل في سياق القسم الأول إتقان الكاتب لغته ، وامتلاكه ناصيتها ، ومن ذلك معرفته بالعلوم اللغوية : كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، وهي علوم لايكون كاتباً إلا بها ، وفي عداد ذلك الألفاظ الكتابية(٥) ، ثم معرفة كيفيّة إنشاء الكلام وتأليفه ، مما يستوجب النظر في المعاني والألفاظ ، وحسن الاتباع ، والقدرة على الاختراع ، ومواضع الإطناب والإيجاز(٦) .

---

(١) الصناعتين : ٢٢٩ ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م ٢ : ٦٣ ، صبح الأعشى ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٣ .
(٢) الوشي المرقوم : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ - ٥١ ، المثل السائر ١ : ٤٠ ، ٧٣ ، صبح الأعشى ١ : ١٨١ .
(٣) صبح الأعشى ١ : ١٧٥ .
(٤) نفسه ١ : ١٧٥ - ٢ : ٤٦٧ .
(٥) نفسه ١ : ١٨٣ - ٢٢٧ ، وانظر معالم الكتابة : ٨٩ - ١٣٦ ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين الحلبي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠م : ٨١ ، ١٠١ ، والمثل السائر ١ : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ .
(٦) صبح الأعشى ٢ : ٢٠٢ - ٣٦٤ .

ومن ذلك حفظه للقرآن الكريم(١) ، والاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية(٢) ، وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأثير لم يشترط حفظ الأحاديث الصحيحة فقط ، بل أوصى بالحفظ من غير الصحيح منها كذلك(٣) .

ويلي ذلك الإكثار من حفظ خطب البلغاء ومعرفة أساليبهم(٤) . غير أن ابن الأثير قال بعدم حفظها ، والاكتفاء بالنظر فيها(٥) ، ثم حفظ قدر وافر من أشعار القدماء والمحدثين(٦) ، وجانب من الأمثال المتداولة المعروفة(٧) ، والاطلاع على رسائل الكتاب المتقدمين دون حفظها(٨) ، إذ قد يعلق بذهن الكاتب منها شيء فيورده بألفاظه ، وأخذ كلام منثور ونقله إلى كلام آخر منثور يعد سرقة(٩) . على أن ابن خلدون أشار إلى ضرورة الحفظ لتنشأ الملكة(١٠) .

والجوانب المتقدمة آنفاً كانت أهم المكونات لثقافة الكتاب في هذا العصر ، وهي في مجملها لغوية ودينية وأدبية . ٤٠٧٨٥٥

أما الجوانب الأخرى من هذا القسم فمنها : التاريخي(١١) ، مثل : معرفة الكاتب بتاريخ العرب والمسلمين ونظمهم وأحكامهم وأعيادهم ، وأيامهم ومفاخرهم ، والوقوف على عاداتهم في الجاهلية والإسلام ، ومعرفة دولهم وملوكهم ورجالاتهم ،

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٢٢٨ ، ٢ : ٣٢٧ ، وانظر الوشي المرقوم : ١٧٤ ، المثل السائر ١ : ٧٧ ، جوهر الكنز ، ابن الأثير الحلبي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، (ب-ت) : ٢٩ - ٣١ ، نصرة الثائر على المثل السائر ، ابن أيبك الصفدي ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م : ٦٣ ، حسن التوسل : ٧٢ .
(٢) صبح الأعشى ١ : ٢٤٣ ، ٢ : ٣٤٢ ، وانظر الوشي المرقوم : ٥٣ ، المثل السائر ١ : ٧٧ ، حسن التوسل : ٧٨ .
(٣) الوشي المرقوم : ١٩٦ ، وانظر حسن التوسل :٧٨ .
(٤) صبح الأعشى ١ : ٢٥٣ ، وانظر حسن التوسل : ٨١ .
(٥) الوشي المرقوم : ٥٠ .
(٦) صبح الأعشى ١ : ٣١٩ ، وانظر الوشي المرقوم : ٥١ ، ١٥٢ ، المثل السائر ١ : ١٣٧ ، ٤ : ٧ ، ٩ ، معالم الكتابة : ٩٦ ، حسن التوسل : ٨٩ - ٩٣ .
(٧) صبح الأعشى ١ : ٣٤٦ ، وانظر الرسالة العذراء ، إبراهيم بن المدبر ، تحقيق د. زكي مبارك ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣١م : ٧ ، العقد الفريد ، ابن عبد ربّه ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت (ب - ت) ٣ : ٣ ، معالم الكتابة : ١٣٨ ، الوشي المرقوم : ٥٩ ، ٦٠ ، حسن التوسل : ٩٤ .
(٨) صبح الأعشى ١ : ٢٧٢ ، وانظر الوشي المرقوم : ٥٠ ، ٥١ ، حسن التوسل: ٩٣ - ٩٤ .
(٩) الوشي المرقوم : ٥١ ، وانظر حسن التوسل : ٩٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٧٣ .
(١٠) المقدمة ٤ : ١٣٠٤ .
(١١) صبح الأعشى ١ : ٣٥٨ - ٢ : ٦ .

وأنسابهم . ومنها الجغرافي(١) : ويتمثل في معرفة المسالك والممالك الإسلامية وغيرها ، وعادات أهلها ، وطباعهم وبيئاتهم ، وشهورهم وأعيادهم ، والمعرفة بالأزمنة .

وتشتمل ثقافة الكاتب كذلك ، على معرفة ما يحتاج إلى وصفه في مكاتباته (٢) ، ويدخل في ذلك أوصاف الإنسان الجسمية والنفسية ، وأوصاف دواب الركوب ، والوحوش والطيور ، والأحجار الكريمة ، ونفيس الطيب ، والآلات المستعملة في الركوب والصيد والسفر والحصار واللعب والطرب ، وأوصاف المسكرات وآلاتها ، والأفلاك والكواكب والنجوم ، والظواهر الطبيعية كالريح والسحاب والمطر والثلج ، والحر والبرد ، وتضاريس الأرض من جبال وسهول وأنهار وأودية ونباتات ورياض .

وأما الأمور العملية (٣) التي لاغنى للكاتب عنها ، فتتمثل في معرفته بفن الخط ، وأنواعه ، وآلاته ، وطريقة بري القلم ، وكيفية صنع المداد ، وهي كما ترى أمور تتصل بصنعة الخط أكثر من اتصالها بصناعة الإنشاء .

ولعلّ فيما ذكره القلقشندي شيئاً من التوسع ، إذ لايعقل أن يلم المترشح للكتابة بهذه الجوانب كلها ، ويبدو أن ميله إلى الاستقصاء دفعه إلى ذلك . وأؤكد هنا ما أشرت إليه آنفاً من أن أساسيات ثقافة الكاتب كانت تتمثل في الجوانب اللغوية والدينية والأدبية ، وقد يكون لطبيعة المرحلة التي عاشتها الأمة في تلك المرحلة اثر في التركيز على هذه الجوانب ، وهي مرحلة شهدت صراعاً مريراً مع الغزاة الصليبيين والمغول ، فكانت هناك حاجة ماسة إلى المحافظة بدافع الاحتفاظ بالشخصية العربية الإسلامية " خشية أن تضعف أوتضمحل ، أو يصيبها وهن"(٤) ، كما رأى الدكتور شوقي ضيف .

وقد اضطلع ديوان الإنشاء بدور بارز في التوجيه لهذه الثقافة ، ويمكن عده مؤسسة ثقافة رسمية ، فلكي يكون الكاتب مؤهلاً عليه أن يحفظ القرآن الكريم

---

(١) صبح الأعشى ٢ : ٣٦٦ - ٤٦٨ ، وانظر التعريف بالمصطلح الشريف : ٣١٦ - ٣٣١ .
(٢) صبح الأعشى ٢ : ٦ - ٢٠١ ، وانظر التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٦٤ - ٣١٦ .
(٣) صبح الأعشى ٢ : ٤٦٩ - ٣ : ١٣٥ .
(٤) البحث الأدبي : ٥٤ .

/وشيئاً من الأحاديث الشريفة ، وقدراً وافراً من الأشعار والأمثال ، ثم يأخذ نفسه في ديوان الإنشاء بالتمرن على أساليب كتّابه الكبار ، وقراءة ما يدبجونه من رسائل(١) ، كما يرى الدكتور أحمد بدوي .

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د. أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٧م : ٣٣٤ ، ٣٤١ .

مفهوم الرسالة الفنية

استعملت العرب لفظ رسالة للدلالة على كل كلام يراسل به (١) منذ العصر الجاهلي ، إذ وردت في قول زهير(٢) : (الطويل)

ألا من يبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

ومقتضى هذا الاستعمال أن الرسالة قد تكون نثراً أو شعراً ، سواء كتب به أم نقل مشافهةً . كما استخدمت في القرآن الكريم بهذا المعنى سوى كونها شعراً ، وإن اكتسبت معنى اصطلاحياً كما في قوله تعالى: (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد بلّغتكم رسالة ربي)(٣) .

وقد بدأ مفهوم الرسالة يرتبط بالنثر تدريجياً ، فابن قُتيبة يعدها فناً نثرياً جميلاً يقابل الشعر . قال :"وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها ريّضه ، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب"(٤) .

وربط ابن طباطبا في تعريفه للرسالة ، بين الرسالة والقصيدة ، فالرسالة عنده قصيدة محلولة ، والقصيدة رسالة معقودة ، فالشاعر كما قال "يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم ، فإن للشعر فصولاً كفصول الرسائل"(٥) .

ورأى أبوهلال العسكري أن هناك علاقة وثيقة بين الرسالة والخطبة ، فهذه تقابل تلك ، ولافرق بينهما سوى أن أولاهما يكتب بها ، وأما الأخرى ، فتلقى مشافهةً على جمع الناس(٦) .

---

(١) انظر جمهرة اللغة ، اللسان (مادة : رسل) .
(٢) ديوانه ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م : ٨١ .
(٣) سورة الأعراف : ٧٩ .
(٤) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت (ب-ت) ١ : ٢٥ .
(٥) عيار الشعر ، ابن طباطبا ، تحقيق د. طه الحاجري ، ود. محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦م : ٦ - ٧ .
(٦) انظر الصناعتين : ١٦٧ .

وقد اعتمد بعض النقاد على رأي ابن طباطبا ، مثل ابن شيث(١) والقلقشندي الذي قال :"الفقرة من النثر كالبيت من الشعر"(٢) .

غير أن بعض النقاد فرقوا بين الرسالة والقصيدة في المبنى واللغة ، بالإضافة إلى الوزن ، فرأى المرزوقي أن كل "ما يحمد في الترسل ويختار ، يذم في الشعر ويرفض"(٣) ، ورسم ابن رشيق حدوداً فاصلة للشعراء والكتاب في استعمال الألفاظ ، فالشاعر عنده له ألفاظ معروفة "لاينبغي أن يعدوها" ، وكذلك الكاتب(٤) .

وقد استعمل ابن الأثير لفظ رسالة للدلالة على الكلام النثري الجميل الصالح لمراسلة الآخرين . قال في ضرورة عدم حفظ الكاتب للكلام المنثور :"والذي بعثني على الإكباب على حفظ الشعر ، دون الخطب والرسائل أني إذا أخذت معنى من معاني الشعر ، وأودعته رسائلي ، كنت قد نقلت من ضد إلى ضد"(٥) .

فالرسالة إذن ، لون نثري ، وقد استعملت في العصر المملوكي الأول بهذا المعنى . قال القلقشندي في الرسائل :"وهي جمع رسالة ، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب : من حكاية حالٍ من عدو أو صيد ، أو مدح وتقريض ، أو مفاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى . وسُمّيت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال ، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات ، ثم تُوسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها"(٦) .

ويدل كلام القلقشندي على أن لفظة رسالة ترادف لفظة مكاتبة من جانب ، وتختلف عنها من جانب آخر ، فالمكاتبة هي ما يُكتب ويرسل ، أما الرسالة فقد تكتب ولاترسل ، لكنه أشار إلى تشابه بينها وبين المكاتبات في أساليب الافتتاح إن أرسلت .

---

(١) انظر معالم الكتابة : ٩٦ ، ١٠٥ .
(٢) صبح الأعشى ٢ : ٣٠٨ .
(٣) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٥١م ، ١ : ١٩ .
(٤) انظر العمدة ١ : ١٠٧ .
(٥) الوشي المرقوم : ٥١ ،وانظر : ٥٠ ، ٥٢ ،المثل السائر ١ : ٢٣٩ .
(٦) صبح الأعشى ١٤ : ١٥٧ ، وانظر : ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وفي رسائل كتّاب العصر ما يشير إلى أن لفظ مكاتبة ، أو كتاب، كان يستخدم للدلالة على معنى رسالة ، مثل قول ابن دقيق العيد : "هذه المكاتبة إلى فلان ..."(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن شيث يطلق لفظ المكاتبة أو الكتاب على الرسالة الديوانية ، سواء كانت سياسية أو إدارية(٢) ، وكذلك ابن فضل الله(٣) ، بينما أطلقه القلقشندي على الرسائل الديوانية والإخوانية(٤) . وقد أشرت فيما تقدم إلى أن لفظ رسالة مرادف لمكاتبة أو كتاب .

وإن التعريف المتقدم للرسالة يشمل كل كلام نثري يُكتب ويصلح أن يُكاتب به الكاتب غيره بغض النظر عن موضوعه ، ولذا يدخل فيه الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء إلى المكاتبين في داخل الدولة أو خارجها(٥) ، والرسائل الإخوانية التي كان الكتّاب يتبادلونها فيما بينهم(٦) ، وتلك الرسائل التي كانت تُنشأ بغرض الوصف أو المناظرة أو النقد، الموسومة بالرسائل الأدبية(٧) .

غير أن موضوع هذه الدراسة هو الرسالة الفنية ، وتقيد هذه الصفة الرسالة بقيود تتعلق ببنائها وأسلوبها .

فالرسالة الفنية لها بناء خاص ، وعناصر أساسية لابد من توافرها فيها ، إذ تُبنى على ثلاثة عناصر ، هي : الافتتاح والعرض ثم الختام ، وينبغي أن يكون هناك اتصال وثيق بين هذه العناصر ، مما يعطي الرسالة وحدة في الموضوع ، ويميّزها عن غيرها من ألوان النثر .

---

(١) الطالع السعيد بجامع أسماء نجباء الصعيد ، الأدفوي ، تحقيق سعد محمد حسن ، الدار المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م : ٥٩٧ ، وانظر ديوان ابن الوردي ، تحقيق د. أحمد فوزي الهيب ، دار القلم ، الكويت ١٩٨٦م : ١٣٦ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، السلوك ١ : ١٠٢٧ .
(٢) انظر معالم الكتابة : ٥٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ .
(٣) انظر التعريف بالمصطلح الشريف : ١٧ - ١١٨ .
(٤) انظر صبح الأعشى ٧ : ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٨ : ٢٥٠ ، ٢٥١ ٣٩٨ ، ٩ : ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٦٤ ، ١٨٩ .
(٥) انظر الصناعتين : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٦) انظر حسن التوسّل : ٣٨٢ .
(٧) انظر صبح الأعشى ١٤ : ١٥٧ .

أما ما يتعلق بأسلوبها ، فإنها تتسّم بحلاوة العبارة ، ودقة اختيار الألفاظ ، وزخرفتها بفنون البديع ، إلى جانب العناية بالتصوير الفنّي ؛ ولذلك تخرج رسائل المعاهدات والهدن من هذا التعريف ؛ إذ هي خلو من البديع والتصوير الفني .

ويتضح مما تقدم أن مفهوم الرسالة الفنية مدار هذه الدراسة هو كل كلام كُتب بلغة فنيّة جميلة ، مبْني على افتتاح وعرض وخاتمة ، صالحٍ أن يُراسل به كاتبه شخصاً غيره دون مراعاة موضوعه .

وقد اضطررت أحياناً إلى الحديث عن رسائل غير خاضعةٍ لهذا التحديد ، وهي قليلة جداً ، وذلك لما لها من أهميةٍ في موضوعها ، وبخاصة رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر يحثّه على الجهاد ، ورسالتان في التهديد للأعداء ، كما عرضت لرسالة هولاكو إلى قطز يهدده فيها قبل معركة عين جالوت .

الرسالة الديوانية

يقصد بها ما كان يصدر عن ديوان الإنشاء من رسائل : ابتداءً أو رداً ، وهي وسيلة الاتصال بين السلطان من جهة ، ونوابه والموظفين والرعية في السلطنة ، والملوك خارجها من جهة أخرى(١) .

والحديث عن الفائدة التي تحققها دراسة هذه الرسائل يفضي إلى جانبين على قدر كبير من الأهمية ، يتمثل أولهما في أنها تعبر عن موقف السلطة الحاكمة من القضايا السياسية والدينية والاجتماعية في هذا العصر ، كما تصور بعض الخلافات السياسية بين سلاطين المماليك، وتوضح في الجانب الآخر بعض الجوانب الحياتية للمجتمع المملوكي مثل: حياة الفقراء ، والشيعة ، وأهل الذمة ، ومثل انتشار الفساد في بعض الفترات في المجتمع .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسالة الديوانية أصبح لها في عصر المماليك أنماط كثيرة ، مثل : المبايعات والعهود للخلفاء والسلاطين وأبنائهم ، ومثل التقاليد والتفاويض والتواقيع والمناشير ، وهي رسائل تولية وتعيين ، والمراسيم الصادرة بالأوامر السلطانية لتقرير أمر ، والمعاهدات والمفاسخات المختصة بالعلاقات مع الأعداء ، والبشارات الخاصة بالمناسبات السعيدة مثل النصر وفيضان النيل وجلوس السلطان على العرش ، ورسائل الحث على الجهاد ، والتهديد ، والسخرية بالعدو(٢).

- الرسالة الديوانية والحياة السياسية

عبّر الكتّاب في عصر المماليك عن كثير من جوانب الحياة السياسية ، وكانت الرسالة الديوانية هي المجال الأول الذي يعرض لمثل ذلك ، وبذلك يكون القدر الأكبر من الرسائل الديوانية وما فيها من أفكار تعبيراً عن التوجهات السياسية لأولي الأمر ، وترجمة لتصوراتهم حول مفاهيم الحكم والخلافة ، كما صورت شيئاً

---

(١) انظر عصر السلاطين المماليك ٥ : ١١٢ - ١١٣ .
(٢) للاطلاع على هذه المسمّيات انظر : التعريف بالمصطلح الشريف : ١١٩ - ٢١٦ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٣٦ ، ٣٩٥ ، ٩ : ٢٨٥ - ٢٨٩ ، ١٠ : ٤٤ - ٤٥ ، ١١ : ٧٥-١١٤ ، ١٣ : ٢٤-٨٢ ، ١٥٧ ، ٣٢٢ ، ٣٤٩-٣٥٠ ، ١٤ : ١٨ ، ١٢١-١٢٣ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥: ١٢٥، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٣ .

من الخلافات السياسية بين المماليك أنفسهم ، وتنازعهم في الوصول إلى الحكم ، ويمكن وصف هذا اللون من الرسائل بأنه الإعلام الناطق باسم المماليك ، ويبدو ذلك جلياً في تعبير الكتّاب عن رأي المماليك في الحكم .

يسترعي انتباه المطالع في الرسائل الديوانية بعامة في هذا العصر ، استناد المماليك في تثبيت دعائم حكمهم على القول بأن الله اختارهم لمنصب الملك ، ومهّد السبيل أمامهم ، وألهمهم العدل والتقوى ، وأمدهم بالقدرة على حماية حوزة الإسلام ، ورعاية مصالح المسلمين ، ويبدو أن المماليك استندوا إلى ذلك لأنهم استولوا على الملك من الأيوبيين عنوة ، ولم يكن لهم ما يدعمون به ملكهم سوى هذه الادعاءات .

جاء في مرسوم على لسان الناصر بن قلاوون أن الله ارتضاهم لولاية أمر عباده ، ومكن لهم في أرضه ، وأذل مناوئيهم ، وكثر مواليهم ، ونصرهم على أعدائهم وأعداء الإسلام . قال :"إن الله منذ ملّكنا أمور خلقه ، وبسط قدرتنا في التصرف في عباده والمطالبة بحقه ، وفوض إلينا القيام بنصرة دينه ، وفهمنا أنه تعالى قبض قبل الخلق قبضتين فرغبنا أن نكون من قبضة يمينه ، ...، ومهد لنا من الأمر ما على غيرنا توعّر ، وأعد لنا من النصر ما أجرانا فيه على عوائد لطفه ..، ألهمنا إعلاء كلمة الإسلام ، وإعزاز الحلال وإذلال الحرام ، وأن تكون كلمة الله هي العليا"(١) .

وحتى يكون أمر السلطان مقبولاً نافذاً ، فقد نسب الكتّاب تعيين السلطان لبعض الموظفين إلى إلهام الله له ، وأنه ما اختاره إلا بعد أن عرف أنه أهل لوظيفته . قال محيي الدين بن عبد الظاهر في توقيع بالتدريس كتبه عن بيبرس :" نحمده على نعم ألهمت وضع الأشياء في محلها ، واستيداعها عند أهلها ، وتأتّيها بما يزيل الإشكال بانجذاب من شكله مناسب لشكلها" ، وقال من التوقيع نفسه : "فالحمد لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها ،...، وألهم حسن الاختيار أن يجري القلم بما يحسن بالتوقيع الشريف موقعه"(٢) .

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٣٢ ، وانظر ١٣ : ٣٧٩ ، ١٤ : ٣٤٧ ، ٤٤٠-٤٠١ .
(٢) نفسه ١١ : ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، وانظر : ١٤٢ .

وكان مما استند إليه المماليك في تثبيت ملكهم قيامهم بواجب الجهاد ضد أعداء الدين ، وهو أمر لاينكره منكر ، فقد استطاعوا أن يدحروا بقايا الصليبيين من بلاد الشام ، ووقفوا نداً قوياً في وجه المغول فهزموهم ، وردوا كيدهم إلى نحورهم . قال الشهاب محمود الحلبيّ في مرسوم على لسان الناصر محمد بن قلاوون : "... ورزقنا من النصر على أعدائه ما أعز المسلمين وأذالهم ، وأذل المشركين وأزالهم ، وكف بالرعب أطماعهم ، وأعمى بما شاهدوه أبصارهم ، وأصم بما سمعوه أسماعهم" (١) .

وقد يجمع الكاتب إلى الاختيار الإلهي للسلطان ، اتفاق المسلمين جميعاً على أهليّته ، وإجماع أهل الحل والعقد على أنه أصلح المسلمين للملك . قال جمال الدين بن نباتة المصري في سلطنة الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤٣ هـ بأنه نال: "إجماع الأمة على أنه صالح المسلمين ، وكفاة الحلّ والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين ، وأركان البيت الناصري على أنه عماده" (٢) .

- مبايعات الخلفاء وعهود السلاطين

قضى المغول عام ٦٥٦ هـ على الخلافة الإسلامية في بغداد ، فاستغل المماليك هذه الفرصة الذهبية لنقل الخلافة إلى مصر ، وقد حققوا بذلك شرعية دينية لملكهم ، وشدوا قلوب المسلمين تجاههم ، ففي عام ٦٥٩ هـ استقبل الملك الظاهر بيبرس واحداً من بقايا العباسيين وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وبايعه على الكتاب والسنة (٣) .

ويبدو من خلال المبايعات التي كتبت عن السلاطين للخلفاء أن منصب الخلافة كان شكلياً فارغاً من أي سلطة للخليفة ، فالسلطان هو الحاكم الفعليّ ، ويحرص السلطان في مبايعته الخليفة على أن يفوض المبايع إليه مقاليد الأمور ، وهي

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٢٦ - ٢٧ ، وانظر ١١ : ١٣٤ .
(٢) نفسه ٨ : ٣٦٥ ، انظر ١٤ : ٣٥١ .
(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ابن عبد الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م : ٩٩ - ١٠١ ، تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت (ب.ت) : ٤٣٩ - ٤٤٠ .

لفتة ذكية من المماليك ؛ إذ كانوا يجعلون الخليفة يقرّ بملكهم في الوقت الذي يبايعونه فيه ، ويكون إقراره بسلطتهم جزءاً من مشروعية بيعته ، فإن نقض فإنما ينقض على نفسه . جاء في مبايعة المنصور أبي بكر بن الناصر محمد عام ٧٤١ هـ للخليفة أحمد بن المستكفي على لسان الخليفة :"وأمير المؤمنين يشهد الله وخليقته عليه أنه أقر كل امرئ من ولاة الأمور الإسلامية على حاله" ، وقوله : "وأمر أمير المؤمنين ... أن يعلن الخطباء بذكره وذكر سلطان زمانه على المنابر في الآفاق ، وأن يضرب باسمهما النقود المتعامل بها على الإطلاق"(١) .

ويحصل السلطان في مبايعته للخليفة على أن يفوض إليه أمر الجيش ، والتصرف في الأموال ، وتدبير شؤون الحكم ، ومن ذلك في المبايعة المتقدمة : "وأما الجهاد ، فيكتفي باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأموره ، المقلد عنه جميع ما وراء سريره ، وأمير المؤمنين قد وكل إليه - خلد الله سلطانه - عناء الأيام ، وقلده سيفه الراعب بوارقه ليسلّه على الأعداء وإلا سلّ خباله عليهم في الأحلام"(٢) .

والأمر في عهود الخلفاء للسلاطين لايختلف كثيراً عما هو في المبايعات ، بل يظهر فيها ضعف الخلافة ، وفقدان الخليفة لأي سلطة فعلية بشكل أكثر وضوحاً كما في عهد بيبرس عن الخليفة أحمد بن الظاهر عام ٦٥٩ هـ .

بدأ الخليفة العهد بحمد الله الذي أعاد إلى الدين قوته ، وأنس ما كان حل بساحته ، وسخر له من الغيارى من يقوم بنصره ويتفق الجميع على طاعته ، وبعد تكرار الحمد والتشهد أخذ يعدد مناقب بيبرس وأهمها سعيه لإعادة الخلافة ، وقيامه بجهاد أعداء الدين ، فقال :"إن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فاضحى بسعيه الحميد متقدما ، ودعا إلى طاعته فاجاب من كان منجداً ومتهما ؛ وما بدت يدٌ من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصما ، ولا استباح حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما" .

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، تاريخ الخلفاء : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
(٢) نفسه ٩ : ٣٤٠ ، تاريخ الخلفاء : ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

لقد كانت مأثرة عظيمة لبيبرس في سجلّه الحافل ، فالخلافة ، وإن كانت شكلية ، تجمع المسلمين ، وتوحد توجهاتهم ، وتشعرهم بالطمأنينة ، ولذلك ركز الخليفة على هذه الفضيلة لبيبرس ، وعلى أنه عرض عليه استخلافه لإحياء ما هُدم من أركان الدولة ،ولو كان السلطان غيره ما فعل ، مدعياً أن الله ادّخر هذه الحسنة له ، واستبقى هذه المنقبة ليحققها على يديه ، قال :"لكن الله ادّخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابه ...، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه"(١) .

مهد الخليفة بما تقدم لإعلان شكره لبيبرس على حسن صنيعه ، وتفويض أمر الممالك الإسلامية إليه ، ليكون ذلك عن جدارة واستحقاق ، وحتى لايظهر ضعف سلطته ، وأنه لايعدو كونه شخصية اعتبارية مجردة من كل مسؤولية أو دور في الحكم . قال :"وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتّسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الحجازية ، واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك ، حين اصبحت بالمكارم فرداً ، وما جعل منك بلداً من البلاد ، ولا حصناً من الحصون مُستثنى ، ولاجهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى"(٢) .

وشرع الخليفة يوصي السلطان بصيغ لاتشعر بالأمر ، بل بالتلطف والتمني عليه ، ومن ذلك قوله يوصيه بدفع الظلم عن المظلومين ، ويذكره بأنه الحاكم الأول الذي يجب عليه القيام بأمر الحكم بالعدل، وبأن الخليفة لن يعارضه بل يُعاضده :"وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ، وعزائمه تخفف ثقلاً لاطاقة لهم بحمله ، فقد أضحى على الإحسان قادراً ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لغيره ممن تقدم من الملوك ، وإن جاء آخرا . فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى أوجب لك مزية

---

(١) الروض الزاهر : ١٠٢ - ١٠٣ .
(٢) نفسه : ١٠٤ .

التعظيم ، ونبّه الخلائق على ما خصك الله به من الفضل العظيم"(١) .

ويتضح من المبايعات والعهود أن المماليك قاموا بهذه الخطوة لتثبيت ركائز سلطانهم ، ولذلك عُزل بعض الخلفاء حينما ظهرت منهم بوادر للخروج عن هذا النهج(٢) ، وأجبر بعضهم على تجديد العهود للسلاطين أحياناً . ففي عام ٧٠٨ هـ احتال الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري على الناصر محمد بن قلاوون ، فاستولى على السلطنة بعد أن كان الناصر قد خرج إلى الكرك(٣) ، فكتب له الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان عهداً بالسلطنة ، وفوض إليه الحكم بكل ما يقتضيه (٤) . وقد استغل الخليفة في ذلك العهد محبة الناس له ، وأثره في نفوسهم لينفذ ما أراده بيبرس المنصوري ، فادعى أنه اختاره ليكون سلطاناً للمسلمين بعد ان أعمل الفكر في اختيار من يصلح فلم يجد غيره ، وعندما بلغ بيبرس أن الناصر محمداً بدأ يتحرك عام ٧٠٩ هـ لاستعادة سلطانه طلب من الخليفة أن يجدد له العهد، ويطالب الجيش بالخروج معه لقتال الناصر ففعل (٥) .

استغل الخليفة كل ما هو متاح له في هذا العهد لتحقيق ما يريده السلطان بيبرس المنصوري ، فولى وعزل ، ووصف بيبرس بأهليته للسلطنة ، وأشار إلى أنه استشار القضاة والفقهاء فأشاروا عليه بذلك، وادعى أن الملك ليس بالوراثة مناقضاً في ذلك ما عُرف عن العباسيين من اتخاذ الوراثة وولاية العهد طريقاً للمُلك . قال : "إني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين نائباً عني لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ،وأقمته مُقام نفسي ، لدينه وكفاءته وأهليته ورضيته للمؤمنين ، وعزلت من كان قبله بعد علمي بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعيّناً علي ، وحكمت بذلك الحكام الأربعة ، واعلموا ، رحمكم الله ،

---

(١) الروض الزاهر : ١٠٥ - ١٠٧ ، وانظر عهوداً أخرى عن الخلفاء للسلاطين في صبح الأعشى ١٠ : ٤٦ - ٧٤ .

(٢) من هؤلاء سليمان بن أحمد بن الحاكم بأمر الله اعتقله الناصر محمد بالقلعة خمسة أشهر ، ثم نفاه وأولاده إلى قوص عام ٧٣٨ هـ واستمر بها إلى أن توفي عام ٧٤٠ هـ . (انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ،دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٦م ٢ : ١٤١ - ١٤٤) .

(٣) سيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً في تصوير الخلافات السياسية ، لاحقاً .

(٤) نص العهد في نهاية الأرب ٨ : ١٢٨ - ١٣٥ .

(٥) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٦١ - ٢٦٢ .

أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد : خالفٍ عن سالف ، ولاكابر عن كابر"(١) .

وعمد الخليفة إلى الترهيب والترغيب ، ومن ذلك أنه جعل من خالف عن أمره ، ورفض بيبرس سلطاناً له وعصاه ، فقد عصى رسول الله الكريم ، ومن عصاه فقد عصى الله تعالى . إنه استغلال لمشاعر المسلمين الدينية في أمر لايجوز استغلالها فيه ، وتحريف للكلم عن مواضعه وسياقه ، ونزول بمنصب الخلافة إلى درجة أن يصبح الخليفة داعياً لغيره ، وعاملاً على تثبيت من ليس الحق في جانبه ؛ وسعياً وراء إثارة النفوس ضد الملك الناصر فقد اتهمه الخليفة بسفك الدماء وهتك الأعراض ، وتفريق الصفوف ، وبذلك يجب قتاله . قال :"وبلغني أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصاة على المسلمين ، وفرق كلمتهم ، وشتت شملهم ، وأطمع عدوهم فيهم ، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبي الحريم والأولاد وسفك الدماء ، فتلك دماء قد صانها الله تعالى عن ذلك . وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك ،... ، وقد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائي الشريف ، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله إن استمر على ذلك ، وأنا مستصحبٌ معي الملك المظفر فجهزوا أرواحكم"(٢) .

وتوضح العهود أن المماليك اتخذوا من نظام الوراثة أساساً في الحكم ، فكان السلطان يأخذ البيعة لأحد أبنائه ، ويصدر له تفويضاً بولاية العهد من بعده ، لكن الأمر كان ينتهي في بعض الأحيان بعزل المعهود له بعد وفاة العاهد ، ومن ذلك عزل قلاوون للملك السعيد بركة بن بيبرس عام ٦٧٨ هـ ونفيه له ولإخوته وأمه إلى الكرك(٣) ، كما عُزل الناصر محمد بن قلاوون مرتين عن المُلك عامي ٦٩٤ هـ ، و ٧٠٨ هـ قبل أن يستقر الأمر له ولأولاده (٤) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض السلاطين كانوا يعهدون إلى أبنائهم وهم صغار السن ، ويبدو أن ذلك كان سبباً قوياً في عزلهم ، فضلاً عن غلبة كبار الأمراء

---

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٦٣ .
(٢) نفسه ٨ : ٢٦٣ .
(٣) انظر الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، ابن دقماق ، تحقيق محمد كمال الدين علي ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٥م ، ٢ : ٨٨ - ٩١ .
(٤) نفسه ٢ : ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٧ - ١٣٨ .

من قادة الجيش على عرش السلطنة ، الأمر الذي يشعر بعدم استقرار نظام الحكم في الدولة المملوكية ، حتى أصبح السلاطين دمىً يحركها قادة الجيش كما يشاؤون ، وبخاصة بعد وفاة الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٤١ هـ(١) .

وقد ادعى سلاطين المماليك صلاحية ولاة عهودهم لخلافتهم ، وأن ولايتهم كانت لصالح المسلمين ، وبموجب النظر في مصالحهم ، ورعاية الإسلام وأهليه ، وجعلوا من ولاة عهودهم أبطالاً في ساحات الجهاد، يُعتمد عليهم في الذود عن حياض المسلمين . كتب محيي الدين بن عبد الظاهر على لسان قلاوون في عهده لابنه الملك الأشرف خليل: "فاطلعنا في أفق السلطنة كوكباً سعيداً كان لحُسن الاستخلاف مُعداً ، ومن لقبيل المسلمين خيرٌ ثواباً وخيرٌ مردا ، ومن يبشر الله به الأولياء المتقين وينذر من الأعداء قوماً لُدا" . وبعد إطالةٍ في عرض صفاته ومزاياه قال :"ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه ما كان لوقته المعلوم قد تأخر . وتحين حينئه فكمل زيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فابدر ، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور ، والمراقبة لمصالح الأمور ، والمصاقبة لمناجح البلاد والثغور ، والمقاربة من فواتح كل أمر ميسور ، أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة "(٢) .

لكن محيي الدين في عهد قلاوون لابنه الملك الصالح علي كان أكثر تملقاً لسلطانه ، فزعم على لسان قلاوون أن تفويض ابنه الصالح إنما هو رأفة بالأمة ، وشفقة عليها ، وأنه المدّخر لشفاء ما في صدور المسلمين من غليل على أعدائهم ، ويوفر لهم العدل والأمن في ظل حكمه . قال :"فلذلك اقتضت الرحمة والشفقة على الأمة أن ينصب لهم ولي عهد يتمسكون من الفضل بعروة كرمه ، ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمه ، ويقتطفون أزاهر العدل وثمار الجود من كلمه وقلمه ، وتسعد الأمة منه بالملك الصالح الذي تقسم الأنوار لجبينه ، وتقسم المبار من كراماته وكرمه "(٣) .

---

(١) انظر الجوهر الثمين ٢ : ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨١ - ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، السلوك ٢ : ٥٧٠ ، ٥٩٣ ، ٦١٨ و النجوم الزاهرة ١٠: ١٦ ، ٥١ ، ٧٠ .
(٢) صبح الأعشى ١٠ : ١٧١ ، ١٧٢ .
(٣) نفسه ١٠ : ١٧٩ .

وادعى محيي الدين في عهد بيبرس لابنه الملك السعيد عام ٦٦٢ هـ(١) أنه استجاب في ذلك إلى طلب المسلمين، وأراد أن يعلم ابنه على حسن التصرف، وتدبير الأمور، ورعاية حقوق الأمة، وصيانة البلاد من المعتدين، ووصف الملك السعيد بأنه قوة تنضاف إلى قوة الإسلام فتزيده منعة. قال: "وان نرتبه على حسن الأخلاق الملوكية متنشئة منه ومنتشية به من الصغر، ونجعل سعي الأمة حميداً، ونهب لهم منه سلطاناً نصيراً وملكاً سعيداً، ونقوي به عضد الدين ونريش جناح المملكة، وننجح مطلب الأمة بإيالته وكيف لاينجح مطلب فيه بركة"(٢).

- تصوير الخلافات السياسية

لم تحفظ المصادر من الرسائل التي تصور الخلافات السياسية بين المماليك، ونزاعاتهم الدموية على الملك سوى بضعة رسائل دارت بين الملك الناصر محمد بن قلاوون وأمراء دولته بعد خلعه عام ٧٠٨ هـ.

ويبدو أن السبب وراء ذلك هو تحاشي المؤلفين جمع مثل هذه النصوص خشية الإيقاع بهم، كما كانت نصوص هذه الرسائل لايعرف بها إلا فئة قليلة جداً من أمراء المماليك أنفسهم، ولذلك لم تنتشر انتشار غيرها من الرسائل الديوانية.

اضطر الملك الناصر عام ٧٠٨ هـ إلى عزل نفسه من السلطنة بعد أن اشتدت مضايقات نائبيه الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري(٣)، الذي أصبح سلطاناً بعد خلع الناصر نفسه، والأمير سلار(٤)، ثم أرسل إلى مصر رسالة تنازل فيها عن السلطنة، جاء فيها: "حرس الله تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين...، أما بعد: فقد طلعت إلى قلعة الكرك، وهي من بعض قلاعي وملكي، وقد عولت على الإقامة فيها، فإن كنتم مماليكي ومماليك أبي فأطيعوا نائبي، ولاتخالفوه في

---

(١) الروض الزاهر : ٢٠٣، الجوهر الثمين ٢ : ٧٢، السلوك ١ : ٥١٦.
(٢) نفسه : ٢٠٧، صبح الأعشى ١٠ : ١٦٩.
(٣) آل به الأمر إلى الموت خنقاً على يد الناصر عام ٧٠٩ هـ (انظر كنز الدرر وجامع الغرر، ابن أيبك الدواداري، تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠م، ٩ : ١٩٧ - ٢٠٥، السلوك ٢ : ٨٠ - ٨١، النجوم الزاهرة ٨ : ٢٧٥).
(٤) سيف الدين سلار بن عبدالله المنصوري، مات جوعاً في الاعتقال بقلعة الجبل بالقاهرة عام ٧١٠ هـ (انظر فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (ب-ت)، ٢ : ٨٧ - ٨٧).

أمر من الأمور" وهو يعني بذلك سلار ، وكأن الناصر أراد إيقاع الفتنة بين خصميه (١) .

يبدو أن رسالة الناصر هذه لم تؤد إلى ما أراد ، فقد رد عليه الأميران برسالة تهديد ووعيد ، وطالباه فيها بالنزول من قلعة الكرك والعودة إلى مصر هو ومن معه وما معه ، وهدداه بأن يخرجوه بالقوة من الكرك إن لم يستمع ، ويوحي مضمون الرد بأنهما عرفا ما يرمي إليه الناصر من إشارة الفتنة بينهما ، ومحاولته التقوي بأمراء الشام من نوابه ؛ ليعود إلى الملك قوياً . جاء في الرد قولهما :"ما علمنا ما عولت عليه ، وطلوعك إلى قلعة الكرك ، وإخراج أهلها ، وتشييعك نائبها ، وهذا أمل بعيد فخل عنك شغل الصبي ، وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولايصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم ، فيا ليت لو علمنا ما كان وقع في خاطرك .... فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب ، يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك مماليكك ، وإلا ، تعلم أنّا ما نخليك في الكرك ولو كثر شاكروك" (٢) .

ويتضح من رد الناصر على هذه الرسالة أنه قد عرف مغزاهما منها ؛ فأراد أن يتخلص من تهديدهما فأظهر الضعف ، وكرر نزوعه عن السلطنة ، وأخبر بإعادته كل ما كان أخذه معه من الأموال . قال في الرد :"ما أخذت لكم شيئاً من بيت المال ، وهذا الذي أخذته قد سيّرته لكم ، فانظروا في حالكم وأنا ما بقيت أعمل سلطاناً ، وأنتم على هذه الصورة ! فدعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت ، وإما بغيره" . واستناداً إلى هذا الكتاب بويع بيبرس المنصوري سلطاناً بدلاً من الناصر (٣) .

كتب بيبرس بعد توليه تقليداً للملك الناصر بنيابة الكرك ، في محاولة منه لصرف نظره عن العودة إلى السلطنة ، ادعى فيه موالاته لبيت الناصر وأبيه المنصور ، وأنه حريص على نيل رضاه ، وأطال في مدح الملك الناصر ، لكنه زعم فيه

---

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ١٨٠ .
(٢) نفسه ٨ : ١٨٠ .
(٣) نفسه ٨ : ١٨١ .

ان الناصر خلع نفسه من الملك رغبةً في الانقطاع لعبادة الله ، وزهادة منه في الدنيا ، وأنه كان يثق بالأمراء من حوله فترك تدبير أمر الملك إليهم لما عهده فيهم من إخلاص وحسن نية . قال :"رأى أن الموارد الدنيوية لابد لها من مصادر، وأن اوائل الأمور تستدعي الأواخر، وأن للزهادة في الدنيا ،وإن عظم قدرها ، الشأن الكبير ، وأن الانقطاع إلى الله تعالى منهل صفو لايقبل شوائب التكدير ، وقوي عزمه في الرحلة عن مقر ملكه إلى اعز حصونه المنيعة ، بل إلى أجلّ معاقله الرفيعة ، قاصداً بها الانفراد ،...، واثقاً بأن للملك من أولياء بيته الشريف كل ولي عهد لاتخفر لديه الذمم ، وكل سلطان افق تضؤل دون عزمه الهمم" .

وتلطف بيبرس في خطاب الناصر أيّما تلطف ، وادعى أن هذا التقليد إنما كان لإعانة الناصر على بلوغ مراده ، وأن قيامه هو سلطاناً كان للغرض نفسه ، وأكد احترامه له ، وهي لغة المستميل الذي يحاول التخفيف من غضب الناصر . قال : "اقتضى اعتناؤنا الشريف أن نبلغه من مآربه الشريفة اقصى المرام ، وأن نساعده في كل امر يعرف منه الموافقة منا على الدوام ، وأن ننظم الأمر في سلك الإرادة على مُراده ، وأن نبادر إلى راحة سره الشريف وفؤاده ، ولسوف نعامل مقامه العالي بكل احترام يصل إليه تفصيلاً وإجمالاً"(١) .

راسل الناصر في هذه الأثناء مجموعة من نواب الشام ، ولامه هؤلاء على نزوله لبيبرس عن الملك ، وأظهروا الولاء والتاييد له ، وأكدوا أيمانهم له ، وكان اكثر الأمراء حماسةً للاتفاق مع الناصر نائبه على حلب الأمير قراسُنْقُر المنصوري(٢) ، وقد ارسل إليه الناصر من الكرك يدعوه إلى الصبر ، وإعمال الحيلة على بيبرس وسّلار بإظهار الولاء لهما وإبطان غيره . قال في رسالته :"فهذه عقدة ما تحل إلا بالصبر ، وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له ، فقدم النية أنك مجبور ومغصوب واحلف ، ولاتقطع كتبك عني في كل وقت ، وعرفني بجميع الأمور قليلها وكثيرها"(٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٥٩ - ١٦٣ .

(٢) شمس الدين بن عبدالله ، أقامه الناصر نائباً في دمشق بعد رجوعه إلى السلطنة ، ووقعت وحشة بينه وبين الناصر عام ٧١١ هـ ، فتوجه إلى المغول ، وتوفي في بلادهم عام ٧٢٨ هـ (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ابن حبيب الحلبي ، تحقيق د. محمد محمد امين ، القاهرة ١٩٨٢م ، ٢ : ١٨٣) .

(٣) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

ولكي يتم الأمر على الوجه الذي دبره الناصر ومن سانده من الأمراء ، اتبع نصيحة نائب طرابلس الأمير استندمر(١) الذي قال له في شان بيبرس :"المصلحة أن تخادعه في الكلام وتترقق له في الخطاب حتى نجهّز أمرنا ونستظهر"(٢) ، ففعل الناصر ، وكان جماعة من المماليك في مصر قد هربوا ولحقوا بالناصر في الكرك ، وأرسل إليه بيبرس يطالبه بردهم(٣) .

لم يُرد الناصر أن يخذل الأمراء الذين حضروا لمساندته ، فكتب إلى بيبرس يستعطفه ويستجير به ، وأظهر العبودية وخالص الولاء . قال في افتتاح الرسالة : "المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية أسبغ الله ظلها ، ورفع قدرها ومحلها ، وينُهي بعد رفع دعائه ، وخالص عبوديته وولائه..." ، وقال يشفع فيمن فر إليه :"وقد استجاروا بالمملوك ، والمملوك يستجير بظل الدولة المظفرية والمأمول ألا يُخيّب سؤاله ، ولايكسر قلبه ، ولايرده فيما قصده" ، وتابع هذا الاسترحام بقوله :"وإن رسم مولانا السلطان مالك الرق أن يُسيّر نائباً له ، ينزل المملوك بمصر ، ويلتجئ بالدولة المظفريّة ويحلق رأسه ويقعد في تربة الملك المنصور، والمملوك قد وطن نفسه على مثل هذا" ، وختم الناصر رسالة الخدعة هذه بطلب العفو من بيبرس(٤) .

ويذكر ابن تغري بردي أن بيبرس لما قرأ هذه الرسالة انطلت عليه الحيلة ، وتأكد له ولسلار أن الناصر لم يبق له قدرة على المعاندة والمطالبة بالملك(٥) ، وفي أثناء ذلك دبر الناصر وأعوانه أمورهم،وبدأ برحلة العودة إلى مصر بعد أن تسرب لطرفه كثير من المماليك ، ولما بلغ ذلك بيبرس طلب من الخليفة أن يكتب له بتجديد العهد كما تقدم، غير أن ذلك لم يكن ذا فائدة ، حيث انفض عنه أعوانه ، فأرسل إلى الناصر يطلب عفوه وصفحه قائلاً بأنه نزل عن الملك . قال:

---

(١) سيف الدين استندمر بن عبدالله الكرجيّ ، توفي بعد عودة الناصر إلى الملك بعامين عام ٧١١ هـ (انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٨٧ - ٣٨٨) .
(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٥٦ .
(٣) انظر كنز الدرر ٩ : ١٦٧ ، النجوم الزاهرة ٨ : ٢٤٨ - ٢٥٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٥٦ - ٢٥٧ .
(٥) نفسه ٨: ٢٥٧ .

"والذي أعرفك به أني قد رجعت أقلدك سيف بغيك *، فإن حبستني عددت ذلك خلوة ، وإن نفيتني عددت ذلك سياحة ، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة"(١) ، فرق الناصر له واقطعه ، لكنه عاد عن ذلك وقتله خنقاً(٢) .

- الرسالة الديوانية والحياة الدينية

تبرز الرسائل الديوانية اهتمام المماليك بإقامة شعائر الإسلام ، وتطبيق احكامه ، وتفيض رسائل التولية التي يصدرها السلاطين بالوصايا لمن يولونهم من الموظفين بذلك ، ويأمرونهم فيها بنشر العدل بين الرعية والعمل به ، والعناية بأهل التقوى والصلاح ، واتباع آراء العلماء في الأمور المستجدة . جاء في تقليد بكفالة السلطنة بالشام من وصية السلطان للمقلد :"فليمهد بالعدل أكناف البلاد ، ولينظر بعين الرعاية والسداد ، ولينشر لواء الإنصاف ،...، وليأمر بإقامة الحدود على شارب السلاف ، وعلى السارقين بالقطع من خلاف ،...، والله الله في الشرع الشريف وإقامة مناره ، وتنفيذ كلمة أحكامه وإزالة أعذاره ، والتقوى فهي افضل شعاره ، وقرة أبصاره"(٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأئمة والخطباء والمدرسين في المساجد كانوا يعينون من قبل الدولة ، وقد حفظت المصادر عدداً كبيراً من رسائل توليتهم ، وترى فيها عناية المماليك بالعلوم الدينية واضحة ، إذ دأبوا على التوصية بالاجتهاد في تبليغ العلم ، وكشف المشكل من مسائله . أوصى السلطان قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بذلك في تقليد بالتدريس أنشأه محيي الدين بين عبد الظاهر ، قال فيه : " فليخول وينول كل ذي استفادة ، وليجمل منه بذلك العقد الثمين من علماء الدين بأفخم واسطة تفخر بها تلك القلادة ، وليذكر من الدروس ما يبهج الأسماع ، ويرضي الانتجاع ، ويجاد به الانتفاع ، ويجتلبه من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع ، ويتناقل الرواة فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع ، وليقل فإن الأسماع

---

* في الأصل : أقلدك بغيك ، ولعل ما أثبتّه أولى ، إذ هو مثل معروف .
(١) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٧٠ - ٢٧١ .
(٢) نفسه ٨ : ٢٧٤ - ٢٧٥ .
(٣) صبح الأعشى ١٢: ٢١ - ٢٢، وانظر: ٨ - ٩، ١٣ - ١٤، ١٩، ٤١، ٤٧ .

لفوائده منصتة"(١) .

وقد رسم المنشئون لأرباب المناصب الدينية من قضاة وأئمة وخطباء صوراً عمادها : التقوى ، والزهد ، والعلم الوفير ، وحسن التدبير ، وغيرها مما يوحي بأهليتهم لتولي تلك المناصب . وُصف بهاء الدين السّبكي قاضي الشافعية بدمشق في تقليد توليته بأنه "هو الذي تختال به المناقب ، وتختار فضله العواقب ، ويشرق قلمه بالفتاوى إشراق النهار ، وتغدق منافعه إغداق السحب بالأمطار ، وتحدق به الطلبة إحداق الكمامة بالثمر والهالات بالأقمار ، وهو شافي عيّ كل شافعي ، ودواء ألم كل المعي ، وطالما جانب جنبه المضاجع سهاداً ، وقطع الليل ثم استمده لمدد فتاويه مداداً"(٢) .

لكن في بعض الرسائل تعريضاً ببعض علماء الدين ، حيث كان فيهم من لايُقيم حدود الله على وجهها الشرعي ، ويجري لاهثاً وراء دنياه ، وهو نادر الوقوع في الرسائل ، إلا في تلك التي يذكر فيها سبب عزل أحدهم ويولي غيره ، ومن ذلك تقليد بقضاء الشافعية بالشام أنشأه أحمد بن فضل الله العمري ، قال يوصي المقلّد :"عليك بتقوى الله في السر والعلن ،... ، وإقامة حدود الله ولا تتعد حدوده ، وقمع البدع لإظهار الحق لا لإثارة فتنة مقصودة ، فقد علمت ما أنكرته أنت وأمثالك من الأئمة العلماء على من تقدمك من تسرعه في مثل ذلك ، وتطلعه إلى مطالب سقط دونها في مهاوي المهالك ، فإياك إياك أن تتبع في هذا النحو سبله "(٣) .

كما تبرز بعض رسائل النّصح التي وجهها القضاة إلى نوابهم في الولايات مثل الصورة المتقدمة آنفاً ، ومن ذلك أن القاضي ابن دقيق العيد ، قاضي الشافعية بمصر . أرسل إلى أحد القضاة في الريف يرشده ويعظه ، ويطلب إليه الانتباه من سِنته ، والصحوة من غفلته التي أرخى زمامها لشيطان هواه ، قال فيها يصف انحرافه :"والمقتضي لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ٢٣٠ ، وانظر : ٢٢٥ ، ٢٢٧ .
(٢) نفسه ١٢ : ٣٨ ، وانظر : ٣٧، ٤٣، ١١ : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ .
(٣) نفسه ١٢ : ٤٤ ، وانظر : ٤٥ - ٤٦ .

تقاعد الهمم عن القيام بما يجب للرب على المربوب ، ومن أنفسهم بهذه الدار وهم عنها يزعجون ، وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كئود وهم منها لايتخلصون ، ولاسيما القضاة الذين تحملوا الأمانة على كواهل ضعيفة ،...، ولا أرى مع ذلك أمناء ولاقرارا ولاراحة ، اللهم إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همّه وهمّته على حظ نفسه ...، غير مستشعر خسة حاله ، ولاركاكة مقصده "(١).

ويتضح للمطالع في رسائل التولية لقضاة المذاهب الأربعة أن المماليك كانوا يعدون قاضي الشافعية أعلاهم رتبة وأجلهم قدراً ، وإن كانوا قد فصلوا المذاهب الأربعة وجعلوا لكل منها قاضياً ، ففي عام ٦٦٣ هـ(٢) عمل بيبرس على ذلك واستمر العمل بما قرره ، لكن رتبة القاضي الشافعي ، ومنزلة المذهب الشافعي ، من نفوس المماليك ظلت كما هي(٣) .

إن ادعاء المماليك الحرص على تطبيق أحكام الشرع الحنيف ، ومزاعمهم في فتح آفاق العلوم الدينية لطلبة العلم ، وحثهم العلماء على الاجتهاد ، له ما يناقضه في رسائلهم ، حيث صدرت مراسيم سلطانية أحياناً تنهى الناس عن اتباع رأي عالم أو مجتهد في مسألة ، أو تأمر بترك مذهب والدخول في غيره ، أو تحث ولاة الأمر على تضييق أبواب الحياة على أهل رأي ، حتى يعودوا عن رأيهم .

وقد حفظت مصادر العصر المملوكي رسالتين فريدتين في هذا السياق، أولاهما كتبت في عهد الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٥ هـ ، وكتبت الأخرى عام ٧٦٤ هـ ، وتوضح الرسالتان موقف المماليك من العلماء الذين يحاولون البحث في قضايا فكرية في الإسلام مثل ابن تيمية ، ونظرتهم إلى الإسلام بشكل عام ، وموقفهم من الشيعة .

ويبدو أن ابن تيمية كان يخالف بعض الآراء الفقهية السائدة في زمنه ، كما

---

(١) الطالع السعيد بجامع أسماء نجباء الصعيد : ٥٩٨ ، وانظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨م ، ١٢ : ٣٦٢ .
(٢) انظر الجوهر الثمين ٢ : ٧١ ، البداية والنهاية ١٣ : ٢٨٤، السلوك ١ : ٥٣٨ .
(٣) وانظر رسائل تبين ذلك صبح الأعشى ١٢ : ٣٦ - ٤٧ .

يبدو أن جراته سببت له متاعب كثيرة ، يذكر ابن أيبك الدواداري أنه عام ٧٠٥ هـ ضايق بعض الفقهاء ابن تيمية ، وحاججوه في مسائل أفحمهم في الرد عليها ، فتعرض جماعة من تلاميذه للأذى من قبل القاضيين الشافعي والحنفي ، ثم أصدر نائب السلطان مرسوماً أمر فيه بالإمساك عن الجدل في مسائل العقيدة ، جاء فيه :"من تكلم في العقائد حل ماله ودمه ، ونهبت داره ، وهتكت عياله"(١) .

وقد تعصب القضاة الثلاثة : الشافعي والحنفي والمالكي ضد الشيخ ابن تيمية الحنبلي ، وجرى بينهم وبين القاضي الحنبلي كلام كثير ، وأهين الحنابلة بمصر ، وظلوا في سعي عليه عند السلطان الناصر حتى أمر بحضوره إلى القاهرة ، ثم حاكمه جماعة القضاة الثلاثة ، وأمر السلطان بعد ذلك باعتقاله ، وسجن إخوته في برج من أبراج القلعة(٢) .

ثم أصدر السلطان بعد هذه الواقعة مرسوماً بمخالفة عقيدة الشيخ ابن تيمية ، وإلزام الناس جميعاً ، وبخاصة الحنابلة ، بذلك ، ويظهر المرسوم أن القضية التي اثيرت وسجن ابن تيمية بسببها كانت تتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته ، والتشبيه والتجسيم .

بدأ السلطان المرسوم بمقدمة تتضمن حمد الله تعالى الذي ألهمه العمل بالكتاب والسنة ، وطمس في أيامه ما يدعو إلى الشك والفتنة ، أتى الكاتب فيها بآيات وأحاديث تنفي التشبيه والتجسيم والتحييز عن الله سبحانه ، وتدعو إلى التفكر في مخلوقات الله لا في ذاته .

ثم تحدث الكاتب عن العقيدة السلامية ، وضرورة تطبيق حكم الشرع على من زاغ وضل ، وسلك فيها مسلكاً لاترجى معه النجاة ، وضرورة تحقيق الإجتماع عليها بلا اختلاف ، حتى لاتكون الآراء مدعاة للفتن والبدع ، وهو في ذلك يمهد لإلقاء خبر القبض على ابن تيميّة بادعاء أنه صاحب بدعة فيما ذهب إليه ، قال الكاتب : "إن العقائد الشرعية ، وقواعد الإسلام المرعية ، وأركان الإسلام العليّة ،

---

(١) كنز الدرر وجامع الغرر ٩ : ١٣٣ - ١٣٥ .
(٢) انظر نفسه ٩ : ١٣٦ - ١٣٧ .

ومذاهب الدين المضيّة ، هي الأساس الذي يبنى الإيمان عليه ، والمؤمل الذي يرجع كل أحد إليه ، الطريق التي من سلكها قد فاز فوزاً عظيماً ، ومن زاغ عنها فقد استوجب عذاباً أليماً ، فلهذا يجب أن تنفذ أحكامها ، ويؤكد زمامها ، وتصان عقائد هذه الأمة عن الاختلاف ، وتزان قواعد الأئمة بالائتلاف ، وتخمد ثوائر البدع ، ويفرق من قوّتها ما جمع"(١) .

وأرى أن ما استند إليه السلطان في اعتقال ابن تيمية ، وعده مبرراً لمنع الناس من اتباع رأيه لأمر" مستهجن حقاً ، فلم يكن الخوض في مسائل الأسماء والصفات جديداً بل خاضه العلماء المسلمون في عصور متقدمة ، ولا كان الحديث فيما سكت عنه الصحابة والتابعون بدعة توصل الإنسان إلى الكفر البواح ، ولا كانت مخالفة (علماء العصر) في رأي تؤدي بالمرء إلى الشرك ، لكنما هو حرص السلاطين على جعل الدين ومسائله تقليداً أعمى فيما يبدو ، وحصر الكلام فيه على جماعة من العلماء الذين يعملون في مناصب الدولة ، ورفض الحكام المماليك لأي محاولة للخروج عن ذلك . وإن حجج السلطان تظهر الأسباب الحقيقية وراء هذا المرسوم وإعلان الحرب على ابن تيمية وآرائه . قال :"وكان التقي بن التيميّة في هذه المدة قد سلط لسان قلمه ، ومد عنان كلمه ، وتحدث في مسائل الذات والصفات ، ونص في كلامه على أمور منكرات ، وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون ، وفاه بما يخفيه السلف الصالحون ، وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام ، وانعقد على خلافه اجتماع العلماء والحكام ، وشهر من فتاويه في البلاد ما استخف به عقول العوام ، فخالف في ذلك علماء عصره ، وأئمة شامه ومصره ، وبعث رسائله إلى كل مكان"(٢) .

ادعى السلطان بعد ذلك حرصه على نقاء العقيدة الإسلامية ، ومحاربة البدع في سبيل الحفاظ على الإسلام ، وأنه إنما استدعى ابن تيميّة إلى القاهرة بسبب انتشار آرائه "المضلّة" في مصر والشام على حد زعمه ، فأعطاه فرصة للدفاع عن نفسه أمام قضاة المسلمين وعلمائهم ، وأولي الألباب منهم ، فلما ثبت عليه أمر

---

(١) كنز الدرر ٩ : ١٣٩ - ١٤٠ .
(٢) نفسه ٩ : ١٤٠ .

بسجنه بعد أن استتيب مراراً فما ارعوى ، وروجع في آرائه فلم يرجع ، قال : "ولما وصل إلينا ، تجمع أولو الحل والعقد ، وذوو التحقيق وفقهاء المسلمين ، وعُقد له مجلس شرع ، في ملأ من الأئمة وجمع ، فثبت عند ذلك عليه ، جميع ما نُسب إليه ، بمقتضي خط يده ، الدال على معتقده ، وانفصل ذلك الجمع وهم لعقيدته منكرون" . ولم ينسب السلطان أمره بالسجن إلى ذاته ، بل إلى حكم الشرع ؛ ليكون أكثر إقناعاً . قال : "فلما ثبت ذلك في مجلس الحكم العزيز ، حكم الشرع الشريف بأن يُسجن المذكور ، ويُمنع من التصرف والظهور"(١) .

ويبدو أن هذا المرسوم كان يهدف إلى تهدئة خواطر الناس من اتباع ابن تيمية ؛ ولذلك بدأ السلطان بأمر الناس جميعاً في السلطنة بمخالفة رأي ابن تيمية ، والابتعاد عن الخوض فيما خاض فيه ، ولزوم رأي "علماء الأمة" المنكرين عليه ، ثم هدد من حاد عن تلك الجادة بالسيف ، ثم عرض بالتهديد للحنابلة اتباع ابن تيمية ، لكنه تهديد" بغير السيف ، بل بالسجن ، وإلغاء ما يترتب على المذهب من وجود قضاة لأتباعه ، ورفض شهادتهم ، وإخراجهم من وظائفهم . قال: " فليقف كل أحد عند هذا الحد ، فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فليلزم كل من الحنابلة بالرجوع عما أنكره الأئمة من هذه العقيدة ، والخروج من هذه المشتبهات الشديدة ، ولزوم ما أمر الله به من التمسك بمذاهب أهل الإيمان الحميدة ، فإنه من خرج عن أمر الله تعالى فقد ضل سواء السبيل ، وليس له منا غير السجن الطويل من مقيل ، ومتى أصروا على الامتناع ، وأبوا إلا الدفاع ، فليس لهم عندنا حكم ولا قضاء ولا إمامة ، ولا نسمح له في بلادنا بشهادة ولا منصب ولا إقامة ، ونأمر بإسقاطهم من مراتبهم ، وإخراجهم من مناصبهم ، وقد حذرنا وأعذرنا ، وأنصفنا حيث أنذرنا"(٢) .

ويذكر ابن أيبك أن الحنابلة أجبروا بعد قراءة هذا المرسوم على القول باعتقاد ما يعتقده الإمام الشافعي ، كما يذكر أن أهم الأسباب فيما حدث لابن تيمية كان هجومه على محيي الدين بن عربي الصوفي الشهير ، فقد لعنه ابن تيمية

---

(١) كنز الدرر ٩ : ١٤٠ - ١٤١ .
(٢) نفسه ٩ : ١٤١ - ١٤٢ .

علماء ورد على كتابه "فصوص الحكم" بكتاب سماه "النصوص على الفصوص" ، وذكر فيه كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها ابن عربي ، فوقع ذلك في نفس بعض المتصوفة موقعاً سيئاً ، فسعوا عليه عند نائب السلطان بيبرس الجاشنكير ، وكان لهم عنده منزلة ، فما زالوا يسعون على الإيقاع به حتى حدث ما أرادوا ، وقد جرت على الحنابلة بعد هذه الواقعة فتن كثيرة (١) .

إذا كان موقف المماليك من الحنابلة ، وهم من أهل السنة ، قاسياً لهذه الدرجة ، مما يدل على حدة الخلافات المذهبية في المجتمع المملوكي ، فإن عوامل كثيرة دفعت المماليك إلى اتخاذ موقف أشد من الشيعة (٢) ؛ ومن أهمها خلافهم الممتد قروناً مع أهل السنة ، وقيام دولة المماليك بعد دولة أسلافهم الأيوبيين الذين حاربوا التشيّع ، وحاولوا القضاء على كل أثر له في أعقاب القضاء على الدولة الفاطمية بمصر .

وقد سجلت الرسالة الديوانية هذه الموقف تسجيلاً واضحاً ، حيث أوصى السلاطين النواب بقمع الشيعة ، وتضييق الخناق عليهم ، ونرى في بعض هذه الرسائل محاججة لهم ، وتسفيهاً لمذهبهم . ولى الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٦ هـ ابن جمّاز (٣) إمرة المدينة المنورة ، وأنشأ تقليده ابن فضل العمري ، أحمد . قال فيه يوصيه :"فليكفّ من عادية هؤلاء الروافض الأشرار ما سيصلون في الموافقة بناره ، وسيصلون إلى الموافقة على ما طار من شراره ، ولايدع للإماميّة إماماً يقتدي به منهم قوم شرار ، ولاقاضياً يقضي بينهم : فإنه إنما يقطع لمن قضى له أو عليه قطعة من نار ، ولاعالماً يُرفع له علم ، ولايُفتح لهم بفتوى على مذاهبهم فم ، حتى ولاما يتحرك به في فم الدواة القلم ، وليُطهر هذا المسجد الشريف من دنسهم ، وليُمط ما يحمله أديم مجلدات التصانيف من نجسهم" (٤) .

---

(١) كنز الدرر ٩ : ١٤٣ - ١٤٥ .
(٢) خطط المقريزي ٢ : ٣٣٤ ، وانظر مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : ٢٩٠ .
(٣) أبو مزروع ، وُدي بن جمّاز بن شيحة ، ينتسب إلى آل الحسين ابن علي بن أبي طالب ، توفي عام ٧٤٣ هـ (انظر الأعلام ، الزركلي ، طبعة مطبعة كوستاتوماس ، القاهرة ١٩٥٤م ، ٨ : ١١٢).
(٤) صبح الأعشى ١٢ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

وفي عام ٧٦٤ هـ أصدر السلطان الملك الأشرف شعبان(١) بن حسين بن الناصر محمد مرسوماً "يمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة وردعهم ، والرجوع إلى السنة والجماعة ، واعتقاد مذهب أهل الحق ، ومنع أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة ، والتعرض إلى أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين..."(٢) .

واستمد كاتب المرسوم في مقدمته معاني تمهد للغرض منه ، يظهر فيها تمسك المماليك بمذهب أهل السنة ، وحربهم المعلنة على الشيعة ، وتهديد السلطان لهم بالقمع ، ووصفه لهم بالأعاجم الأراذل . قال :"الحمد لله الذي شرع الحدود والأحكام ، وجدع بالحق أنوف العوام الأغتام الطغام ، وجعل الصلاح والنجاح والفلاح في الأخذ بسنة خير الخلق وسيد الأنام ، وقمع الزائغين عما عليه أهل السنة من الحق في كل نقض وإبرام" .

وبعد حمد الله والشهادة بوحدانيته ، والصلاة على نبيه الكريم ، ذكر الكاتب فضائل الصحابة رضوان الله عليهم ، وركز في ذلك على ترتيب أربعة الخلفاء حسبما يراه أهل السنة من تقديم أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، مشيراً إلى فضل كل منهم ، وهو متأثر في ذلك بطبيعة الموضوع والغرض من الرسالة .

وحاول الكاتب بيان فساد مذهب الشيعة ، فبدأ بالحديث عن ظهور دين الإسلام ، وقيام الرسول الكريم بتبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتوضيح الطريق حتى لم يدع سبيلاً لمتأول ، فأتم الله دينه على يديه ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، ثم ذكر ما كان من أمر الصحابة بعده ، موضحاً أن خلفاءه ما غيروا ولا بدلوا ، وساروا على ما سنه ، مقتدين به فيما بيّنه ، وهو يرد في ذلك على الشيعة الذين يتهمونهم . قال :"فقام خلفاؤه بعده بآثاره يقتدون ، وبهديه وإرشاده يهتدون ، ولأحكامه يتبعون ، ولأوامره يستمعون ، ولمعاني ما جاء به

---

(١) تولى السلطة في شعبان عام ٧٦٤ هـ بعد خلع ابن عمه المنصور محمد ابن حاجي بن الناصر محمد ، وأقام فيها إلى أن قتل عام ٧٧٨ هـ (المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ابن تغري بردي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤م ، ٢ : ٢٨٨) .
(٢) صبح الأعشى ١٣ : ١٤ .

يعون ، وإلى قضاياه يرجعون ، ولايغيّرون ولايبدلون ، ولا يتعرضون ولايتأولون ، فقضى على ذلك الخلفاء الراشدون المهديون، لم يتبع أحد منهم في زمانهم عقيدة فاسدة ، ولم يُظهر أحد مقالة عن سواء السبيل حائدة "(١) .

إن هذا العرض المطول لما كان عليه الحال في عهد الرسول الكريم ، وعهد خلفائه لم يكن ، فيما يبدو ، سوى تمهيد للحديث عن تفرق الأمة أحزاباً كل بما لديهم فرحون ، كما يوحي بأن هذا الاختلاف بين السنة والشيعة يجب أن يزول ، ولكن على حساب الشيعة ، فهم ، كما يرى الكاتب ، الذين حادوا عن سواء السبيل ، شأنهم في ذلك شأن بقية الفرق التي حرفت أو انحرفت ؛ ولذلك عرض لتفرق الناس تبعاً لأهوائهم ، ثم ذم الشيعة وسفّه أحلامهم ، فوصفهم بأنهم أهل بدع وضلالات ، وعقائد زائفة ، وبأن حججهم ضعيفة ، ودعواهم سخيفة . قال :"ثم تفرقت الآراء ، وتعددت الأهواء ، واختلفت العقائد ، وتباينت المقاصد ، ووهت القواعد ، وتصادمت الشواهد ، وتفرقت الناس إلى مُقر بالحق وجاحد ، وظهرت البدع في المقالات... ، واضعفهم نقلا ، وأوهنهم حجة ، وأبعدهم من الرشد محجة ، طائفة الرافضة الشيعة ، لارتكابهم أموراً شنيعة ، وإظهارهم كل مقالة فظيعة ، وخرقهم الإجماع ، وجمعهم قبيح الابتداع ، فتبددوا فرقاً و سلكوا من فواحش الاعتقادات طرقاً ، وتنوع ناسهم ، وتعددت أجناسهم ، وتجرأوا على تبديل قواعد الدين ، وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المرشدين"(٢) .

أطنب كاتب المرسوم في ذم الشيعة ، وحاول بكل الوسائل أن يثبت بطلان آرائهم ، وفساد عقيدتهم ، فجعل منهم حزب الشيطان ، ووصفهم بالمارقين من الدين ، وبأنهم يتأولون القرآن على غير ما أراد الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا أساس لآرائهم ، ولايصح أن يدعوا التشيع لآل بيت الرسول الكريم على حد قوله .

ثم خص الكاتب أهل بيروت وصيدا من الشيعة ، فذكر ما كان من اتباعهم للمذهب ، واتخاذهم أئمة لهم يتحاكمون إليهم ، وتعظيمهم لأعلام علماء الشيعة ،

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ١٤ - ١٦ .
(٢) نفسه ١٣ : ١٦ - ١٧ .

واتهمهم بأنهم يستحلون دم المسلمين من أهل السنة ، ويأكلون مال مخالفيهم ، ويجمعون بين الأختين في النكاح ، "ويتدينون بالكفر الصّراح ، إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث، والمذهب الذي ساوى في البطلان مذهب التثليث" على مازعم(١) .

ولما كان الغرض من المرسوم هو التهديد ، والأمر بالإقلاع عن التشيّع لمن اعتقده ، لوّح الكاتب بنية السلطان في استخدام القوة لقمع أولئك ، وسلك مسلك التبرير لاستخدامها ، فجعل يجادل ويحاور ، ويذكر أحكاماً شرعية وكأنه فقيه يرد على مسائل ، ووصف الجيش بأنه عسكر الإسلام ، وبأنه فرقة من جيش الإمام أمير المومنين ، وكأنه يلوح بوجوب طاعته والنزول على أمره . قال :"أردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام ، وفرقة من جند الإمام ، تستأصل شأفة هذه العصبة الملحدة ، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة ، ثم رأينا أن نقدم الإنذار ، ونسبق إليهم بالأعذار ، فكتبنا هذا الكتاب ، ووجهنا هذا الخطاب ، ليُقرأ على كافتهم ، ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم ، يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها ، والمذاهب التي انتحلوها ، تُبيح دماءهم وأموالهم ، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم"(٢) .

ويبدو أن السلطان أراد أن يعود هؤلاء عما هم عليه دون استعمال القمع والقوة ، فجعل يرشدهم كاتب المرسوم وينصحهم ، وذكرهم بما ادخره الله تعالى لمن تاب وأصلح ، وطالبهم بإصلاح ما اقترفوه من موبقات ، وقرن ذلك بالترهيب بوعيد الله لمن حاد عن جادة الصواب ، ليكون أعظم أثراً في نفوسهم . قال :"فإن عذاب الله شديد ، ونكال المجرم في كل يوم يزيد ، ودار غضب الله تنادي بأعدائه هل من مزيد ، فلا طاقة لكم بعذابه ، ولاقدرة على أليم عقابه"(٣) .

ثم عاد الكاتب مرة أخرى إلى الوعظ والإرشاد ، فذكرهم بضرورة مراجعة النفس ، واستدراك ما فات " قبل فوات الفوت وهجوم الموت ، وانقطاع الصوت ،

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ١٨ - ١٩ .
(٢) نفسه ١٣ : ١٩ .
(٣) نفسه ١٣ : ٢٠ .

واعتقال اللسان ، وانتقال الإنسان" . قال في ختام المرسوم :"وقد أعذر من انذر ، وأنصف من حذر ، فإن حزب الله هم الغالبون ، والذين كفروا سيغلبون"(١).

إن ما تقدم ينم عن تعصّب شديد ضد الشيعة ، وهو موقف لا مسوغ له ، حيث كان موقف المماليك من أهل الذمة أقل قسوة وإجحافاً .

- الرسالة الديوانية والحياة الاجتماعية

لعل أكثر الظواهر بروزاً في رسائل التولية والتعيين تلك الوصايا التي يوصي بها السلاطين الموظفين ، وبخاصة العناية بالرعية ، وتحقيق العدل والأمن لهم ، والقيام على رعاية الأيتام والفقراء والضعفاء ، ويبدو أن المماليك حاولوا من خلال ذلك كسب تأييد الناس لهم ، ولذلك ترى في عقب كل وصية بذلك طلباً بتبصير الرعية بمحاسن السلطان ، واستجلاب الدعاء له . فقد كان ممّا أوصيَ به بهاء الدين السبكي في توليته قضاء الشافعية بدمشق العناية بالأيتام والفقراء. قال السلطان يوصيه بكف أيدي موظفي الأوقاف والصدقات عن الانتقاص من حقوقهم ، أو اكل أموالهم :"فاجتهد أن تكون فيهم اباً براً ، وأن تتخذ فيهم عند الله أجراً ، وأن تعامل في بنيك بمثل ما عاملتهم إذا انقلبت إلى الدار الأخرى ، واحفظ أموالهم أن تنتهكها أجرة العمال ، وترجع في قراضها إلى ما يجحف برؤوس الأموال"(٢) .

ويمكن القول بأن هذا الاتجاه كان أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالحركات الصوفية التي انتشرت في المجتمع المملوكي انتشاراً واسعاً ، وقد استغل سلاطين المماليك هذه الحركات في نشر فكرة الانقطاع للعبادة والابتعاد عن الخوض في القضايا السياسية (٣) ، ولذلك عُنوا بهم عناية خاصة ، وبنوا لهم الخانقاوات والزوايا والرُبط ، وقد برز هذا الموقف في الرسائل الديوانية بوضوح .

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٢١ .
(٢) نفسه ١٢ : ٤٦ ، وانظر : ٩ ، ١٣-١٤ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١-٢٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
(٣) انظر مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : ٢٩١ - ٢٩٢ ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، د. سعيد عاشور ، دار النهضة القاهرة ١٩٦٢م : ١٦٢ - ١٦٣ .

وترى في الرسائل ترويجاً لصالح هؤلاء ، ولفكرة قربهم من الله سبحانه ، فهم الذين يُستجاب دعاؤهم، ولا تغلق دونهم أبواب السماء ، وهم الأساس الذي يُبنى عليه ، إذ يستمطر بهم الرزق ، وتكشف بهم الغمة ، ويستشفى بهم وببركاتهم من السّقام ، وصفهم ابن فضل الله العمري من توقيع بمشيخة الشيوخ بالخانقاه الصلاحية (١) بقوله : "إن أولى ما استقام به الشخص على الطريقة ، واستدام به الرجوع إلى الحقيقة ، واستنام به يطمئن إلى الخالق لا إلى الخليقة ،...، طائفة أهل الصلاح ، ومن معهم من أهل الصفا ، الصوفيّة داعي الفلاح، ومن تضمهم من الواردين إليهم بجناح ، والصادرين عنهم بنجاح"(٢) .

كما أوصى السلاطين أرباب الوظائف بالصوفيّة خيراً ، وأمر الموظفين بتعظيمهم وتقريبهم ، مدعين أنهم أهل الله وأحباؤه ، والهداة المهديّون . أوصى الناصر محمد بهاء الدين السبكي بهم قائلاً :" ومن نُسب إلى خرقة الفقر وأهل الصلاح هم أولياء الله المقربون ، وأحبّاؤه الأقربون ، فعظّم هباتهم ، فما منهم ، وإن اختلفت أحوالهم ، إلا من هو على هدىً مبين ، واحرص أن تكون لهم حباً يملأ قلوبهم ، فإن الله ينظر إلى قوم من قلوب قوم آخرين"(٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض رسائل التولية تظهر فيها صورة المجتمع المملوكي في بعض جوانبه أكثر من غيرها ، وأهم هذه الرسائل رسائل تعيين المحتسبين ورؤساء الأطباء ، وهما مما يتصل بحياة العامة اتصالاً وثيقاً .

وتظهر هذه الرسائل انتشار بعض الأمراض الاجتماعية في المجتمع المملوكي مثل الغش والاحتكار ، وتعاطي حرف وصناعات بغير معرفة ولاخبرة . قال ابن نُباتة المصري يوصي محتسب بعلبك :" فليستمر في حسبته المباركة .. جاعلاً أول نظره من أقوات الرعية في الدقيق والجليل ، مستبيناً لما التبس من غش المطاعم والمشارب ... دافعاً ضرر المجتري الباشع عن المشتري المسكين ، ذكياً فيما يذكي فيذبح

---

(١) شيخ الشيوخ : لقب كبير الصوفية ، وتسمى الخانقاه الصلاحية بسعيد السعداء ، بناها الأستاذ قُنبر أحد الأستاذين المحنّكين خدام القصر أيام الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقد جعلها صلاح الدين برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الإسلامية (خطط المقريزي ٢ : ٤١٥) .
(٢) صبح الأعشى ١١ : ٣٦٦ ، وانظر : ٣٧٠ - ٣٧١ .
(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٤٧ ، وانظر : ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ .

بسكين ويذبح متناوله بغير سكين ، قاضياً بالحق في كل ما يشترى ويباع ....، ومن عانى صناعة ليس له فيها يد فليلزمه بما بسط في إفساده اليدين..."(١) .

ويبدو أن وظيفة المحتسب كانت مهمة إلى درجة كبيرة ، وقد أعطاه السلطان المملوكي سلطات واسعة من تفتيش ومراقبة وتحسس وعقاب . قال ابن فضل الله من توقيع بنظر الحسبة في القاهرة بأن المحتسب "له التصرف المطلق ، والتعرف الذي يفتح من الحوانيت على أربابها كل باب مغلق ، ولركوبه في المدينة زينة" يحشر لها الناس ضحى ، ورهبة" يغدو بها كل أمين لشانه مصلحاً ، وإليه الرجوع في كل تقويم، وهو المرجو" في كل أمر عظيم"(٢) .

كما أظهر ابن فضل الله أن كثيراً من التجار وأرباب الحرف كانوا يرغبون في الكسب عن طريق الغش والاحتكار ، فأوصاه بضرورة التدقيق في أمورهم ومعاملاتهم ، ومعاقبة المفسدين منهم بقسوة ، وأن يقيم له عيوناً أعواناً على من يظن فيهم الخداع والتحايل ، وأن يحدد الربح على ما يسمح به الشرع ويطيقه الناس ، ثم اشار إلى انتشار الجهل بين العامة وإقبالهم على المنجمين ، وفساد بعض معلّمي الكتاتيب ، وإقبال الناس على القصّاص الذين يلهونهم بقصص كاذبة ، وهي لاشك جوانب طريفة في وصف المجتمع المملوكي نادرة" في الرسائل . قال ابن فضل الله : "وتفقد الأسواق مما يتولد فيها من المفاسد ، فإن الشيطان ربما باض في الأسواق وفرخ ، وأرباب الصنائع فيهم من يُدلّس ، وفقهاء المكاتب منهم من لعرضه يُدنس ، والقصّاص غالبهم يتعمّد الكذب في قَصصه ، وأهل النجامة كم منهم من لعب مرة بعقل امرأة وأمات رجلاً بغُصصه ، وآخرون ممن تضل بهم العقول ، وتظل حائرةً فيهم النقول"(٣) .

ومما يدل على انتشار الشعوذة في المجتمع المملوكي ، قيام المنجمين بممارسة أعمالهم علانية في الطرقات ؛ ولذلك كان رئيس الأطباء يوصى بملاحقة هؤلاء ، ومنعهم من الاستخفاف بعقول الناس ، ومن ذلك في توقيع برئاسة الطب في وصية

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ٣٧٨ - ٣٧٩ .
(٢) نفسه ١٢ : ٦١ .
(٣) نفسه ١٢ : ٦٢ ، وانظر : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

للمتولّي :"وليُعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرّزين في علمها ،...، ومنع من يتطرق من الطُرقيّة إلى معالجةٍ وهو عار من ردائها ، وكف يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدوائها قبل تحقق دوائها"(١) .

ويتبين من رسائل تولية الأطباء أنهم كانت تُجرى لهم اختبارات يُتحقق بها من أهليتهم ، وأن بعضهم كان يُطلب منه ألا يُعالج إلا بعد اكتساب خبرة كافية ، ويشترط فيه التقوى ، ومن ذلك ما جاء في توقيع أنشاه الشهاب الحلبي يوصي رئيس الأطباء : "فلا يقبل في التزكية إلا من يثق بدينه كوثوقه بعلمه ، ولايُصرّف أحداً في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التزكية ، وليشفعها بالامتحانات التي تُسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لثام دقائقها المنكية ، فإن العيان شاهد لنفسه ،...، وليأمر من ألجئ إلى معالجة مرض لايعرفه بمتابعة من هو أوفق منه بالتقديم ، ومراجعة من هو أعلم منه به ، فإن الحوادث قد تختلف"(٢) .

وتشير بعض الرسائل الديوانية إلى فساد عدد من الموظفين ، وبخاصة المفتشون الذين تُسند إليهم وظيفة مراقبة المعاملات من بيع وشراء ، وتحصيل حقوق الدولة من الضمان وأصحاب الإقطاعات ، كما تشير إلى تعدي بعض هؤلاء على حقوق الناس وأموالهم ، ومن ذلك ما جاء في توقيع في وصية المولّى :"فليضبط الأمور ضبطاً مستوعباً ،...، إذ الضُمّان لاينتظر لهم نظرة إلى ميسرة ، فإنهم سوس المعاملات ، وكواسر الجهات ، ومنهم يُحفظ أو يُضاع ، وبهم يترقى أو ينحط الارتفاع ، وجهات المقطعين الواجب له أن يجعل عليها واقية باقية ، ولتُحم لهم حتى لايتطاول إلى ذروتها امتداد الأيدي المختزلة ، ولاخُطا العُدوان الراقية ، وليصرف وجهه بحفظة إلى مراقبة من في باب الشد من مقدمين ، ومن رسل يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويبيعون الآجل بالعاجل ، ويُخيفون العام والخاص ، وكل منهم يروم الغناء وهو رقاص"(٣) .

وتدل بعض رسائل التولية والتعيين على أن الوظائف كانت تُتَوارث أحياناً ،

(١) صبح الأعشى ١١ : ٣٧٤ ، وانظر : ٣٧٦ .
(٢) نفسه ١١ : ٣٧٦ - ٣٧٧ .
(٣) نفسه ١٢ : ٣٥ ، وانظر في فساد القضاة ١٢ : ٤٢ ، ٤٤ .

بحيث تسند الوظيفة إلى الولد بعد أبيه ، أو إلى الأخ بعد أخيه (١) ؛ ولذلك كانت بعض الأسر تشتهر بتعاقب أفرادها في وظيفة معينة مثل تعاقب أبناء عبد الظاهر ، وأبناء فضل الله العمري ، وأبناء الشهاب محمود الحلبي في العمل بديوان الإنشاء (٢) .

ومن أهم الرسائل الديوانية التي تكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية في عصر المماليك ، وتبين موقف الدولة من المجتمع والرعية ، مراسيم المسامحات وإلغاء الضرائب ، ومراسيم إبطال المفاسد، ومراسيم إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية (٣) .

يتضح من خلال مراسيم المسامحات سعي بعض السلاطين إلى التخفيف من أعباء الحياة عن الرعية في الظروف القاسية مثل الجدب أو انتشار الأوبئة ، وقد حفظ القلقشندي عدة مراسيم منها كتبت في عهد الناصر محمد بن قلاوون(٤) ، وقد عُرف عنه وقوفه إلى جانب العامة وحبهم له ، حتى إنه ألغى خمساً وعشرين ضريبة كانت مقررة قبل عهده وفي أثنائه (٥) .

أصدر الناصر عام ٧٠٢ هـ مرسوماً بالمسامحة بما هو مقرر على الجنود والرعايا ببلاد الشام ، وهو من إنشاء كمال الدين الزَّمْلَكاني(٦) ، وقد جرت العادة أن تقرأ هذه المراسيم على المنابر، فقرئ المرسوم بالجامع الأموي بدمشق .

بدأ الزملكاني المرسوم بحمدالله ، واستمد معاني الحمد من مضمون المرسوم وغرضه قائلاً :"الحمدالله الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، وسمع نداء كل حي

---

(١) انظر إشارات إلى ذلك في رسائل في صبح الأعشى ١٢ : ٦٦ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ .
(٢) انظر الأدب في العصر المملوكي ٢ : ٤٥ - ٨٧ .
(٣) الشروط التي حدد بها عمر بن الخطاب معالم حياة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، انظر أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٣م ٢ : ٦٥٧ .
(٤) انظر صبح الأعشى ١٣ : ٢٤ - ٣٩ .
(٥) السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ، د. حياة ناصر الحجي، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨٣م : ٣٥ - ٣٦ .
(٦) محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري ، فقيه ، انتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره ، كتب في ديوان الإنشاء بدمشق ومصر ، وولي قضاء حلب ، توفي عام ٧٢٧ هـ (انظر : الأعلام ٦ : ٢٨٤) .

رأفة" وحلماً ، وخص أيامنا الزاهرة بالإحسان وأنجح فيها من عدل وخاب من حمل ظلماً ، وزان دولتنا بالعفو والتجاوز فهي تعتد" المسامحة بالأموال الجسيمة غنماً إذا اعتدتها الدول غرماً" "(١) .

ثم كرر الحمد ورحمة الله لعباده وتخفيفه عنهم ، وصلى على رسوله الذي سن الرأفة بعباد الله ، وحث على الإحسان إلى المعسرين منهم ، وذكر ما كان من أمر الصحابة في الحنو" على المسلمين ، وكل ذلك لايخرج عن سياق المرسوم .

وقد ركز الكاتب على قيام الناصر بأمر رعيته ، وإحسانه إليهم كلما سنحت لذلك فرصة ، وتحمله لأعباء الجهاد في سبيل الله ، وسعيه لتحقيق الأمن والطمانينة لمجتمعه بالعفو والمسامحة ، وحرصه على رعاية أحوال الناس والنظر في مصالحهم . قال :"رأينا أن نفسح لهم مجال الدعة والسكون ،..، وأن نشفع العدل فيهم كما أمر الله تعالى بالإحسان إليهم ، ونضع عنهم بوضع هذه الأثقال إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وأن نوفر على عمارة البلاد هممهم ، ونبرئ من تبعات هذه الأموال اللازمة لهم ذممهم ، ونريح من ذلك أسرارهم ، ونطلق من ربقة الطلب المستمر إسارهم ، ونسامحهم بالأموال التي أهملوها وهي كالأعمال محسوبة عليهم ، ونعفيهم من الطلب بالبواقي التي نسوها كالآجال وهي مقدمة بين يديهم ، لتكون بشراهم بالنصر كاملة ، ومسرتهم بالأمن من كل سبيل شاملة" (٢) .

وبعد تعداد الأموال والغلال التي صدر المرسوم بالمسامحة بها ، حاول الكاتب أن يدخل إلى نفوس الناس فيحقق لسلطانه التأييد ، ويجعلهم يؤازرونه ، وبخاصة أن هذه الرسالة كتبت بعد انتصاره على المغول عام ٧٠٢ هـ، وكان الناصر وقتذاك صغيراً يتحكم في دولته كبار الأمراء - كما تقدم في الحياة السياسية - قال ابن الزملكاني : "فليتلقوا هذه النعمة بباع شكرها المديد ، ويستقبلوا هذه النعمة بحمد الله تعالى فإن الحمد يستدعي المزيد ،...، وليتوفروا على رفع الأدعية الصالحة لأيامنا الزاهرة ، ويتيمّنوا بما شملهم من الأمن والمن في دولتنا

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٢٩ .
(٢) نفسه ١٣ : ٣٠ .

القاهرة ، فقد تصدقنا بهذه البواقي التي أبقت لنا أجرها وهي أكمل ما يُقتنى ، وخففت أثقال رعايانا وذلك أجمل ما به يُعتنى"(١) .

أما مراسيم إبطال المفاسد فتشير إلى شدة بعض السلاطين والأمراء على مخالفة أحكام الشريعة ، وقسوتهم في معاملة المفسدين ، ونهوضهم بواجب مكافحة الفساد ، وقد اشتهر ذلك عن الظاهر بيبرس ومحمد بن قلاوون(٢) ، كما تدل هذه المراسيم على انتشار الفساد في بعض الفترات في العصر المملوكي(٣) وقد ساعد على ذلك فساد بعض النواب والولاة(٤) ، وضعف السلاطين أحياناً(٥) . ذكر ابن حجر العسقلاني أنه كان في بعض نواحي مصر حارات للمغاني "يُعمل فيها من الفساد جهراً ما يقبح ذكره"(٦) .

أصدر بيبرس عام ٦٦٧ هـ مرسوماً يقضي "بإراقة الخمور ، وتبطيل المفسدات ، والخواطئ في البلاد كلها ، فنهبت الخواطئ، وسُلبن جميع ماكان معهن حتى يتزوجن"(٧) ، واتبع ذلك بمرسوم آخر يأمر فيه بإبطال الحشيش انشاه محيي الدين بن عبد الظاهر .

ويُفهم من المرسوم الأخير أن استعمال الحشيشة كان مستشرياً حتى إنهم تظاهروا به في المساجد ، ولذلك أمر بيبرس بحرقها ، وتاديب من يتعاطاها ويتاجر بها ، ويبدو أن هذين المرسومين كانا خطوتين من خطة إصلاح شاملة ، قال محيي الدين بأن استعمال الحشيشة "فشا في كثير من الناس ، وعُرف في عيونهم ما يُعرف من الاحمرار في الكاس ، وصاروا كأنهم خُشُبٌ مسنّدة" سُكرا ، وإذا مشوا يقدمون لفساد أذهانهم رجلاً ويؤخرون أخرى ، ونحن نامر بأن تجتث أصولها وتقتلع ، ويؤدب

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٣١ .
(٢) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٥ ، السلوك ٢ : ١٧٦، ٢٢٩ - ٢٣٠، ٣٨٧ ، ٥٣٤ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٧٣ ، ١٧٤ ، الدرر الكامنة ١ : ٤١٩ .
(٣) انظر السلوك : ٢ : ١٥١ ، ٦٨٩ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٤٦ ، ١٠ :١٢٢ ، ١٢٨ - ١٣٠ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ابن إياس ،تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامّة للكتّاب ، القاهرة ١٩٨٤م ١ : ١٨٤ .
(٤) انظر السلوك ٢ : ٦٤٩ ، النجوم الزاهرة ١١ : ٢١١ ، معيد النعم : ٥١ ، ٧٢ .
(٥) انظر السلوك ٢ : ٧٠٣ .
(٦) إنباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق د. حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٩م ، ١: ١٢٧ .
(٧) البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٥ .

غارسها حتى يحمد الندامة بما زرع ، وتطهر منها المساجد والجوامع ، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع"(١) .

كما يبدو أن الناصر محمداً بن قلاوون بدأ سلسلة من الإصلاحات بعد عودته إلى الحكم عام ٧٠٩هـ ، سعياً منه لكسب تاييد الناس والجند، فقد أصدر عام ٧١٧ هـ مرسوماً يقضي بإبطال المفاسد في طرابلس ونواحيها ، وكانت فيها حانة اشتهر أمرها ، ويشير المرسوم إلى أن حركة الإصلاح التي بدأها الناصر بدأت بمصر ثم نشرها في بلاد الشام . قال :"استقصينا ذلك في ممالكنا الشريفة مملكة مملكة ، واستطردنا في إبطال كل فاحشة موبقة مهلكة ، فعفينا من ذلك في الديار المصرية ما شاع خبره ، وظهر بين الأنام أثره ، وطبّقت بمحاسنه الآفاق ، ولهجت به ألسنة الدعاة والرفاق ،... ، ثم بثثنا ذلك في سائر الممالك الشامية المحروسة ، وجنينا ثمرات النصر من شجرات العدل التي هي بيد يقظتنا مغروسة"(٢) .

وفي المرسوم وصفٌ لما كان عليه الحال من المجاهرة بالمنكر في طرابلس ، وارتكاب المعاصي في حانتها ، والمتاجرة بالخمر ، ويبدو أن ذلك كان مقراً قبل الناصر ، أو من قِبَل نائبه ، وحجّة من أقره ما يدفعه صاحب الحانة لخزينة الدولة من ضرائب ، فأمر الناصر بإبطالها. قال يصف الحانة والفساد فيها :"ومما انهي إلينا أن بها حانة عُبّر عنها بالأفراح قد تطاير شررها ، وتفاقم ضررها ، وجوهر فيها بالمعاصي ،... ، وغدت لأهل الأهوية مجمعاً ، ولذوي الفساد مربعاً ومرتعاً ، يتظاهر فيها بما أُمر بستره من القاذورات ، ويؤتى بما يجب تجنبّه من المحذورات" . ثم أمر الناصر بأن يُلغى ما كان مقرراً على تلك الحانة من ضرائب وأن تغلق ويُعفى أثرها . قال : "فلتُعتمد مراسمنا الشريفة ولا يُعْدَل عن شيء منها ، ولتجْر المملكة الطرابلسية مجرى بقية الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات ، وتعفية آثار الفواحش"(٣) .

---

(١) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، ابن نباتة المصري ، تحقيق د. عمر باشا ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٧٢م : ٤٧٢ ، ثمرات الأوراق في المحاضرات ، ابن حجة الحموي ، تقديم د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م : ٢٣٤ ، وانظر الروض الزاهر : ٢٢٨ .
(٢) صبح الأعشى ١٣ : ٣٢ - ٣٣ .
(٣) نفسه ١٣ : ٣٥ - ٣٦ .

ومن هذه المراسيم مرسوم أصدره نائب طرابلس إلى نائب حصن الأكراد(١) عام ٧٦٥ هـ يأمره فيه بإبطال ما في الحصن من مفاسد كانت قد استشرت، كالمجاهرة بالخمور، وبناء الحانات، وتعاطي الحشيش، والزنا، ولعب القمار، وأمره بملاحقة المتاجرين، والمتعاطين، وهدم الحانة، ومعاقبة كل بما يراه الشرع فيه(٢).

وأما المراسيم التي أصدرها المماليك لإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية فقد حفظ القلقشندي اثنين منها، صدر أحدهما عام ٧٥٥ هـ، وصدر الثاني عام ٧٦٥ هـ عن نائب طرابلس قرين الأمر بإبطال المفاسد في حصن الأكراد المتقدم ذكره آنفاً، وهذا يخالف ما ذكره القلقشندي من أن آخر مرسوم صدر بذلك هو مرسوم الملك الصالح(٣) صالح بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٥ هـ(٤)، وتجدر الإشارة إلى أن ابن كثير ذكر صدور مرسوم بذلك عام ٧٦٧ هـ(٥).

وقد جرت العادة في دولة المماليك أن يُعين السلطان رؤساء لطوائف أهل الذمة، ويوصي المعيّنون منهم بإلزام أتباعهم بالطاعة والخضوع للدولة، والاعتناء بأمورهم الخاصة دون التعرض لأحد من المسلمين، أو المشاركة في الأحداث السياسية، إذ سُمح لهم بمزاولة شعائرهم، وبالاحتكام إلى علمائهم فيما يخص أمور دينهم(٦).

---

(١) قلعة مقابل حمص من غربيّها على الجبل المتصل بجبل لبنان، كانت محل النيابة ومقر العسكر منذ حررها بيبرس عام ٦٦٩ هـ (انظر معجم البلدان، ياقوت الحموي، طبعة دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٨٤م، ٢ : ٢٦٤، صبح الأعشى ٤ : ١٤٤)، تبعد عن حمص حوالي ٦٠ كيلومتراً، ومازالت قلعة الحصن ماثلة إلى الآن، وهي موقع أثري سياحي تابع لمحافظة حمص في سوريا (المعالم الأثرية في البلاد العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الشركة المصرية للطباعة، القاهرة ١٩٧٢م، ٢ : ٢٩٠ - ٢٩٢).

(٢) صبح الأعشى ١٣ : ٢١، وانظر ٢٢، ٢٣، وقد اشتهر عن بعض النواب شدتهم على أهل المنكرات، انظر السلوك ٢ : ٢٥٠، ٢٥٦، ٥١٠ - ٥١١، النجوم الزاهرة ٩ : ١٥٢، بدائع الزهور ١ : ١٧١ - ١٧٢.

(٣) تولى السلطنة عام ٧٥٢ هـ وظل حتى أواخر عام ٧٥٥ هـ، ثم عُزل وسجن بالقلعة حتى مات عام ٧٦١ هـ (الجوهر الثمين ٢: ١٩٩ - ٢٠٦)

(٤) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، القلقشندي، تحقيق عبد الستار فراج، وزارة الإرشاد والإنباء، الكويت ١٩٦٤م، ٢ : ١٥٧.

(٥) البداية والنهاية ١٤ : ٣٦١.

(٦) انظر رسائل تولية من ذلك في تشريف الأيام والعصور: ٢١٦ - ٢٢٠، ووصايا للمعيّنين منهم في التعريف بالمصطلح الشريف: ١٨١-١٨٤.

كما وقفت السلطة لدفع أذى العامة عنهم في أحيان كثيرة (١) ، وقد أصدر الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٠ هـ مرسوماً يقضي بإحسان معاملة رهبان دير القديسة كاترين بعد تقدمهم بشكوى ضد بعض العاملين في وظائف الدولة الذين اعتدوا على ممتلكاتهم الوقفية ، فأمر الناصر أن يُمنع "من يتعرض إليهم بأذية في نخلهم وحيازتهم ، وكرومهم ، وزروعهم ، وأسبابهم ، وغلالهم" ، "ولا يمنع فلاّحوهم ولقّاطوهم من العبور إلى نخلهم متى أرادوا ، ومهما سُرق لهم أو عُدم فليخلّص لهم" (٢) .

لكن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة في مجتمع المماليك كانت محكومة بعدة عوامل ، أهمها الصراع الدامي بين المسلمين والصليبيين ، كما ارتكب بعض النصارى جرائم شنيعة بحقّ المسلمين أحياناً ، حيث أهانوهم وبطشوا بهم عندما دخل المغول بلاد الشام عام ٦٥٨ هـ(٣) ، وشارك بعضهم في حرق بعض المساجد والبيوت(٤) وتطاول بعض أغنيائهم على بعض المسلمين في الطرقات وأذلوهم (٥) ، وساعدوا على توفير بعض المفاسد وإشاعتها ، واستغلوا كنائسهم أحياناً لتصنيع الخمور والمتاجرة بها (٦) ، أما اليهود فقد سرق بعض الكتاب منهم في الدواوين أموالاً احتيالاً (٧) ، وبذلك كان أمراً طبيعياً أن تقسو الدولة عليهم أحياناً .

ويبدو أن صدور مراسيم إلزامهم بالشروط العمرية كانت تابعة لسلوكهم في المجتمع ، إذ كانت تصدر في فترات متباعدة ، ويدل المرسوم الذي أصدره الصالح عام ٧٥٥ هـ على أن المرسوم الذي قد تقدمه كتب في عهد أبيه الناصر عام ٧٠٠هـ(٨) .

---

(١) انظر السلوك ٢ : ٥٩٩ ، ٩٢٥ ، الخطط ٢ : ٦٢٢ ، النجوم الزاهرة ١٠ : ٥٦ ، بدائع الزهور ١ : ١٧٨ ، الدرر الكامنة ٢ : ٢٧٦ .
(٢) وثيقة رقم (٣٣) من وثائق دير القديسة كاترين ، نقلاً عن : السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده : ٧٨-٨٠ .
(٣) انظر كنز الدرر ٨ : ٥٢ ، الجوهر الثمين ٢ : ٦٠ ، السلوك ١ : ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٨٠ - ٨١ .
(٤) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٨٤ ، الجوهر الثمين ٢ : ٧٣ ، السلوك ١ : ٥٣٥ النجوم الزاهرة ٩ : ٦٨، بدائع الزهور ١ : ٣٢٤- ٣٢٥ .
(٥) انظر السلوك ٢ : ٩٢١ .
(٦) انظر الروض الزاهر : ٣١٢ - ٣١٣ ، ٣٨٠ ، البداية والنهاية ١٤ : ٣٦١ .
(٧) انظر كنز الدرر ٩ : ٤٤ .
(٨) انظر صبح الأعشى ١٣ : ٣٧٧ ، ٣٨٦ .

استند الملك الصالح في مرسومه إلى أسس دينية ، وبين أنه إنما يلتنفذ ما أقره الشرع من أحكام في شانهم ، وما عهد به إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فعليهم أن يلتزموا بما ألزمهم به الدين الإسلامي ، ولهم من المسلمين أن يحقنوا دماءهم ما كفوا أيديهم عن الأذى ، وحمايتهم من الاعتداء عليهم ، فإن لم يلتزموا ، نقض عهدهم عليهم(١) .

وتضمن المرسوم عرضاً تاريخياً لأوضاع أهل الذمة في الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ، وما شرطه عليهم ، وأن الحال استمر على ذلك في الدول جميعها ، ثم ما كان من أمر الناصر لهم بأن يلتزموا بتلك الشروط عام ٧٠٠ هـ .

كما بين الملك الصالح في المرسوم الأسباب الموجبة لإصداره ، فذكر أنهم تطاولوا على المسلمين ، واستكبروا عليهم فتزينوا ، وخرجوا عما حدد لهم من لباس حتى أصبحوا لايتميّزون من المسلمين ، وسعوا في الأرض بالإفساد ، وعاندوا وسدروا في غيهم ، ولأجل أن يكون الأمر مشروعاً استشار الصالح الفقهاء والقضاة. قال :"فاستفتينا في أمرهم المجالس العالية حكام الشريعة المطهرة ، واقتدينا بأقوال مذاهبهم المحررة ، التي لنا بهديها إلى إصابة الصواب تبصرة ، وعقدنا لهم مجلساً بدار عدلنا الشريف ، والزمناهم أحكام أهل الذمة التي بالتزام أوائلهم لها جرى عليهم حكم هذا التكليف"(٢) .

ويلم المرسوم بحياة أهل الذمة في كثير من جوانبها ، من حيث كنائسهم ، إذ منعوا من بناء جديد ، أو تجديد قديم ، ولا يمنعون المسلمين من نزولها ، ومن حيث علاقتهم بأعداء المسلمين ، فقد حظر عليهم أن يطلعوا أحداً على عورات المسلمين أو يؤووا الجواسيس ، وفي علاقتهم بالمسلمين منعوا من أن يتشبهوا بهم في الملبس والمسكن والأسماء والألقاب ، أو تعلم ألقرآن ، أو الركوب والسير في وسط الطريق ، وأمروا بأن لايتسلحوا أو ينقشوا على خواتمهم بالعربية ، وأن يجزّوا مقادم رؤوسهم ، ولايستخدموا مسلماً ، أو يجاوروهم بموتاهم ، ولايشتروا

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٣٨٠ .
(٢) نفسه ١٣ : ٣٨١ - ٣٨٢ .

رفيقاً مسلماً ، ولا من كان منشؤه على الإسلام ، وأن لايهودوا أو ينصروا رفيقاً ، وأن يظهروا في أعناقهم علامات تميزهم عند دخولهم الحمام ، أما نساؤهم فيمنعن من دخول الحمام مع المسلمات ، بل لهن حمامات خاصة ، وتلبس البالغة منهن خفين : أحدهما أبيض والآخر أسود تمييزاً لها ، كما أمروا بأن لايظهروا كفراً ، أو يضربوا بالنواقيس في كنائسهم إلا ضرباً خفيفاً ، ولايرفعوا أصواتهم في صلواتهم ، أو على موتاهم .

وكان مما أثبته المرسوم أن مواريثهم تكون حسب نظام المواريث في الإسلام ، ويجب على الورثة أن يثبتوا ما يستحقونه من الميراث وما تبقى يعود لخزينة الدولة ، فإن مات منهم من لاورثة له ، عاد ماله إلى بيت المال استناداً إلى حكم الشرع .

وأمر الملك الصالح بأن لايستخدم واحد من أهل الذمة في دواوين الدولة كلها ، فإذا عمل أحدهم وجب أن لا يكون له تأمّر على أحد من المسلمين .

ثم أصدر أمره إلى الولاة والنواب والمتصرفين في شؤون الحكم كافة بتطبيق ما في المرسوم ، وأعطاهم صلاحية معاقبة من يتجاوزه . قال : "فليعتمد حكم هذا المرسوم الذي هو بالعدل والإحسان موسوم ، وليخلد في صحائف المثوبات ليستقر ويستمر ويدوم ، وليشع ذكره في الممالك ، وليذع أمره في المسالك ، وعلى حكام المسلمين - أيدهم الله تعالى - وقضاتهم ، ومتصرفيهم وولاتهم ، أن يوقعوا بمن تعدى هذه الحدود ، من النصارى واليهود ، ويردعوا بسيف الشرع كل جهول من أهل الجحود ، ويحلوا العذاب بمن حمله العقوق على حل العقود"(١) .

واضطلعت الرسائل الديوانية بدورٍ مهمٍ في التعبير عن مظاهر البهجة والفرح في المناسبات السعيدة مثل وفاء النيل .

وكان النيل من الموضوعات البارزة التي ترددت في إنتاج المنشئين، وقد تناوله كل منهم بحسب ما تجود به قريحته ، وبحسب المناسبة التي يصفه فيها ،

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٣٨٤ - ٣٨٦ ، وانظر ١٢ : ٢٣ ، ٣٠٧ .

فعلى الرغم من أن الجميع كانوا يترقبون وفاءه ، إلا أن ارتفاعه كان يزيد عن الحد أحياناً ؛ فيفيض محدثاً دماراً في المزروعات والبيوت والطرقات كما حدث عام ٧٨٤ هـ(١) .

وقد دأب المنشئون على وصفه حين وفائه ، ودأب ديوان الإنشاء على مكاتبة الجهات المختلفة بشارةً بذلك ، وأفاضوا في "وصف بركته ويُمنه ، وطيب أيامه وزمانه ، وما تفيده البلاد من مائه من خصب ويُنع ، ونبات وزرع ، ويصفون مجراه وماءه ووفاءه "(٢) ، وقد خص القلقشندي مصر بهذه المكاتبات(٣) ، وعلّة ذلك واضحة جليّة ؛ إذ إن له أثره الحيوي في الحياة بجميع جوانبها في مصر ، وحتى في الشام .

كُتبت البشارات بوفاء النيل في جو نفسي ممتلئ به ؛ "كُتبت والنفس والعقل والحواس المصرية جميعاً مشغولة بالنيل بعد حساب وتقدير وشرود... بين الخوف والرجاء - قر وهدأ وابتهج فاستعلن فرحه" فيها(٤) . ولذلك لانستغرب تلك الصور الحية له في رسائلهم فوفاؤه من مظاهر الحياة ، وارتفاع الماء فيه إحساس منهم بالنبض في عروقهم . وتكاد تلمس في رسائلهم شيئاً من التقديس له ، ويبدو أن ارتباط ظروف معيشتهم به أدى إلى تولد رابط نفسي قوي عميق بينهم وبينه ، وترى خوفهم ورجاءهم وفرحتهم جنباً إلى جنب في بشاراتهم بوفائه ، يقول ابن نُباتة المصري من رسالة :"وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة ، وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة ، ومنحناه بولاء وثناء ،...، وكم ورد إلى البلاد ضيفاً ومعه القرى ، وكم أتى مرسلاً بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى ، فهو جواد قد خلع الرسن ، ساهرٌ في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن ،...، وبلغ وبلّغ بتحرير التيار سلامه ، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة "(٥) .

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٤ : ٢٦٨ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٤٤ .
(٣) صبح الأعشى ٨ : ٣٢٢ .
(٤) النيل في الأدب المصري ، د. نعمات أحمد فؤاد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م : ١٩٥ - ١٩٦ .
(٥) صبح الأعشى ١٤ : ٢٦٧ .

ويلاحظ الدارس في هذه النصوص اختفاء شخص الحاكم، وما يتبعه من من تسبيح كاذب ، ومدح منافق ، وبروز النيل وحده مصدر خير ونعمة وعطاء(١) ، بوفائه تشهد الارض جنازة الجدب ، وبه تزدان في أبهى حللها . ويبدو أن عادة الفراعنة بإلقاء فتاة جميلة عذراء فيه كل عام ظلت عالقة بأذهان المنشئين فظهرت في رسائلهم ، ومن ذلك قول محي الدين بن عبد الظاهر : "فحسن في مسرى(٢) مسراه ، وجعل على اسم الله مجراه ، فكم ميت جدبٍ عليه التراب في تلك الجسور قد هيل ، وكم عروس قرية يبني بها ، فكان ، كما قيل ، في مسرى عرس النيل"(٣) .

وتصور هذه الرسائل مظاهر الحياة التي تبدأ بالظهور ، ومخايل الجمال والخضرة ، فالارض عاشقة ترقب وصال حبيبها ، والجسور تعانقه بشوق ، ويتحرق الثرى للثمه ، وقد أبدع المنشئون في توظيف ما يتعلق بالنيل من مقياسه ، ومقادير زيادته في رسائلهم ، فجاءت منسجمة مع عميم خيره ، وعظيم بركته . قال ابن نباتة : "وأما النيل ، فإنه ورد والارض أعطش ما تكون لقربه ، واشوق ما تكون لزيارة صبّه ، وقد امتدت أيدي الجسور لتعنيقه ، واستعدت شفاه الجروف اللعس لارتشاف ريقه ، فعمت منافعه ، وأحكمت في الندى شرائعه ، وعظمت أياديه على الخلق وإن قيل أصابعه ، فهنيئاً لأهل مصر ذلك العيش النضر ، وبركة ذلك الماء فإنه ماء الحياة وذلك السفح فإنه الخضر"(٤) .

ومن البشارات الرفيعة بوفاء النيل تلك التي شبه فيها النيل وماؤه بالجيش اللجب ، بيد أنه جيش خير وعطاء ، فكأنه حين وفائه "نشر على الخافقين لواء خصبه ، وأتى بعسكر ريّه لقتل المحل وجدبه ، وبينما هو في القاع إذ بلغ بإذن ربه ، فجعل من الذهب لباسه ، وعطر بالشذا أنفاسه ، ولم يترك خلال قطرٍ إلا جاءه فجاسه"(٥) .

---

(١) النيل في الادب المصري : ١٩٧ .
(٢) اسم لشهر آب بالقبطية (قوانين الدواوين ، ابن مماتي ، تحقيق عزيز سوريال ، مطبعة مصر ١٩٤٣م : ٢٥٦) .
(٣) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٦٧ .
(٤) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٧٨ .
(٥) صبح الأعشى ٨ : ٣٣٤ .

وتجدر الإشارة إلى أن المكاتبات بوفاء النيل ظلت مستمرة طوال العصر المملوكي ، وذكر القلقشندي أنه كان يكتب "في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل" ، وتسيّر البريدية بتلك الرسائل[1] .

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٣٣ .

الرسائل الإخوانية

جعل الشهاب الحلبي لكاتبها حرية تامة ؛ إذ قال : "أما الكتب الإخوانية ، والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه ،.. فإن الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان ، مخلىً بينه وبين قوته فيه أو ضعفه"(١) . ولذلك كان المجال فيها لقريحة الكاتب رحباً "على عكس الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز"(٢) .

والطريف في الرسائل الإخوانية في هذا العصر أنها تعرض جانباً من الحياة مختلف الملامح عما تقدمه الديوانيات(٣) ؛ إذ تكشف عن اهتمامات الكتاب الخاصة ، ورؤاهم وأحلامهم ، وخلجات نفوسهم ، واضطرابات مشاعرهم ، وتصور علاقات المودة الصادقة حيناً ، والجفاء والعتاب حيناً آخر . لكنه ، على الرغم من ذلك ، لايمكن ادعاء أن صدق العاطفة ظاهر في كل رسالة منها ، وأن كلا منها صدرت عن منشإها نتيجة انفعال عاطفي ؛ فتعلق بالوجدان(٤) كما قال محمود رزق سليم ، بل على العكس من ذلك ، فبعضها يوحي بالتكلف ، وبأن منشىء الرسالة كابد مشقةً فكريةً حتى استقامت له ، وبخاصة إذا ما نظرنا في ذلك "الإسراف في عبارات المجاملة ، ونعوت التعظيم والتكريم للمرسل إليه ، والتواضع الشديد الذي قد تنفر منه أذواقنا"(٥) كما يرى الدكتور محمد زغلول سلام .

وقد درج دارسو أدب هذا العصر على أن الكتابة فيه اقتحمت على الشعر ميادينه ، وصار المنشئون يدبجون الرسائل في أغراض شعرية أصلاً(٦) ، وأعتقد أن هذا التقسيم مخالف للحقيقة ؛ ذلك لأن ما يصلح للشعر قد يصلح للنثر ، ولايمكن

---

(١) حسن التوسل : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وانظر : نفسه : ٣٩٢ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ٣ .
(٣) الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، د. مصطفى الشكعة ، دار الأحد ، بيروت ١٩٧٦م : ١٧٩ .
(٤) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٨ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١١١ ، الأدب في بلاد الشام ، د. عمر باشا ، دار الفكر الحديث ، دمشق ١٩٦٧م : ٧٥١ .
(٥) الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٤ - ١٥ .
(٦) انظر عصر السلاطين المماليك ٥ : ١٥٨ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١١١ ، الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٥ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣١٣ ، الأصول الأدبية في صبح الأعشى : ١٧٦ .

أن نخص الشعر بموضوع أو معنىً ونزعم انه غير صالح للنثر ، وقد يكون العذر لهؤلاء الدارسين في أن النثر لم يبلغ في أي عصر من العصور السابقة شأو الشعر ، وظل ما يُقال من شعر في المناسبة أرفع من غيره .

وقد تنوعت موضوعات الرسائل الإخوانية ، فكان منها التهاني ، والتعازي ، والشكر ، والتشوق والاستدعاء ، والشكوى والعتاب ، والاعتذار ، والهدايا ، والشفاعات .

التهاني :

جعلها القلقشندي أحد عشر ضرباً هي : التهنئة بالولاية ، وبكرامة السلطان ، والعودة من الحج ، والقدوم من السفر ، والتهنئة بالمواسم والأعياد ، والزواج ، والأولاد ، والشفاء من المرض ، وقرب المزار ، ونزول المنازل المستجدة ، وأضاف إليها بعضاً من التهاني النادرة ، مثل : تهنئة الذمّيّ بإسلامه ، والتهنئة بالصّرف عن الولاية ، والتهنئة بالمرض ، وبزواج الأم . وقد أشار قبل هذا التقسيم إلى أن أغراضها متشعبّة لا تقف عند حدّ(١) .

ولم تخلُ رسائل التهاني من مديح للمكاتب ، وبيان فضائله ومآثره(٢) ، لكنه مديح لا يخلو من نفاقٍ وتزلف أحياناً ، وبخاصة في تلك الرسائل الموجهة إلى السلطان أو أحد أعيان الدولة من الموظفين في بعض المناسبات ، ويظهر ذلك من ألفاظ العبودية التي يصف الكاتب بها نفسه ، فمن تهنئة لأمير بولاية إمْرةٍ جاندار(٣) من إنشاء ابن نباتة قوله : "ويُنْهي أنه بلغه ما أفاضته الصدقات الشريفة على مولانا من المبرات ، وما جددت له من المسرات ، ... ، فأخذ المملوك حظه من هذه البشرى ، وأوجب على نفسه الفرح وسجد لله شكراً ، وود لو حضر يشافه بهذا الهناء الشامل ، ومثل قائماً بين يديه بحق التهنئة القيام الحقيقيّ"

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ٤ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٩ .
(٣) الحارس الخاص بالسلطان ، وأمير جاندار هو قائد الحرس السلطاني ، لا يأذن بالدخول عليه إلا لمن يأمن عاقبته ، وله مهام أخرى ، وهو لقب فارسي معرب معناه الأمير الممسك لروح السلطان (انظر صبح الأعشى ٤ : ٢٠ ، ٥ : ٤٦١ ، وخطط المقريزي ٢ : ٢٢٢) .

الكامل"(١) .

وإذا ما خلت التهنئة من ألفاظ العبودية ، فإنها لاتخلو من المبالغة في وصف الفرح والسرور لما أصابه المكاتب من نعمة ، وإن كانت المبالغة مقبولة ، أحياناً ، يسوّغها ما بين الصديقين من مودة ، فإن جعل المناسبة مفرحةً للجميع مما لايُقبل . قال الشهاب الحلبي مهنئاً بالخلاص من الاعتقال : "وتهنّيه بما جدد الله له بعد الاعتقال من الفرج والفرح ، ومنّ به بَعد ضيق الخواطر من الابتهاج والمرح ، فهذه المسرة ماء زلال برد بها الأوام ، وإنعامٌ عام ، حمد الله عليها الخاص والعام(٢) .

وكان الغرض من وراء بعض التهاني استمناح المهنّأ ، وقد يلجأ الكاتب إلى التلميح بذلك في تضاعيف رسالته ، ويوحي ذلك بأن المشاعر لم تكن صادقة فيما يصدر عنه ، وبأن المديح فيها أصبح وسيلة للتكسّب ، فمن رسالةٍ للشهاب الحلبي مهنئاً بالعيد وقت الربيع : "والعيد والربيع ضيفان ومكارم المولى جديرة بإكرام الضيف ، والتمتّع بالملاذ فيهما قبل رحيلهما وقدوم حر الصيف ، وأن يُحسّن وجه عيده ، بحلوله في مغناه ووجوده ، وبما يوليه لعُفاته من إنعامه وجوده"(٣) .

ومن تهنئة له بمولود ، وقد افتتحها بالشعر ، وعرّض فيها بطلب المنحة قوله : (الكامل)

هنّئت بالإسعاف والإسعاد ونفاذ أمرٍ في العدا بنفادِ

ويقول في المولود والدعاء له :"اتصل به قدوم المسافر بل إسفار البدر ، وظهور ميمون الغرة الذي جاء لأهله بأمان من صروف الدهر ، وهو الولد العزيز الموفق النجيب ،... ، أبقاه الله تعالى ليحيا مشكوراً محموداً ، وأدام عزه وعلاه ، وأعلى نجمه وخلّد شرفه وبهاه ، وضاعف سناءه وسناه ، وأرانا منه ما أرانا من السعادة في أبيه"(٤) .

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٢ ، وانظر ٩ : ١٨ ، ٢٧-٢٨ .
(٢) نفسه ٩ : ٣٠ - ٣١ .
(٣) نفسه ٩ : ٤٦ ، وانظر ٩ : ٤٧ - ٤٨ .
(٤) نفسه ٩ : ٦٠ .

وفي التهاني بالشفاء من مرض ترى المنشئ يفتدي من كان مريضاً ، ويتمنّى نزول المرض به وإثبات الأجر للمهنّأ ، ويدعي بأن شفاءه ملأ الدنيا بهجة وأسقم حسّاده وأعداءه ، ويدعو له بتمام العافية ، ويحمد الله على أن سكّن الأوجاع وأذهب الآلام ، فمن تهنئة لإبن نباتة إلى أحد أصدقائه بالشفاء قوله : فيالها مسرةً شملت ، ومبرّةً كملت ، وتهنئةً جمعت قلوب الأودّاء وجمّلت ، وأعضاءً فدتها عيون المها فنقلت عنها صفات السقام وحملت ، وعافيةً حولت إلى قلوب الأعداء المرض ،... والله تعالى يسبغ عليه ظلال نعمه"(١) .

وقد أورد القلقشندي تهنئةً بقرب المزار(٢) ، غير أنها إلى موضوع التشوق أقرب .

- التعازي

وقد جعلها القلقشندي في ستة (٣) أضرب ، بيد أن في حصره لها شيئاً من الخطأ ؛ إذ قصرها على : الابن ، والبنت ، والأب ، والأم، والأخ ، والزوجة ، غير أنها قد تكون في غير هؤلاء ، كأن يعزى الصديق بصديقه (٤) ، وقد يُعزى بغير من ذكر من الأقارب . وتدور رسالة التعزية حول محور واحد ، ذلك هو التسرية عن نفس المعزى ، فتتضمن إرشاده إلى الصبر ، وحثّه على التسليم بأمر الله ، وتنبيهه إلى حسن الجزاء ، وغير ذلك مما يُثنير عليه صبره (٥) .

وتدل هذه الرسائل على أن الكتّاب أحسنوا فيها غاية الإحسان ، وبلغوا من القدرة على دفع أثر المصيبة درجةً عالية ، ونهلوا في رسائلهم من معين القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ما يستحضر الصبر ، ويخفف ما ران على القلوب من همّ وحزن ، ومن ذلك رسالة لابن نُباتة يعزي فيها بولد . قال فيها :"وما بقي إلا التمسك بأسباب الصبر ، والتفويض إلى من له الأمر ، والدنيا طريق والآخرة دار"

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ٦٩ ، وانظر تهنئة أخرى بالشفاء ٩ : ٦٨ .
(٢) نفسه ٩ : ٧١ .
(٣) نفسه ٩ : ٨٢ - ٩٢ .
(٤) عزي الشهاب محمود بصديق له توفي ، وله رسالة جوابية إلى من عزاه (انظر صبح الأعشى ٩ : ١٠٠) .
(٥) صبح الأعشى ٩ : ٨٢ .

دهليزها القبر . وللمرء من تثبّته وازع ، والاجتماع بالأحبة الراحلين واقع، إن لم يصيروا إلينا ، صرنا إليهم ، وإن لم يقدموا في الدار الفانية علينا ، قدمنا في الدار الباقية عليهم ،...، والله تعالى يتدارك بالصبر الجميل قلبه ، ولايجمع عليه فقد الثواب وفقد الأحبّة"(١) .

وغير خاف أن حسن العزاء يخفف المصيبة ، وأن مشاركة المصاب ، وإظهار التوجع لما أصابه يهوّنان إحساسه بمصابه ، وأن جعل المصيبة عامة يشعره بأنه ليس وحيداً في حزنه ، وقد أجاد الكتّاب في ذلك ، فجعلوا المصيبة مؤثرة في القلوب كلها ، حتى بان أثرها في الجمادات. يقول الشهاب الحلبي من تعزية إلى صديق له بابنه :"وينهي إلى العلم الشريف علمه بهذه المصيبة التي أصابت فؤاد كل محب فأصمته ، وطرقت سمع كل وليٍ فأصمّتْه ، وولجت كل قلب فأحرقته صبابةً حزنا، ومرت على الصلد فصدعته ولو كان حزنا" ، ومنه في الإرشاد إلى الصبر :"وفي بقاء المولى ما يوجب التسليم والقضاء ، والشكر لله تعالى في حالتي الشدة والرخاء"(٢) .

ومن جميل ما وقفت عليه من التعازي ، رسالة لمحيي الدين بن عبد الظاهر أشخصها إلى صديق له عزاءً بولد له ، وشخص رسالته فجعلها نادبةً تلبس الأسود حداداً ، جاء فيها :"وينهي أنه أرسل هذه النادبة لابسةً ثياب الحداد من النِقس ، شائبة الفود من الطرّس، حين أصمه الناعي وإن كان أسمعه ، وسلبَتْه الأيام سلاحه إلا تنفّس الصعداء وأدمعه ، ... ، وبلغه الخبر الذي شرقت فيه بالدماء المآقي، ووقفت النفوس على مشترف الوداع من التراقي ، وتجافت الجنوب عن المضاجع"(٣) .

ولم تكن الحال في بعض رسائل التعازي بأصلح منها في التهاني من حيث صدق الكاتب في التعبير عن مشاعره ، بل إن بعض هذه الرسائل يبدو فيها التصنع بوضوح ، والإسراف في تصوير فداحة المصيبة وعمومها جلياً ، بحث يقللان من أثر

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ٨٤ .
(٢) نفسه ٩ : ٨٦ ، وانظر : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .
(٣) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٨٠ - ٤٨١ .

الرسالة في التخفيف عن المعزّى ، ومثال هذه الرسائل تلك التي كتبها ابن الوردي(١) معزياً بوفاة القاضي شرف الدين(٢) البارزي عام ٧٣٨ هـ ، وأرسل بها إلى حفيده . قال فيها :"ويُنْهي أنه بلغ المملوك وفاة الحَبر الراسخ ، بل انهداد الطود الشامخ ، وزوال الجبل الباذخ ، الذي بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض ، فشرقت أجفان المملوك بالدموع ، واحترق قلبه بين الضلوع ، وساواه في الحزن الصادر والوارد ، واجتمعت القلوب لما تمّ لمأتم واحد"(٣) .

أما التعزية بالنساء ، فيبدو أنها لم تكن منتشرة إلا إن كانت المعزى بها من الأوساط الحاكمة ، ولم اقف من هذا النوع سوى على رسالة واحدة قصيرة أنشأها الشهاب الحلبي ، وارسلها إلى أحد النواب بوفاة زوجه . جاء فيها :"لما علم مملوك المجلس السامي - أطال الله بقاءه ، وأعظم أجره وأحسن عزاءه - وفاة السيدة المرحومة - سقى الله عهدها عهداً يبلّل الثرى، وجعل الرحمة لمن نزلت به لها القرى- تألم لفقدها غاية الألم ، ووجد حرقة كستْه ثوبيْ ضنىً وسقم ، وحزناً لايعبر عنه بعبارة بيانه ، ولايستوعِب وصفه بلسان قلمه وبنانه"(٤) .

- رسائل الشكر

ولاتكون هذه الرسائل ابتداءً في الأغلب الأعم ، بل جواباً عن رسالة من أحد الأصدقاء أو الأعيان ، وإن كانت ابتداءً فتكون تعبيراً عن امتنان الكاتب لصنيع أسداه المكاتب له . وعلى ذلك فإن الأجوبة التي تكتب عن الرسائل في المناسبات الاجتماعية المختلفة تدخل في هذا الموضوع ، وينبغي للكاتب "أن يفتنّ فيها ،

---

(١) القاضي زين الدين عمر بن مظفر بن أبي الفوارس ، كان فقيهاً وأديباً ، وأحد فضلاء العصر ، وأجاد في المنظوم والمنثور ، توفي في الطاعون عام ٧٤٩ هـ (فوات الوفيات ٣ : ١٥٧) .
(٢) القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن عبد الرحيم ، قاضي قضاة حماة وابن قاضيها ، توفي عام ٧٣٨ هـ ، وله مصنفات كثيرة في التفسير والحديث ، وحفيده المذكور هو القاضي نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم (تتمة المختصر ٢ : ٤٥٣ - ٤٥٥) .
(٣) تتمة المختصر في أخبار البشر ، زين الدين عمر بن الوردي ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٩٦٩ ، ٢ : ٤٥٥ - ٤٥٦ .
(٤) صبح الأعشى ٩ : ٩٣ .

ويقرب معانيها ، وينتحل لها من الفاظ الشكر أنوطها بالقلوب ؛ لتستيقن نفس المتفضل أنه قد اجتنى ثمرة تفضله"(١) .

ولهذا النوع من الرسائل ارتباط وثيق بالنفاق والتملق ، وبخاصة في الشكر على الهدايا ، وقد تنبه النقاد إلى ذلك ؛ فأشاروا إلى وجوب الاختصار فيها ، "والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعاني الشكر دون مذهب الغلو والإفراط"(٢) وبناء رسالة الشكر جواباً يعتمد على ما أرسل إلى الكاتب ابتداءً ، من : تهنئة ، أو تعزية ، أو غير ذلك ، ولابد فيها من الثناء على المكاتب ، وشكره على اهتمامه وعنايته ، ومقابلة إحسانه بالدعاء له بما يناسب الحال : فإن كان أرسل تهنئة بالشفاء من مرض ، دُعي له بأن لايصيبه ، وإن كان أرسل تعزية دُعي له بأن لايفجع بعزيز عليه(٣).

وقد أفاض الكتّاب في وصف رسائل أصدقائهم ، وبيان أثرها في زيادة أفراحهم ، أو التخفيف من حزنهم والمهم ، أو إثارة مكامن الشوق إلى زيارتهم والجلوس معهم . كتب برهان الدين القيراطي(٤) رسالة جوابية لابن نُباتة المصري . جاء فيها في وصف رسالته :"فسبحان من أسرى بها في ليل نِقسِها إلى المحل الأقصى ، وحباها بالفضل الذي لا يُحصى ، وأنبت دوحها في رياض الفصاحة ، ونمق حدائقها التي لو فتح النرجس عينه في عينها لنُسب إلى الوقاحة"(٥).

والملاحظ في رسائل الشكر أن ما يُضفى على المراسل من صفات يُستمد من العلوم التي اشتهر بها ؛ فتكون اصطلاحات ذلك العلم وأسماء علمائه وسيلة يتوصل الكاتب بتوجيهها إلى ما يريد من صور ومعانٍ(٦) . يقول القيراطي من رسالته المتقدمة الذكر في مدح ابن نُباتة :"فتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٨٣ .
(٢) نفسه ٩ : ١٨٤ .
(٣) انظر نفسه ٩ : ٢٥ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٥٦ .
(٤) إبراهيم بن عبدالله بن محمد الشافعي ، اشتغل بالفقه والعربية وبرع في الأدب ، ولد عام ٧٢٦ ، ودارت بينه وبين ابن نُباتة مراسلات ، وكانت وفاته عام ٧٨١ هـ (انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٢ ، والنجوم الزاهرة ١١ : ١٩٦-٢٠٠) .
(٥) خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقي الدين علي بن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، بيروت ١٩٨٧م ٢ : ٤٦٧ .
(٦) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٩ .

بلاغته بروجاً ، وأعلى همه التي لاترضى الشهب جيساداً والأهلة سروجا ، حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة ، وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبّل العتبة ، وسارت كالسبعة السيارة مصنّفاته ، وعلت من قصره المشيّد بسينات سطوره شرفاته ، وفُديت بالمباسم والقدود ميماته وألِفاته"(١) .

وكما أفاض الكتّاب في وصف الرسائل الواردة عليهم ، ومدح مُرسليها ، أطالوا في وصف الهدايا ، وبالغوا في قيمتها على الرغم من بساطتها في أحيان كثيرة ، وهو من قبيل الإطراء لمن أهدى ، وتمهيد لمواصلة هداياه أولاً ، واعتراف بفضله وشكره عليه ثانياً . وقد جعلوا الهدايا وما يتعلق بها مجالاً يستمدون منه ألفاظهم وصورهم ، وأجادوا في ذلك أيما إجادة . يقول ابن نباتة في جواب شكر عن هدية طيور جارحة للصيد :"لازالت الجوارح شاهدة ببِرّه ، والجوانح حائمة الجناح على شريف ذكره ، والمحامد من مصايد أقلامه ورماحه في السلم والحرب ، فإما بقوادم سُمره ، وإما بمناسر حُمره"(٢) .

ويقف المطالع في بعض هذه الرسائل على عبارات توحي بأن الكاتب قد تكلف إنشاءها ، وليست إلا من قبيل المجاملة ، ومن هذه العبارات الاعتذار عن عدم الإطالة فيها للإيجاز ، والتعلل بأن القريحة لم تجد بسبب بعد المكاتب ، وبأنه لو كان قريباً حاضراً لتداعت أمامه أسرار البيان ، وجاءته مفاتيح البلاغة والمعاني طوعاً ، وتدل مثل هذه الإشارات على أن الكاتب يرغب في إنهاء الرسالة ، وتنم عن شكلية العلاقة بينه وبين المكاتب وسطحيتها . رد إبراهيم بن محمود الحلبي على رسالة تهنئة وصلته من الصلاح الصفدي بقوله :"وقد تقلد المملوك لمولانا هذا الإحسان ، وهو يعتذر من التقصير بشكر هذه العوارف الحسان ، فلو كان بين يدي مولانا ، لانفتح له من المعاني كل باب ، واقتبس من فوائده وفرائده ما ينظمه في سلك هذا الجواب ، وإنما بُعده عن فضائل مولانا

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢ : ٤٦٧ ، وانظر مطلع الفوائد ومجمع الفوائد : ٤٨٨ - ٤٨٩ ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، اليوسفي ، تحقيق أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٦م : ٢٢٨-٢٢٩ ، وصبح الأعشى ٩ : ١٨٨ .

(٢) صبح الأعشى ٩ : ١١٥ ، وانظر : ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ،وأجوبة بوصول هدية من الخيل ٩ : ١٠٦ - ١٠٩ .

أوجب له الاعتراف بتقصيره ، والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره"(١) .

- التشوق والاستدعاء

جعل القلقشندي هذا اللون من الرسائل نوعين ، هما : التشوق ، والاستزارة ، وفصل الحديث في كل منهما على حدة (٢) ، وأخذ برأيه محمود رزق سليم (٣) ، لكن مدار الحديث فيهما واحد ، وكذلك بناء الرسالة في الحالين ؛ ذلك لأن الرسالة تشتمل على وصف لواعج الشوق، وتصوير الحنين الصريح إلى المكاتب ورؤيته ومجالسته ، ويرسم الكاتب فيها " ما يضم المجلس من علية الإخوان ، وصفوة الخلان ، ومابه من دواعي الأنس ، ومعدات اللهو والسرور ، من طعام وشراب ، ومن غلمان صبيحةٍ وجوارٍ مليحة ، وسُقاة ونُدمان"(٤) .

وأكثر هذه الرسائل كانت على درجة من الصدق في العواطف ؛ لأنها ما كانت لتصدر عن منشئيها إلا في لحظات يحسّون فيها بحرقة البُعد عن الخلان الأوفياء ، وأتراب الصبا ، وأصحاب الفضل عليهم من شيوخ تلقّوا عنهم علمهم ، وتتلمذوا عليهم في أدبهم ؛ ولذلك أخذ الكتاب في كتابتها "مأخذاً من اللّطافة والرّقة ، يدلّ على تمازج الأرواح ، وائتلاف القلوب" ، واستخدموا فيها أعذب الألفاظ وألطف المعاني ، وغلب عليها الإيجاز تجنّباً للملق والتكلّف اللذين تمجّهما أسماع الإخوان والأصدقاء (٥) .

وترى في بعض منها مبالغةً في وصف ما يدعو الكاتب صديقه إليه ، وهي مقبولة فيما أرى ؛ ذلك لأنها تزيد لهفة المدعوّ إلى الحضور، وتحثه على الإسراع(٦) . والوصف فيها لا يجعلها تصنّف في رسائل الوصف ؛ لأنّه وسيلة لا غاية .

ويبدو أن معظم هذه الرسائل دار بين الكتاب من الأدباء والعلماء بسبب

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٦٥ ، والنص فيه مأخوذ عن كتاب ألحان السواجع للصفدي ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية لم أقف عليه .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ١٢٤ ، ١٥٢ .
(٣) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٦٦ ، ١٧٣ .
(٤) نفسه ٥ : ١٧٣ .
(٥) صبح الأعشى ٩ : ١٤٤ .
(٦) نفسه ٩ : ١٥٢ .

السّفر والافتراق . يذكر اليوسفيّ أن صلاح الدين الصفديّ عندما سافر من مصر إلى الشام دارت بينه وبين فتح الدين ابن سيد النـاس(١) مراسلات كثيرة ، أورد بعضها في كتابه "نزهة الناظر"(٢) .

ومن أجمل ما وقفت عليه في وصف الشّوق وحُرقته ، والحنين واتّقاده رسالة للشّهاب الحلبيّ أرسلها إلى بعض أصحابه بلغه أنه مسافر ، أطال في تصوير تشوّقه مستمدّاً معانيه من القرآن الكريم . قال فيها : "ما أمّ طفلٍ قذفها الزمن العنيد ، في بعض البيد ، في أرضٍ موحشة المسالك ، قليلة السّالك ، قد لمع سرابُها ، وتوقدت هضابُها ، وصرخَ بومُها ، ونفر ظليمها ، وحضر سمومها ، وغاب نسيمها ، فلمّا خافت على ولدها من الظمأ الهلاك ، أجلسته إلى جنب الكثيب هناك ، ثمّ ذهبت في طلب الماء للغلام ؛ لئلاّ يقضي عليه الأوام ، فانتهى بها المسير ، إلى روضةٍ وغدير ، وآثارِ مطيّ بوارك ، تدلّ على أن الطريق هنالك ، فعادت إلى ولدها مسرعة ، وكلّ أعضائها إليه عيون متطلّعة ، فلمّا شارفت جنب الكثيب ، رأت ولدها في فم الذيب : (طويل)

بأكثر مني حسرةً وتلهفاً   وأعظم منّي حُرقةً وتوجّعاً

وأغزر دمعاً عندما قيل لي: الذي كلفتَ به أضحى على البعد مزمعاً"(٣) .

وتفيض رسائل الاستدعاء والاستزارة بالوصف ، غير أنه وصف مقتصر على "حالات الأنس ، ومجالس اللذات ، ومشاهد المسرات"(٤) ، والاستدعاء قد يكون إلى مجلس خمر أو إلى احتفال ، أو إلى الحمّام ، كما في رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر في استدعاء أحد أصحابه قائلاً : "هل لك - أطال الله بقاءك إطالةً تكرع بها من منهل النعيم ... - في المشاركة في حمّام جمع بين جنة ونار ، وأنواء وأنوار ، وزهر وأزهار ، قد زال فيه الاحتشام فكل عارٍ ولا عار ، نجومُ سمائه لا يعتريها

---

(١) محمد بن محمد بن سيد الناس ، ولد عام ٦٧١ هـ ، وتأدب بالشهاب الحلبي ، ثم أصبح شيخ المدرسة الظاهرية بالقاهرة ، وكانت وفاته عام ٧٣٤ هـ (انظر الوافي بالوفيات ، الصفدي ، باعتناء هـ. ريتر ، فيسبادن ، فرانز شتاينز ١٩٨٣م ١ : ٢٨٩-٣١١) .
(٢) نزهة الناظر : ٢٢٥-٢٢٩ .
(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢ : ٣٨٦ .
(٤) صبح الأعشى ٩ : ١٥٢ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٧٤ .

أفول ، وتنافست العناصر على خدمة الحال به تنافساً أحسنَ كلّ التوصّل فيه إلى بلوغ أربه". وأطال في وصف مائه وأدواته ، وخبرة قيّمه وحسن خدمته ، ثم عاود دعوته إليه ، معدّداً بعض المغريات بقوله : "لديّ - أبهجك الله - غصون قد هزها الحسن طربا ، بل رماحٌ لغير كفاحٍ قد نشرت من شعورها عذبا ، وبدورٌ أسدلت من الذوائب غيهباً "(١).

وفي الاستدعاء إلى مجلس خمر كتب الأديب بدر الدين بن الصاحب(٢) رسالة إلى صديقه فخر الدين بن مكانس(٣) تفيض بمعاني خمريّات أبي نواس في وصف الخمر ، من تغزل بها كأنها حسناء ، وتصوير لفعلها في نفس شاربها ، وصفاتها ، ومنها قوله : "هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مصونة ، كالدرة المكنونة ، فتّانة مفتونة ، كأنّ على خدها فوق ورده ياسمينة ، مُخَدَّرَة تدهش العقول لمجتلاها ، وتعشي العيون لضوء سناها"(٤) .

- الشكوى والعتاب

وهذا اللون من الرسائل يمسّ شغاف القلب ، ويثير شجون النفس ؛ ذلك لأنّ الشكوى والعتاب لا يكونان إلا بعد مرارة تجربة الجفاء والإعراض، أو تجرّع الهموم والأسقام ، أو مكابدة الحياة وعنائها، ورسالة الشاكي تستمد من "وصف الحال المشكية على ما يوجب المشاركة فيها بالمساعدة إن استُدعيت عليها ، من غير إغراقٍ يفضي إلى تظليم الأقدار وإحباط الأجر ، ... ، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه والرضا بأحكامه" . فإن كتب الأتباع إلى الرؤساء ، فيكتفي بالتعريض والتلميح ، ويُعرض الكاتب عن الشكوى إلى "لفظ الشكر ومعناه ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنّظراء في الإحسان" ؛ لما في ذلك

---

(١) فوات الوفيات ٢ : ١٨٢-١٨٣ .
(٢) لم أقف على ترجمته .
(٣) الصاحب عبد الرحمن ، كان ناظر الدولة بمصر في أواخر عهد المماليك الأول ، ثم وزيراً للشام ، توفّي في ذي الحجة سنة ٧٩٤هـ (انظر نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، علي بن داود ، تحقيق د. حسن حبشي ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٠م ، ١ : ٢٠١ ، ٣٤٤) .
(٤) مطالع البدور في منازل السرور ، علاء الدين الغزوليّ ، مطبعة الإدارة الوطنية ، القاهرة ١٢٩٩ هـ ، ١ : ١٥٢ .

التصريح من تعريضٍ بإخلال المكاتب بما يلزمه النظر فيه من أحوال أتباعه (١) .

والشكوى أصدق ما تكون في الهموم العامّة ؛ إذ يُعاني الجميع من همومه الخاصة ، وقد تكون بدافع الانتقاد لفئة من الناس الحسدة ، أو لبعض من علا شأنه وليس بأهل ، ومنها ما يكون نابعاً من تجربةٍ خاض الأديب غمارها ، ومن ذلك ما قاله ابن دقيق العيد في متاعب تحصيل العلم ، وحسد بعض اهل زمانه له ، وإزرائهم بما يؤلّف : "إنّ المرء يُتعب أفكاره ، ويكد ليله ونهاره ، ويقدح زناد القريحة حتى يُرى قرحه ، ويرقب فجر الحقائق حتى يتبلّج صبحه ، يروّض مصاعب النظر حتى يسهُل جامحها ، ويستدني شوارد الفكر حتى يقرُب نازحها ، فإذا تجلى له من ذلك نادرةٌ أبداها ، وتأمل أن يودّع بالفكر خاتمتها ويتلقى بالشكر مبداها ، قام الحاسد فقبّح تلك الصورة الجميلة وشناها" (٢) .

ومن الشكوى ما يكون لأمر خاصٍ بالكاتب ، مثل : رقّة الحال أو الإصابة بالمرض ، أو الفجيعة بعزيزٍ عليه ، أو الإقامة في بلد لا يوافق هوى النّفس ، إلى غير ذلك من الدوافع الشخصيّة ، ففي الهمّ والمرض ، والشكوى منهما قال ابن نباتة مرسلاً إلى بعض أصحابه : "ويُنهي أنّه سطّرها وقد أحاط بقلبه وبدنه مرضان كلاهما الأخطر ، وسببان مجموعان على ما صادف الصبرُ فأجدبَ ، والجفن فأقطر ؛ أما مرض القلب فإنّه وجد بالأمس من فلان نكداً يُضني القلوب الصّحاح ، وتشويشاً يَضْعُف جلَدَه عن بعضه ولو أنه تشويش أصداغ الملاح ، وأما مرض الجسد فظهور دمّلٍ هو وليله سواء ليس لهما فجرٌ ، ولا لوصلهما الذي لا تلتذّ به النفس هجر ، وقد قسا ولكن أشد من قسوة الحجر ، وخيط فمه ولكن بأشد من وخز الإبر ، ففكره للهموم مُعرض ، وجسمه محبّبٌ إلا أنه مبغّض" (٣) .

أما العتاب فينبيء عن صادق المودة والإخاء ، ولا يكون إلاّ بين من إذا تباعدا حنّا ، ومن موجباته انقطاع الإخوان عن بعضهم حتى بالتراسل ، أو حدوث

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٧٣ - ١٧٤ .
(٢) طبقات الشافعية : جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الاسنويّ ، تحقيق د. عبدالله الجبوري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٠م ، ٦ : ١٤٦ .
(٣) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٨٣-٤٨٤، وانظر رسائل أخرى فيه : ٤٨٤- ٤٨٦ ، ورسائل أخرى في صبح الأعشى ٩ : ١٧٤-١٧٦ .

جفوة بينهم بسبب الحسّاد والوشاة (١) ، وقد دأبوا في معاتباتهم على الاستفهام عن أسباب الجفاء ، وتصوير الحسرة والألم نتيجة الفُرقة والقطيعة ، وإشارة ما في نفس المعاتب من تسامح وعطف ، وحِلْم وأناة ولُطف ، ويتخلل الرسالة أبيات من الشعر تناسب الغرض . قال الشهاب الحلبيّ معاتباً بعض أصدقائه : "وينهي أنه انكسر خاطره ، وأرق جفنه وناظره ، وتضاعف بلباله ، وتزايدت في النقص أحواله ، مذ تأخرت الأمثلة الكرام ، وانقطعت عنه بانقطاعها المنن الجسام ، وهو يسأل العفو عن ذنبٍ وقع ، وتشريفه بمثالٍ يرفع من قدره ما وضع" (٢) .

ورسائل العتاب تفيض بالشكوى مما سبّبه الهجر ، وتلمح في ثناياها ما يشبه عتاب العشاق ، ونهجهم في إظهار الحسرة والحرقة واللوعة ، وترقّ عبارات الكتّاب أحياناً حتى لتحسبُها رسائل غرام وصبابة ، وترى فيها غيرة المُعاتِب من وصل المعاتَب غيره . يقول ابن نباتة شاكياً ومعاتباً : "المملوك يشكو من المولى فِراقاً أوجب له على نفسه فرقا ، وجيش صدود منحه من العزائم طوائف وفرقا ، وداء صبابةٍ كلما ترجّى الإفراق منه ، ازداد تلهفا وحرقا ، ووجوب قلبٍ تحتم لغيبته ووجب ، ودمع عينٍ يمحو مهْما عبّر عنه لسان قلمه أو كتب ، وقد اطال الهجر تألّمه وعتْبه ، وأطار سِنته ولبّه ، مذ وصل المولى غيره ، وقطع كتْبه " (٣) .

بيْد أن في بعض المعاتبات خشونةً وقسوة ، وبخاصة إذا كان المعاتب لا ذنب له في الجفاء ، ولم تصدر عنه زلّةٌ إلى من قلاه وهجره ، وقطع أواصر وده به وزجره ، جاء في عتاب الشهاب الحلبيّ لمن أبعده ونحّاه عنه بغير ذنب منه : "مع أنّ المملوك أحقّ أن يبدأ بالإعراض ، ويرفل من إغفال مودته في الثوب الفضفاض ، فإن المولى آلمه بالقول مرارا ، وجعل سحابة حيفه تهمي عليه مدرارا ، وهو يحتمل الأذى ، ويُغضي على القذى ، ولا يُظهر إلا محبّة ، ولا يبطن إلا مودة . فإن شاهد المولى بعد إعراضه إعراضا ، فليلم نفسه ، أو أحرقه لهب نار

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٨٩ .
(٢) نفسه ٩ : ١٩٦ .
(٣) نفسه ٩ : ١٥٠ .

الجفاء ، فلا يشك مسّه"(١) .

- الاعتذار :

قال القلقشندي في حديثه عن رسائل الاعتذار : "وينبغي للكاتب أن يستعمل فيها فكره ، ويوفّيها حقّها من جودة الترتيب ، واستيفاء المعاني ، وأن يذهب إلى استعمال الألفاظ الجامعة لمعاني العذر ، الملوحة بالبراءة مما قُرف به ، ولا يخرج لفظه مُخرج من يقيم الحجّة على براءة السّاحة مما رُمي به"(٢) .

وإذا كان الحساد سبباً في انقطاع المودة بين الأحبّة عند الشعراء ، فقد جعلهم الكتّاب أعواداً يعلّقون عليها أخطاءهم وزلاتهم التي تورث الجفاء من مكاتبيهم ، فمن رسالة اعتذار كتبها الشهاب الحلبي إلى أحد أصدقائه ، وكان حاسداً قد وشى لصاحبه به ، ونقل عنه كلاماً زاد فيه ، وحرفه عن موضعه :"وكان المملوك أرسل لفظاً على سبيل الإشفاق ذهب به الحاسد إلى غير معناه ، وخالف في تفسيره حقيقة مغزاه ، وأحاله عن بُنيّته ، وعرضه عليه على غير صورته ، ليوحش محلّ المملوك المأنوس من رعايته ، ويُنفّر سِربه المطمئنّ بملاحظته وعنايته ، وقد أرسل المملوك هذه العبودية سائلاً في محو إظلام موْجَدته"(٣) .

ومن الاعتذاريات الطريفة تلك التي أرسلها فخر الدين بن مكانس إلى صديقه زين الدين أبي بكر ابن العجميّ(٤) ، وقد أثار دواعي الفتنة والشّقاق بينهما رجل ضرير كان يحضر مجلسيهما ، جاء فيها : "(ليس على الأعمى حرج)(٥) . بلغني - بلّغ الله سيدنا ومولانا ... أقصى ما ينتهي إليه تنافس المتنافس ... - من غيْبة ذلك الضرير ما لا خشيَ الله فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب" ، ومنها يسأله قبول

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٩٧ ، وانظر ٩ : ١٩٥ - ١٩٦ ، الوافي بالوفيات ١ : ٣٢٠ ، مطلع الفوائد : ٤٦٨ - ٤٦٩ ، طبقات الشافعية للأسنوي ٦ : ١٠٠ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ١٦٦ .
(٣) نفسه ٩ : ١٦٩-١٧٠ .
(٤) عبد الله بن عليّ ، عين كتاب الإنشاء الشريف في نهايات العصر المملوكي الأول . ولد في القاهرة عام ٦٩٧ هـ ، وتتلمذ على بعض علماء عصره ، توفي عام ٧٧٧ هـ (الدرر الكامنة ٢ : ٣٨٠) .
(٥) سورة النور : ٢٤ .

المعذرة ، وعدم الإنصات للواشي أو الالتفات إلى وشايته : "والمسؤول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب ، فإنّه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخرُ ردّ كل فاسق عن الباب العالي ، فإنّ أبا بكر أول من تصلّب في الردة "(١) .

- الهدايا

عُني القلقشندي بما يتصل بالسلطان ونوابه من هذا النوع من الرسائل ، وأهمل ما دار بين الأصدقاء من الأدباء والعلماء ، سوى في حديثه عن الأجوبة بوصول الهدايا ، وقد ألحقت الأجوبة بموضوع الشكر آنفاً . وأشير إلى أن العادة جرت في مثل تلك الرسائل أن تودع "من أوصاف الشيء المُهدى ما يحسّنه في نفس المُهدى إليه" ، وينبغي لمن ذهب هذا المذهب "أن لا يعتمد تفخيم هديته ، ولا الإشارة إلى جلالة خطرها ، فإنّ ذلك يُخلّ بشروط المروءة ، ويتحاماه الكرماء" . وأشار القلقشندي في موضع آخر إلى أن ما يُكتب مع ما يُهدى قد يُكتب مع ما يُستهدى ، "إلاّ أن الغالب مما جرت به عادة الكتاب في الاستهداء طلب الأشياء المستظرفة الخفيفة المنّة دون ما يعظم خطره "(٢) .

ولا بدّ للكاتب في الاستهداء من مدح المكاتَب ، وبيان فضله ، ومن سعيٍ إلى استثارة جوده واستمناح نداه ، وتمهيدٍ للطلب بذكر الحاجة إليه . ويبدو أن هذه الرسائل كانت كثيرة استناداً إلى كثرة الأجوبة عنها ، غير أنني لم أقف سوى على رسالة واحدةٍ جمعت بين الشعر والنثر ، كتبها عيسى بن حجّاج(٣) إلى أحد أصحابه من ولاة الأمر في استهداء شاشٍ لعمامته ، وصف فيها قصّة احتراقها بقوله : "ولمّا أغفى على وجه الكتاب ، لعبت الشمعة بلسانها ، وتناولت طرف شاشه بين نيرانها ، فهبّ المملوك وأخمد ما تصاعد من الأنفاس ، وقابلها على حرق الشاش

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢ : ٤٦٧-٤٦٨ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ١٠١ ، ١٢٤ .
(٣) شرف الدين الملقب بالعالية لمهارته في الشطرنج ، شاعر اهتمّ بالمدائح النبوية وتصنيف البديعيّات ، له ديوان شعر ، وكانت وفاته بالقاهرة عام ٨٠٧هـ (انظر في ترجمته الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين السّخاوي ، نشر مكتبة حسام الدين القدسيّ ، القاهرة ١٣٥٣هـ ، ٦ : ١٥١-١٥٢).

بقطع الراس" ، وتابع ، بعد أبيات من الشعر في وصف ما حدث قائلاً : "وقد توسلت بهذه الرسالة المدونة في باب المنظوم والمنثور، ومددت يد سُؤلي إلى طلبي شاشاً مقصوراً ، وأرجو أن يُجمع لي بين الممدود والمقصور ، أبقاك الله للأولياء الذين يحبون وُجودك ، ويستمطرون كرمك وَجودك" (١) .

- الشفاعات

الشفاعة رسالةٌ تصدر عن "ذوي المراتب والأخطار ، والمنازل والأقدار ، الذين يُتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرْك الرغائب" . وعلى الرغم من رتبة كاتبها ، إلاّ أنّه يحتاج فيها إلى التلطف ; فيودعها "من الخطاب ما يخرج به عن صورة المثقل على المشفوع إليه بما يكلّفه إيّاه ، ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له" . ويحبذ فيها مسلك الإيجاز والاختصار ، وأن يُرجع إلى قدر الشافع والمشفوع له ، ويُراعى قدر المشفوع إليه (٢) .

ويدل وجود مثل هذه المكاتبات على أن بعض كبار الشأن في المجتمع المملوكيّ كانوا يستغلون مناصبهم للشفاعة في غيرهم ، ولا ينفي كون ما وقفت عليه منها إيجابياً أن تكون قد أسيء في استخدامها بين الحين والآخر .

وقد تكون الشفاعة في طلب المسامحة بالأموال ، أو التجاوز عن الزّلات ، أو في تعيين المشفوع له في وظيفة يطمح إليها ، أو في إعادته إلى وظيفة عزل عنها (٣) . ولا بدّ للشافع في رسالته من التذكير بحسن علاقته بالمكاتب ، ومنزلته عنده ، وقديم صحبته له ، ومن هزّ أريحيّته بمدحه بما يطيب له من صفات ، ثم يُتبع ذلك كلّه بسؤال إجابته إلى ما شفع فيه . يقول الشهاب الحلبيّ من شفاعة في استخدام كاتب درج : "ومحبة المملوك له شديدة ، والصحبة بينهما قديمة وشقّة المودة جديدة ، ولولا ذلك ما ثقل على خدمته ، وتهجّم على المولى بمكاتبته ، وقد توجه إلى بابه العالي مهاجراً ، وناداه لسان جوده فلبّاه

---

(١) مطالع البدور في منازل السرور ١ : ٨٦ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ١٢٧ .
(٣) نفسه ٩ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

وأجابه مبادرا ، وغرضه أن يكون كاتباً بين يديه ، ومملوكاً تقع عين العناية عليه ، وهو من الكرام الكاتبين ، والراغبين في الانتظام في سلك خدمة والمؤثرين ، ... ، فإذا انعم المولى باستخدامه ، وتحقيق مرامه ، كان قد وضع الشيء في محله ، وصنع المعروف مع أهله ، وبيّض وجه المملوك وشفاعته"(١) .

ومما يلاحظ على بعض الشفاعات أنها كانت تصدر عمّن هو أعلى رتبة إلى من هو دونه ، لكنّها كانت لا تخرج بصيغة الأمر ، بل يميل الشافع فيهما إلى الرقة ، واستخدام ألفاظ المجاملة أكثر من غيره وبخاصة فيما بين موظفي السلطنة ، فمن شفاعة لنائب الشام في موظفٍ اسمه جمال الدين إلى نائب حماة ، وهو دونه في الرتبة : "ومملوك مولانا ، أعزّ الله أنصاره ، فلان ، قد اعترف بهفوةٍ بدت منه ، وزلةٍ نقلت عنه ، وما يسعها إلاّ عفو مولانا ومراحمه ، وقدم على المملوك فكأنّه ما خرج عن ظلّ مولانا ولا فارقته معالمه ، وسأل سؤال مولانا أن يشمله بالعفو ، ويتجاوز له عن السهو ، ويرحم كبر سنه وكبيرة جهله ، ... ، والمسؤول من صدقات مولانا تجاوزه عن هفوته ، ورده إلى أمنه ووظيفته"(٣) .

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٣٧ .
(٢) نفسه ٩ : ١٤٣ ، وانظر الصفحات : ١٣٨-١٤٢ ، ١٤٤ ، ففيها نصوص لشفاعات في غير ما ذكر .

الرسالة الأدبية

لا بدّ للمبدع الساعي إلى تطوير ملكته الإبداعية من ثراء التجربة ، ويميل الباحث إلى أنّ تنوع الموضوعات التي يطرقها الكاتب ، وأسلوب عرضه لكل منها ، تعبر عن اتساع تجربته ، وتسعى به قدماً نحو إنضاجها واكتمالها ، وتدلّ على يقظته وعمق إحساسه بواقعه ، وتفتح أمامه آفاقاً جديدة .

وإذا كان الكاتب يصدر في كتاباته عن تجارب خاصة ، أو عامة ، فتكون موضوعاته مستمدة من حياته الخاصة ، ومن اهتمامات مجتمعه ، فإنّ احساسه الفطريّ ، ودقة ملاحظته يدفعانه في بعض الأحيان إلى الكتابة في موضوعات ذهنية متخيلة ، ولا أقصد بذلك أن تكون بعيدة عن واقعه ، بل إنّ كتابته فيها توضح موقفه - أو موقف مجتمعه - منها .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل الأدبية كانت أقرب ما تكون إلى التعبير الذاتي الانطباعي عن مشاعر الكتّاب ومواقفهم من الحياة ومباهجها ومآسيها ، والناس وطباعهم ، والطبيعة وفتنتها وقسْوتها ، والبلاد ومناخاتها وبيئاتها ، وهذه الرسائل قد يكاتب بها ، وقد لا يكاتب(١) ، لكنّها ، وإن كوتب بها احياناً ، تظلّ مختلفة عن الرسائل الإخوانية في المضمون والغرض ؛ ويغلب على هذه الرسائل الوصف ، فقد كان أجلّ ما لدى كتابها ، وميدان بلاغتهم ، "فإن لم يكن المقام مقام الوصف ، لووا إليه أعنّة الأقلام كلما عنّت مناسبة ، وسنحت فرصة "(٢) ، كما يرى محمود رزق سليم .

وقد تنوعت موضوعات هذه الرسائل ، فكان منها الطرديات ، والشتويات ، ووصف النكبات ، والمجونيات ، والمفاخرات والمناظرات ، والنقد .

- الطّرديّات

جعل القلقشندي رسائل الصيْد ضرباً من الرسائل الملوكية(٣) ، وتحدث في موضع

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٥٧ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢١٥ ، وانظر : ٢١٧ .
(٣) صبح الأعشى ١٤ : ١٨٨ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٣٤ .

آخر عن قِيِد*مات البندق (١) ، وعرفها بقوله : "وهي رسائل تشتمل على حال الرمي بالبندق ، وأحوال الرماة ، وأسماء طير الواجب(٢) ، واصطلاح الرماة وشروطهم"(٣) . وليس هناك فرقٌ كبير بين النوعين سوى أنّ أولاهما تكون للصيد عامة ، وأخراهما يكون مخصوصاً بصيد الطيور ، كما تخصّص رسائل الصيد بالملوك ، أما قدمات البندق فلغيرهم .

وتصور هذه الرسائل عادة سلاطين المماليك ، والأمراء في أوقات السلم ، إذ كانوا يخرجون إلى الصيد ، ويصاحبهم في تلك الرحلات المقربون إليهم ، إضافة إلى الحرس السلطانيّ والرماة والخدم ، وترى فيها ابتداء الرحلة إلى الصيد ، ومراحلها ، وأماكن نزول الركب ، "وما حفّ بذلك كله من مواضع جامعة ، ومناظر رائعة ، وحفاوة بالغة"(٤) .

كما وصف كتاب هذه الرسائل أوقات اللهو والسمر التي يقضيها ركب الصيد ، وتندّر الصحب ببعض القصص والأشعار ، أو وصف بعض المناظر نثراً ، ومن ذلك قول ابن الصائغ الحنفيّ(٥) في رسالة وصف فيها رحلة صاحب له للرمي بالبندق : "فسار مع سرايا كالنجوم ، يتفاكهون في الحديث بالمنثور والمنظوم ، ويخلطون جدّ القول بهزله ، كلما خلط لهم طلّ الجود بوبله"(٦) .

وتصور هذه الرسائل فوائد الصيد الجمّة بوصفه رياضةً للجسم والنفس ؛ إذ به تظهر الفرسان مواهبها ،وهو تدريبٌ لركوب الخيل ، وبه يضاعف السرور ، ويتأتّى النشاط ، وتجربة مثيرة تزيد الحواس قدرة على تمييز الأشياء وتحديدها . يصف ابن الصائغ هذه الفوائد بقوله : "إنّ الصيد من أحلّ الأشياء وأحلاها ، وأبهرها

---

(١) كرات من الرصاص استعملت في مصر أيام المماليك للصيد ، وترمى عن قوس في وسط وترها قطعة معدنية دائرية تسمى الجوزة ، توضع فيها البندقة عند الرمي (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، محمد قنديل البقلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (ب.ت): ٦٨) .
(٢) بعض أنواع الطيور التي تفاخر رماة البندق بصيدها ، وقد حدّدها ابن فضل الله العمري بأربعة عشر طيراً (انظر التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٠٦) .
(٣) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢١ .
(٤) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٣٤ .
(٥) محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ولي عدة وظائف بمصر ، وبخاصة في ديوان الإنشاء ، توفي عام ٧٧٦هـ (الوافي بالوفيات ٣ : ٢٤٤) .
(٦) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٥ .

وأبهاها ، وأشهرها وأشهاها ، وأفخرها قيمة ، وأغزرها ديمة ، بورود الطير فيه إلى المناهل تنشرح الصدور ، وبوقوعه في شرور الشّرَك يتم السرور ، يحمّل عند متعاطيه نشاطا ، ويزيده انبساطا ، ويشرح خاطره ، ويسرح ناظره ، ويملأ عينيه قرّة ، وقلبه مسرة ، يُشجّع الجبان ، ويثبت الجنان ، ويقوي الشهوة ، ويسوي الخطوة ، ويسوق الظفر ، ويشوق النظر"(١) .

ويربط بعض الكتاب بين الصيد وبين الحرب ، إذ كل منهما ينمّي القدرة على الآخر ، ويصقل النفس، ويقوي الشكيمة ، ويضاعف العزيمة ، وفي كلّ : ركوب خيل ، واستعمال سلاح ، ومواجهة مشاقّ ، ومغالبة صعاب . ومن ذلك ما جاء في وصف تاج الدين بن البارنباريّ(٢) لرحلة صيد الملك الناصر محمد ، حيث قال : "إنّ في ابتغاء الصيد ملاذّ(٣) تدركها كل ذات شرفت ، وتملكها السجايا التي تعارفت بالفخار وائتلفت ، وتنالها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه صُرفت ، ومنشؤها من حالتين : إمّا في موقف عزٍ عندما تلمع بروق الصفاح ، وتشيب من هول الحرب رؤوس الرماح ، وتسرح جوارح النبال لتحلّ في الجوارح وتصيد في الأرواح ؛ وإمّا في موطن سلمٍ عندما تنبسط النفوس إلى امتطاء صهوات الجياد في الأمن والدّعة ، وتنشرح الصدور إلى معاطاة الصيود والمسرات مجتمعة"(٤) .

ويقف المطالع لرسائل الصيد على آياتٍ من الوصف حسان ، مثل وصف أدوات الصيد وآلاته كالقِسيّ ، وكرات البندق ، ومثل وصف الطيور الجارحة المستصحبة من البُزاة والشواهين والبواشق(٥) . وصف ابن البارنباريّ الجوارح بعد وصفه مسير السلطان ورفقته بين الزروع قائلاً : "وأُعدّت للصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحات من فرط الكرامة ، يُتوسّم فيه النجاح قبل خفق الجناح ، ويخرج من جوّ السماء ولا حرج ولا جُناح ، وبازها

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٢ ، وانظر : ٣٢٨ ، حسن التوسل : ٣٥٣ .
(٢) محمد بن محمد بن عبد المنعم المعروف بابن البارنباريّ ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق من عام ٧١٣هـ حتى ٧٣٤هـ حيث نقل إلى طرابلس الشام ، وفي عام ٧٤٧هـ عُزل ، فعاد إلى دمشق ليصبح كاتباً للدست فيها عام ٧٥١هـ ، وقد توفي عام ٧٥٦هـ (انظر الوافي بالوفيات ١ : ١٦٢) .
(٣) في الأصل ملاذاً ، وهو خطأ لأنها من الممنوع من الصرف .
(٤) صبح الأعشى ١٤ : ١٨٨ - ١٩٠ .
(٥) انظر في الجوارح المستخدمة في الصيد: التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٠٢-٣٠٦ .

الأشهب ، يجيء بالظفر ويذهب ، بصدرٍ مفضّض ، وناظرٍ مذهّب ، له منسر أقنى ، طالما أغنى ، كأنّما هو شبا السّنان وقد حباه الكماة طعناً"(١) .

وتبدو عنايتهم بآلات الصيد ، واهتمامهم بتزيينها ، والدقة في صنعها من خلال وصفهم لها . يصف الشهاب الحلبيّ أقواس البندق ، ولينتها ، ودقة صنعها بأنّها : "كالغصون في لطافتها ولينها ، والأهلّة في نحافتها وتكوينها ، والأزاهر في ترفها وتلوينها ، بطونها مدبّجة ، ومتونها مدرجة ، كأنّها كواكب الشّولة في انعطافها ، أو أرواق الظباء في التفافها ، لأوتارها عند القوادم أوتار ، ولبنادقها في الحواصل أوكار"(٢) .

وتصور هذه الرسائل بعض المناظر الطبيعية الجميلة التي يمرّ بها الركب في أثناء مسيره ، وقد مال الكتّاب فيها إلى التشخيص ، فالغصون تميل طرباً ، ويعانق بعضها بعضاً عناق الأحبّة ، وتتهامس الورود تهامس العشّاق . يقول الشهاب الحلبيّ بأن الركب وصلوا : "إلى حدائق ملتفّة ، وجداول محتفّة ، إذا خمش النسيم غصونها ، اعتنقت اعتناق الأحباب ، وإذا فرك مرّ المياه متونها ، انسابت في الجداول انسياب الحُباب ، ورقصت في المناهل رقص الحَباب"(٣) .

ويصور ابن البارنباريّ خروج السلطان سحراً من خيمته للصيد بقوله : "يسرّح والطير جاثمة في وكورها ، ويخرج في أغباش السحر وعليه سواد ، ... ، ويأمر - خلّد الله سلطانه - أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهيةٌ في التقاطها حبها ، غافلةٌ عمّا يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ، ومولانا السلطان - ... - لنافرها مترقب ، ولطائرها بالجارح معقّب"(٤) . ويقضي السلطان سحابة نهاره على هذه الحال ، ثم يعود إلى الخيام ، فإذا طلع الفجر وزع شيئاً من صيوده على من معه ، وقضى فيما يستجد من أمور السلطنة ، ثم يعود إلى الصيد .

وكانت رحلة الصيد تدوم أياماً يخصّص قسمٌ منها للطيور ، والباقي يقضيه

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٩٠-١٩١ .
(٢) حسن التوسل : ٣٥٧ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٤ .
(٣) نفسه : ٣٥٦ .
(٤) صبح الأعشى ١٤ : ١٩١ .

السلطان وصحبه في مطاردة الحيوانات البرية ، فيعدّ "لإمساكها كلّ هيكل قيد الأوابد" من الخيل ، من أشهب كريم المغار، وأحمر كأنّما صُبغ بالدم ، وأدهم "مدرك كالليل ، منصبّ كالسيل ، كريم الناصية ، جواب قاصية ، كأن غرته صبح تنفّس في الدجى الحالك ، وكأنّ من الليل باق بين عينيه كوكب يضيء المسالك"(١).

ولعل أجمل ما في هذه الرسائل تلك الروح القصصيّة التي تسري في جنباتها ، وإن كانت القصة فيها تسرد سرداً ، ويقلل من نضجها واكتمالها استطرادهم في الوصف ، فإنّها تظلّ مفعمةً بالحركة والتنامي ، ولعلّ قلة اعتنائهم بتنامي الأحداث فيها عائد إلى تركيزهم على الوصف وحسب ، وكان الأجدر بهم في رسائل الصيد أن يهتمّوا بالأحداث لا بوصف ما يصادف في أثناء الرحلة . غير أننا نجد فيها عكس ذلك ، فبينما يستغرق وصف طائرٍ ثمانية سطور مثلاً ، يأتي وصف صيده في سطرين فقط(٢) .

وتلمح في هذه الرسائل مظهراً من مظاهر الطبقيّة حتى في ممارسة الصيد ، ونفسيّة السلاطين المترقبة الخائفة من انقلاب الأمراء عليهم ، فتراهم يمنعون من يُصاحبهم إلى الصيد من استعمال الأسلحة وآلات الصيد ، إلاّ بعد أن ينتهوا هم ، ويعودوا إلى القلعة . ولهذا كانت وظيفة من يصاحب السلطان من الأمراء التمهيد لصيده ، والقيام على خدمته وتوفير أسباب الراحة له ، وبعد عودته يرسم السلطان لهم بالصيد(٣) . وتشير بعض المصادر إلى أن خليلاً بن قلاوون ، الملك الأشرف ، قتل في أثناء ممارسته الصيد(٤) .

- الشّتويات

وهي رسائل دبّجها منشئوها في وصف الشتاء أو ما يتعلق به من سيول وأمطار وثلوج وبرد ، وعبر فيها بعضهم عن الفرح بنزول الغيث بعد جدب ، كما وصف بعضهم مشاعر الخوف والرهبة من السيول الجارفة ، ومنهم من عبر عن الفرح والتشاؤم معاً بسبب سقوط الثلج وإمساك الناس عن الحركة .

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٩٢-١٩٣ .
(٢) انظر نفسه ١٤ : ٣٣٧-٣٣٨ ، حسن التوسل : ٣٦٣-٣٦٤ .
(٣) نفسه ١٤ : ١٩٥ .
(٤) انظر فوات الوفيات ١ : ٤٠٩ ، والجوهر الثمين ٢ : ١٠٨ .

وصف المطر

والمطر كالنيل ، كلاهما مصدر خير وعطاء ، وخوف ورجاء ؛ ولذلك كان وصفهم لنزوله مليئاً بالحيوية ، مفعماً بالفرح والنشوة ، وبخاصة بعد إمحال الأرض ، فهطوله بشير بتدني الأسعار ، وهو كرم من الباري ورحمة .

وقد صوروا في رسائلهم السماء وغيومها ، وانهمار الغيث ليستقرّ في بطن الأرض فتحيا به بعد موتها ، وتنبت من كل زوج بهيج، وتجمّعه في السيول والغدران ، فجعلوا منه شفاءً لوجه الأرض المجدبة ، ولم ينسوا ممدوحيهم فشبهوه بهم ، وسلكوا إلى مدحهم مسلكاً لطيفاً ، ومن ذلك قول ابن البارنباريّ : "مطر غامت له السماء ، وعامت الأرض لما كثر من الماء ، ودامت به من الله الرحمة والنعماء ، وغابت تحت غمامه عين الشمس فمالها إشارة ولا إيماء ، وتوالى كرمه إلى الرياض فله عند كل ساقٍ يد بيضاء ، إلا أنّ الأرض تغير حالها ، واستقرّ في بطون الأرض ما أرسلته جبالها ، فتفرق في الأرض غدرانا ، وروت أحاديثه السيول عن الحيا عن البحر عن جود مولانا . كأنما الأرض به سُقيت فشفيت من باسها ، لا بل كأنّما أبو حفص هذه الأمة استسقى الله بعبّاسها ، وأضحت فاكهة الشتاء كوجه المحبوب غير مملولة ، وأمّنت سحبه القلوب وإن كانت سيوف بروقها مسلولة ، وخمدت فيها كل نار إلا نار قراك ، وما غابت فيه الشمس ونحن نراك"(١) .

ووصف ابن الوردي مشاعر البهجة بالمطر بعد القنوط ، وأظهر في وصفه بعض عادات التجار في احتكار المواد لرفع أسعارها ، وكيف يكون المطر تخريباً عليهم لصالح الناس ؛ إذ يتباشرون بمُغلّ جيّد فلا ينساقون وراء أولئك التجار فتفشل خططهم ، قال : "لله هذا الوحل ، بعد هذا المحل ، وكثرة البِرّ ، بعد أن مسّ الضرّ ، فقد عمّت الأمطار الأقطار ، حتى أصبح هُرْي الحكّار(٢) ، (على شفا جرف هار)(٣) ، ورمت المخازن مقاليدها إليكم ، (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) "(٤) .

---

(١) الوافي بالوفيات ١ : ٢٥٧ .
(٢) مخزنٌ كبير تجمع فيه الغلال للخزن احتكاراً لها .
(٣) سورة التوبة : ١٠٩ .
(٤) ديوان ابن الوردي : ١٣٦ ، والآية الأخيرة من سورة الزمر : ٧٣ .

وصف السيول

يبدو من خلال بعض الرسائل أنّ السيول كانت مخيفةً ؛ ذلك لأن الناس لم يكونوا يملكون وسائل لدفعها عن بيوتهم ومنازلهم ، ولذلك وصفها بعض الكتاب بأنها يوم الدين ، ففي عام ٧٢٨هـ أصاب مدينة عجلون سيل جارف أتى على كثير مما فيها ، فأرسل أحد أهلها رسالة إلى دمشق يخبر فيها عما حدث .

وصف في بداية الرسالة الرياح الشديدة وتلبّد السماء بالغيوم ، والبرق والرعد التي سبقت نزول المطر الغزير ، وقد أبرز الكاتب رهبة الناس من ذلك المنظر ، ووصف ما كان يختلج في صدورهم في تلك اللحظة المهولة من مشاعر اضطراب وقلق ، فكلّ يخاف على ما يهمّه من ولد أو مال . قال كاتب الرسالة : "أرسل الله تعالى ريحاً عاصفة ، فأثارت سُحباً واكفة ، في خلالها بروق خاطفة ، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة ، فطبقّت الوهاد وجلّلت الاكام ، وخيمت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام ، ثم أرخت عزاليها كأفواه القرب ، حتى خيّل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب ، فوجلت القلوب لهول ذلك وتصدعت ، وكادت الحوامل أن تضع حملها وتذهل كل مرضعة عمّا أرضعت ، فمن باكٍ على ما في يده من متاع الدنيا الحقير ، ومن مشفق خائف على ولده الصغير ، ومن غريق ما له من ملجأ يومئذ وماله من نكير ، ومن ناجٍ يقول : أشهد أن الله هو الحقّ وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير" .

ثم صور الكاتب قوّة الماء واندفاع السيول من كل مكان حتى خيّل إلى الناس أنهم لا محالة مغرقون ، كما صوّر الخراب الذي أحدثته في البساتين والبيوت والمساجد ، واتخذ من ذلك مدخلاً إلى الوعظ بقوله : "فانتبهوا يا أهل الغفلة ، واعتبروا يا أولي الألباب" ، ومن وصفه لما خربه السيل عبارات لطيفة يبدو أن الوعظ فيها هدفه . قال : "وأتلف كثيراً من الأمتعة والبضائع والأموال ، حتى أبيح لكثير من أرباب ذلك أن يمدّ يده للسؤال" .

وفي الرسالة تفصيل لمدة دوام ذلك السيل ، وكثافة مائه وارتفاعه وعرضه ، وما أحدثه من خسائر ماديّة لأهل عجلون . قال : "وكانت مدته من بكرة النهار إلى

وقت العصر ، (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر)(١) ، وكان عرض هذا السيل قدر رمية حجر ، وارتفاعه قدر قامتين أو أكثر"(٢) .

والسيول مصدر خير إن لم تكن مدمرة جارفة ، ولذلك وصف ابن نباتة سيلاً بصفات مختلفة عنها في الرسالة المتقدمة ، وبين أثره في الأرض والحيوانات ، وشكر الناس لربّهم على ما منحهم من نعمه وكرمه ، قال : "سيلٌ كأنّما سعت به البحار ، ودنت منه الدّيَم الغزار ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وتكاثر منه المنّ المبتدىء والمنح المبتدر، فوردت الهيم وسجدت الهام ، وصار السراب على الحقيقة بحراً جارية فيه سفن العيس كالأعلام"(٣) .

وصف الثلوج

ولهم في وصف الثلج رسائل جمعوا فيها بين التزيين والتقبيح ، وحاولوا توظيفها في تقريظ أصدقائهم ومدح رؤسائهم ، ومن هذه الرسائل ما قاله ابن الورديّ وبهاء الدين السبكيّ(٤) في وصف ثلج أصاب دمشق عام ٧٤٥ هـ .

تحدث ابن الوردي في بداية رسالته عن غزارة الثلج الذي سقط ، وما صاحبه من برد وغيوم شعراً في قصيدة مدح في تضاعيفها شهاب الدين أحمد بن فضل الله الذي تبادل مع ابن الوردي رسائل في ذلك ، ثم وصف الثلج نثراً ، فذكر مما سبّبه من بردٍ شديد ، ووصف كيف غطى وجه الأرض فجعلها بساطا أبيض ، وبكاء الناس بسبب البرد ، واستطرد في وصفه قائلاً : "قلّ تجلد الأرض على جليده ظهراً وبطنا ، فقال لها : أتبردين وقد طرح قوس السحاب على جبينك قطناً ... ، كم زمجرت الرعود على الناس كأنها تطالبهم بثأر قتيل وما قتلوه ، وقعقعت عليهم لجم صواهلها حتى تلوا (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)(٥)" .

---

(١) سورة هود : ٤٤ .
(٢) تذكرة النبيه ٢ : ١٨٩-١٩٠ ، وانظر ٣ : ٦٣ .
(٣) مطلع الفوائد : ٤٩٣ ، وانظر ٤٩٤ .
(٤) أحمد بن علي بن عبد الكافي المتوفى سنة ٧٧٣هـ (الوافي بالوفيات ٧ : ٢٤٦) .
(٥) ديوان ابن الوردي : ١٨٤ ، والآية من سورة النحل : ١ .

ثم صور ابن الوردي مشاعر الخوف عندما أحسّ الناس بهول الأمر ، فذكروا الله لما أصابهم من شدة ، وتحسّروا على الصيف ودفئه ، ورسم منظراً لطيفاً للثلج وقد علا الجامع الأموي وقبّة النسر فيه ، وتراكم فوق مئذنة العروس . قال : "وتضور الجامع الأموي من ترصيص الثلج على ترصيصه ، وزاد عليه حتى كاد يُفصّص عظام فصوصه ، وأصبحت العروس تنجلي في شربوش من فضة ، وبلّ جناح نسره بالندى فعجز عن الطيران والنهضة ، ونادى جيرونُ الجيرة من غائلة ثلوج تلوح ، فقيل له لا تخشَ من باب يزيد السيل فباب الزيادة مفتوح ، وجمّد الرّيق في اللهوات ثلجٌ وبردٌ تسطّح وتسنّم ، وسجد الكافر للشمس من شدة برده واشتاق إلى جهنّم"(١) . وختم رسالته هذه بمديح ابن فضل الله العمري .

أمّا بهاء الدين السبكي فقد جعل من وصف الثلج مدخلاً لمدح صاحبٍ له ، وذم أعدائه وخصومه ، فقد شبّهه بممدوحه في الكرم وسيْب العطاء وبياض السريرة ، وجعل من ندْفه مثلاً لدرر لفظه .

ثم ألحق السبكي ما للثلج من مساوىء بخصم صاحبه ، فقدرُه في انحطاط ، وضجرت منه البلاد والعباد ، وهو ثقيل الظلّ لا يطاق ، وأسوأ ما فيه أنّه يحول بين المرء والحركة ، ويأتي على جمال الطبيعة الخضراء فلا ترى العيون إلا بياضه . قال : "أشبهَ عدو مولانا في السقوط ، وساواه فلا يزال في نزول وهبوط ، وفرق شمله في البلاد ، وسئمته ظهور الأراضي وصدور العباد . أقبحْ به من باردٍ حيث كان ، ثقيل في كل مكان"(٢) .

- وصف النّكبات

تعرضت مصر والشام في عصر المماليك لكثير من الحوادث المأساوية التي ولجت

---

(١) ديوان ابن الوردي : ١٨٥-١٨٦ ، قبّة النّسر : القبة الجنوبية للجامع الأموي . قال فيها ياقوت : ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها (معجم البلدان ٢ : ٤٦٣) ، مئذنة العروس : إحدى مآذن الجامع الأموي ، وهي أعلاها ، (الأعلاق الخطيرة : ٣٦) ، جيرون : أحد أبواب سور مدينة دمشق (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ابن شدّاد ، طبع المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣م : ٢٦) ، يزيد هو أحد فروع نهر بردى (المصدر نفسه : ٤٤) .
(٢) تذكرة النبيه ٣ : ٦٤ .

آثارها كثيراً من البيوت ، وغيّرت معالم الحياة ، ففي عام ٧٤٩هـ شهدت البلاد "الوباء الذي لم يُعهد في الإسلام مثله"(١). وفي عام ٧٦٢هـ فشت الأمراض في الناس وساءت أحوالهم (٢) ، وكذلك عام ٧٦٤هـ ، حتى بلغ عدد الموتى في اليوم الواحد في مصر ثلاثة آلاف ، وانتشر الوباء في دمشق وحلب وغزة وسائر الشام(٣) . وأحياناً كانت الأوبئة تصيب منطقة بعينها كما حدث في ٧٧٢هـ عندما انتشر الوباء في القاهرة(٤) ، وعام ٧٨٢ هـ عندما انتشر في الإسكندرية(٥) .

وقد أثرت هذه الحوادث في الكتّاب أبلغ تأثير ، فكتبوا فيها رسائل فنيّة صادرة عن إحساس بمرارة المأساة ، ولا يمكن أن نتصور فتور العاطفة عند هؤلاء ، بل إن كتابتهم في تلك الحوادث ، واهتمامهم بها دالاّن على يقظتهم الفكريّة ، ورقيّ ملكاتهم ، وقوة إحساسهم بمجتمعهم . وإذا أنكر عليهم ذلك منكر ، وزعم أن رسائلهم كانت في باب الترف الفكري والأدبي أدخل ، فإن مشاعر الخوف الذاتيّ ، على أقل تقدير ، تبثّ فيها روح الصدق ، حتّى لو أُغفل انتماء الكتّاب إلى مجتمعهم ، وهو أمرٌ بعيد على كل حال .

وتشير هذه الدراسة إلى رسالتين : أولاهما في وصف زلزال حلب عام ٧٤٤هـ ، والأخرى في وصف طاعون عام ٧٤٩هـ ، وهما لابن الورديّ ، عرض فيهما لهول الكارثتين، وأثرهما في نفوس الناس من حاكم ومحكوم، ومبلغ الدمار والخسائر التي لحقت بالمجتمع ، غير أنّه ركز على مجرى الأحداث في حلب لإقامته فيها .

بدأ ابن الورديّ رسالته في وصف الزلزال بالاستعاذة بالله تعالى ، وصور تشاؤمه وأهل حلب من تلك السنة لما حدث فيها من أهوال ، زاغت بها الأبصار ، وحارت العقول . قال : "نعوذ بالله من شرّ ما يلجُ في الأرض وما يخرج منها ، ونستعينه في طيب الإقامة بها وحسن الرحلة عنها ، نعم ، نستعيذ بالله ونستعين ، من سمّ هذه السنة فهي أم أربعة وأربعين ، ذات زلزال ثبّت في بلاد الشمال رجْله

---

(١) السلوك ٢ : ٧٧٢ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٩٥ ، وبدائع الزهور ١ : ١٩١ .
(٢) انظر السلوك ٣ : ٥٨ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣١١ ، وبدائع الزهور ١: ٢٠٨ .
(٣) انظر السلوك ٣ : ٨١-٨٢ .
(٤) نفسه ٣ : ١٩٠ .
(٥) انظر بدائع الزهور ١ : ٢٥٤ .

وخيله ، وجزم برفع الأرض لما جرّ ذيله ، لا عاد من زلزال ، زاغ به العقل وزال"(١) .

وقد أصبحت المساجد في العصر المملوكي الأول ملاذاً للعامة الذين يبحثون عن مصادر الاستقرار والطمأنينة ، فعندما تحل بالبلاد مصيبة" كانوا يتكبدون خسائر جسيمة تفوق طاقاتهم ؛ فلا يجدون سوى المساجد يلجأون إليها ، يدعون الله فيها أن يرحمهم ، ويرأف بحالهم ، ويرفع عنهم البلاء(٢) . وفي هذه الزلزلة تجمّع أهل حلب عن آخرهم في أحد المساجد وحوله ، "وكشفوا رؤوسهم ومعهم أطفالهم ، والمصاحف مرفوعة ، وهم يضجون بالدعاء والابتهال إلى الله برفع هذا المقت ، فأقاموا على ذلك أياماً"(٣) . يقول ابن الورديّ مصوراً ذلك : "قنتَ الناس لأجله في الصّلوات" ، ويقول : "وكم ليلة سهرناها سهر ليالي الهجر ، ودعونا الله تعالى أنها (سلام هي حتى مطلع الفجر)"(٤) ، وفي خروج نائب حلب مع الناس يقول : "فخرج النائب بحلب لهذه النائبة ، ماشياً متفرعاً من نتيجة هذه الكلّية السالبة ، وهو يأسى ويأسف ، وعلى رأسه المصحف"(٥) .

وتصور الرسالة اختلاف الآراء في أسباب حدوث الزلزلة ، واعتماد كل صاحب رأي على علمه ، وفي ذلك إشارة إلى محاولتهم تحليل الظواهر الطبيعية ، وتعليلها . وصف ابن الوردي ذلك بقوله : "فالحكيم يقول: هذا بخار ريح احتبس ، والمنجّم يقول : هو من حركة كوكب كالقبس ، وأما الفقيه فينشد فيه : (الكامل)

إني بفعل الله أوّل مؤمنٍ   وبما قضاه النجم أوّل كافر

كذب الحكيم فماله من قوّةٍ   وذوو النجوم فمالهم من ناصر"

وعقّب ابن الوردي على ذلك قائلاً : "فالعلماء أحدق وأحذق ، والشريعة الشريفة أقصد وأصدق"(٦) . ووقوف الفقهاء هذا الموقف إزاء الحكماء والمنجمين منبعه فيما

---

(١) ديوان ابن الورديّ : ١٤٩ .
(٢) انظر في لجوء العامة إلى المساجد أوقات الشدة السلوك ١ : ٩٢٣ ، ٢ : ٤٤٦ ، ٣: ١٩٠ ، ١٩٥ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٦٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١: ١٢٢ ، وبدائع الزهور ١ : ١٤٦ .
(٣) السلوك ٢ : ٦٥٢ .
(٤) ديوان ابن الوردي : ١٥٠ ، والآية من سورة القدر : ٥ .
(٥) نفسه : ١٥٢ .
(٦) نفسه : ١٥٠ .

وخيله ، وجزم برفع الأرض لما جرّ ذيله ، لا عاد من زلزال ، زاغ به العقل وزال"(١) .

وقد أصبحت المساجد في العصر المملوكي الأول ملاذاً للعامة الذين يبحثون عن مصادر الاستقرار والطمأنينة ، فعندما تحل بالبلاد مصيبة" كانوا يتكبدون خسائر جسيمة تفوق طاقاتهم ؛ فلا يجدون سوى المساجد يلجأون إليها ، يدعون الله فيها أن يرحمهم ، ويرأف بحالهم ، ويرفع عنهم البلاء(٢) . وفي هذه الزلزلة تجمّع أهل حلب عن آخرهم في أحد المساجد وحوله ، "وكشفوا رؤوسهم ومعهم أطفالهم ، والمصاحف مرفوعة ، وهم يضجون بالدعاء والابتهال إلى الله برفع هذا المقت ، فأقاموا على ذلك أياماً"(٣) . يقول ابن الوردي مصوراً ذلك : "قنتَ الناس لأجله في الصلوات" ، ويقول : "وكم ليلة سهرناها سهر ليالي الهجر ، ودعونا الله تعالى أنها (سلام هي حتى مطلع الفجر)"(٤) ، وفي خروج نائب حلب مع الناس يقول : "فخرج النائب بحلب لهذه النائبة ، ماشياً متفرعاً من نتيجة هذه الكلّية السالبة ، وهو يأسى ويأسف ، وعلى رأسه المصحف"(٥) .

وتصور الرسالة اختلاف الآراء في أسباب حدوث الزلزلة ، واعتماد كل صاحب رأي على علمه ، وفي ذلك إشارة إلى محاولتهم تحليل الظواهر الطبيعية ، وتعليلها . وصف ابن الوردي ذلك بقوله : "فالحكيم يقول: هذا بخار ريح احتبس ، والمنجّم يقول : هو من حركة كوكب كالقبس ، وأما الفقيه فينشد فيه : (الكامل)

إني بفعل الله أوّل مؤمنٍ وبما قضاه النجم أوّل كافر

كذب الحكيم فماله من قوّةٍ وذوو النجوم فمالهم من ناصر"

وعقّب ابن الوردي على ذلك قائلاً : "فالعلماء أحدق وأحذق ، والشريعة الشريفة أقصد وأصدق"(٦) . ووقوف الفقهاء هذا الموقف إزاء الحكماء والمنجمين منبعه فيما

---

(١) ديوان ابن الورديّ : ١٤٩ .
(٢) انظر في لجوء العامة إلى المساجد أوقات الشدة السلوك ١ : ٩٢٣ ، ٢ : ٤٤٦ ، ٣: ١٩٠ ، ١٩٥ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٦٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١: ١٢٢ ، وبدائع الزهور ١ : ١٤٦ .
(٣) السلوك ٢ : ٦٥٢ .
(٤) ديوان ابن الوردي : ١٥٠ ، والآية من سورة القدر : ٥ .
(٥) نفسه : ١٥٢ .
(٦) نفسه : ١٥٠ .

أرى : الحرص الشديد على الدين ، وسوء الفهم لعلاقة الدين بالحياة والعلم .

ويصور ابن الورديّ الدّمار الذي خلّفه الزلزال في حلب على طريقته الخاصة ، فلا تكاد جملة له تخلو من توجيه اصطلاحات لغوية . قال : "ولو رأيت حلب ، وقد أشرفت على سوء المنقلب ، ووضح لجامعها فروق في أماكن، وتعلمت منارته باب الإمالة وتحريك الساكن، فلولا بركة النّداء فيها لرخمت ، ولكن الله سلّم جمعها فسلمت ، انتفع تأنيثها بشرف التذكير ، وسلم جمعها الصحيح من التكسير"(١) ، وقال متحسّراً على مَنْبج (٢) مستخدماً عنوان كتاب كليلة ودمنة : "فوا أسفا على منبج من مدينة جليلة ، أصبحت دمنةً وكانت الألسن عن وصفها كليلة ، غشيها قتَرٌ وظُلمة ، وركبتها ريح سوداء مدلهمّة"(٣) .

وفي رسالة (النبأ في وصف الوبا) بدأ ابن الوردي بالاستعاذة كما في الرسالة المتقدمة ، وتوسّل بالرسول الكريم لردّ الوباء ، ثم جاء بوصف طويل لحركة الوباء وتنقله بين البلاد من الشرق إلى الغرب حتى وصل إلى حلب ، فكان أثره فيها أقلّ منه في غيرها(٤) . ويصور في رسالته ما كان الوباء يسببه لمن أصيب به بقوله : "ومن الأقدار أنّه يتتبع أهل الدار، فمتى بصق واحد منهم دماً ، تحقق كلهم عدما، ثم يسكن الباصق الأجداث ، بعد ليلتين أو ثلاث"(٥) .

ويبدو من وصف ابن الورديّ لمحاولات الأعيان بحلب دفع الوباء عنهم : بالبحث في كتب الأدوية ، والاستطباب ، والعدول إلى بعض أصنافٍ من الطعام دون غيرها ، أنّ العامة لم يكونوا يجدون شيئاً من الرعاية في مثل هذه الأحوال ، وهي صورة مظلمة لمجتمع لا تكافل فيه في الأوقات العصيبة ، قال : "فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض ، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحوامض ، قد تنغص عيشهم الهني ، بملاطخة مسلم الطّينة الطين الأرمنيّ ، وقد

---

(١) ديوان ابن الوردي : ١٥١ .
(٢) مَنْبِج . قال ياقوت : "وهو بلد قديم ، وما أظنه إلا رومياً ، وذكر بعضهم أن أول من بناها كسرى لما غلب على بلاد الشام" . وهي إلى الشمال من حلب ، (انظر معجم البلدان ٥ : ٢٠٥) . وهي الآن مركز قضاء في محافظة حلب بسوريا .
(٣) ديوان ابن الوردي : ١٥٣ .
(٤) نفسه : ٨٦-٩٠ .
(٥) نفسه : ٩٠ .

لاطف كل منهم مزاجه وعدّل ، وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصّندل(١) ، وتختّموا بالياقوت وجعلوا البصل والخلّ من جملة الأدم والقوت ، وأقلوا من الأمراق والفاكهة ، وقربوا إليهم الأترنج(٢) وما شابهه"(٣) .
وكثير مما ذكره ابن الورديّ من أنواع العلاجات التي مارستها الأغنياء هنا هو من قبيل الشعوذة والجهل .

وقد بلغ الأمر من كثرة الموتى حدّاً أدّى بالجنائزيّة ، وهم من أشد الناس فقراً ، وأقلّهم شأناً في مجتمع المماليك ، إلى التقاعس عن العمل لما أصبحوا عليه من غنى ، بحيث استغلوا الوضع وصاروا يرفعون أجورهم عن نقل الموتى وتغسيلهم ودفنهم ، فانتقدهم ابن الوردي واصفاً جشعهم قائلاً : "ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى ، وسمعت بكل قطرٍ من حلب نعيّاً وصوتاً ، (لولّيت منهم فرارا)(٤)، وأبيت فيهم قرارا ، فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية، فلا رزقوا ، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل ، فلا عاشوا ولا عرقوا ، فهم يلهون ويلعبون ، ويتقاعدون على الزبون"(٥).

وعلى نهجه في عرض الآراء في رسالته المتقدمة الذكر ، انتحى ابن الورديّ منحى الفقهاء في رسالته هذه ، فوقف يناظر ، ويجادل المدّعين في أمر العدوى، ويدعو إلى الصبر على البلوى "فهو عبادة"، وكلّ من أصيب بالوباء ، فصبر ، ومات ، فقد رزق الشهادة . قال : "هذا وهو للمسلمين شهادة وأجر ، وعلى الكافرين رجزٌ وزجْر ، إذا صبر المسلم على مصيبة ، فالصبر عبادة ، وقد ثبت عن نبيّنا - صلى الله عليه وسلّم - أنّ المطعون شهيد(٦) ، فهذا الثبوت حكمٌ بالشهادة ،...، فإن قال قائل : هو يعدي ويبيد ، قل : بل الله (يُبدىء ويعيد)(٧) ، وإن جادل الكاذب في دعوى العدوى وتأوّل ، قلت : قد قال الصادق عليه السلام : (فمن أعدى

---

(١) نباتات لها رائحة طيبة إذ تحرق .
(٢) ثمار حامضة المذاق ، ذهبيّة اللون ، زكيّة الرائحة .
(٣) ديوان ابن الورديّ : ٩١ .
(٤) سورة الكهف : ١٨ .
(٥) ديوان ابن الورديّ : ٩١ .
(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت (--١٩م) ٥ : ٣١٥ .
(٧) سورة البروج : ١٣ .

الأول)(١) ، ولو سلّمنا فتكه بأهل الدار ، فهو بإرادة الفاعل المختار"(٢) .

وفي الرسالة وصف شعريّ لطيف لما قام به الناس عندما أيقنوا بالهلاك ، فقام كلّ يوصي بأولاده ، ويودّع أصحابه ، ويجهّز كفنه ، ويعمل على مُصالحة خصومه ، ويزيد من إنفاقه في وجوه الخير ،ويُعتق ما عنده من رقاب ، ويستبدل ما فيه من خلال السوء بالحميد منها ، والتاجر الذي اعتاد الغشّ قام يملح موازينه ومكاييله .

وقد ختم ابن الورديّ رسالته بدعاء إلى الله ، ويوحي دعاؤه بأنه كتب رسالته هذه في أثناء الوباء ، وقد تكون آخر ما كتبه لأنّه توفي فيه . كما يوحي بأن الاعتقاد السائد بين الناس كان أن الوباء حلّ بهم بسبب عصيانهم لأوامر الله ، وظلمهم لأنفسهم ، وبما جنت أيديهم من المفاسد والمنكرات . جاء فيه : "اللهم إنا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعون ، أن ترفع عنّا الوباء والطاعون ، لا نلتجيء في رفعهما إلا إليك ، ولا نعول في العافية منهما إلا عليك، نعوذ بك يا رب الفلق من الضرب بهذه العصا ، ونسألك رحمتك فهي أوسع من ذنوبنا ولو كانت عدد الرمل والحصى"(٣) .

- المجونيات

أشار محمود رزق سليم إلى مشاركة الرسائل في عرض جوانب من اللهو والفساد في المجتمع المملوكي(٤) ، ويبدو أن بروز هذا الجانب من الحياة في عصر المماليك في الشعر كان أوضح منه في الرسائل ، إذ لم تحفظ المصادر من رسائلهم في هذا الموضوع إلا النزر اليسير ، بينما تفيض بالنماذج الشعرية في وصف الخمرة والحشيش والغلمان والجواري والمغامرات .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه الرسائل كان يُنشأ رياضةً للخاطر ،

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ١ : ٢٦٩ .
(٢) ديوان ابن الورديّ : ٩٢-٩٣ .
(٣) نفسه : ٩٤ .
(٤) عصر سلاطين المماليك ٥: ٢٧٦ ، وانظر الأدب في العصر المملوكي ٢ :١٤ .

واختباراً للقريحة ، لابهدف الوصف لأمر حدث ، أو تجربة وقعت ، وقد أشار ابن الوردي إلى ذلك في خطبة ديوانه بقوله :"إنني أمرت أن أكتب في هذا الكتاب شيئاً من نثري ونظمي ،وها أنا قد أثبت علي به مسطوراً يشهد بقصر فهمي ، وقد يقف الناظر في مجموعي هذا على وصف عذار الحبيب وخده ، ونعت ردفه وقده ، وشكوى عشقه وصده ؛ فيظن لذلك بي الظنون"(١) .

وصف الخمرة ومجالسها

أفاد الكتّاب في وصفهم الخمر ومجالسها ، وسقاتها وكؤوسها ، وألوانها وأصنافها ، وأثرها في شاربيها ، من معاني أبي نواس ، فتراهم يشبّهونها بالحسناء ، التي تسلب الحكيم لبه ، ويسقطون عليها صفات الغيد ، ويبدو أن بعض الكتاب كانوا مغرمين باحتسائها ، فبدر الدين بن الصاحب مثلاً كتب رسالة إلى صديقه فخر الدين بن مكانس يدعوه فيها للانضمام إلى مجلس شراب ، وأطال فيها في وصف الخمرة مشوقاً ابن مكانس لحضور مجلسها .

وفي رسالته تشبيهات واستعارات جميلة في وصفها ، حيث جعل منها فتاة لعوباً رعناء تحرك الشهوة ، وتدفع إلى ارتكاب المعاصي ، وكأنها لقوة تأثيرها من الحور العين . قال :" يخلع الوقور في حبها العِذار ، ويطيعها بالسعد فلك اللهو المدار ، ثملةُ المعاطف ، تقهقه قهقهة الرعونة ، كأنما خُلقت نشوانة من الطينة ، يزداد ثغرها طيباً في ساعة السحر ، وتُعرف عينها المخفية بحسن الأثر"(٢) .

كما وصف ابن الصاحب فعلها في شاربها ، فهو يظن نفسه ملكاً ، وقد ادعى أنها تجمع شمل الأحباب ، وتلين عريكة الشارب فترق طباعه ، وتقلل من إحساسه بالهموم ووطأتها ، فتصفو الحياة بعد كدر . قال : "نديمها يجد في نفسه تخييل المملكة ، ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤ حَبابها شبكة ،...، تجمع شمل الأحباب ، وتهذب

---

(١) ديوانه : خطبة الديوان .
(٢) مطالع البدور : ١٥٢ .

الأخلاق الصعاب" ، و " تعيد الشيخ صبياً ، والمشغول خلياً "(١) .

ولابن فضل الله العمري مقطوعة في وصف خمرة دمشق ، وصف فيها ألوانها وأنواعها ، وتحدث عن شهرتها ، وماتضفيه على الوجوه من جمال بعد شربها ، وشبهها بخدود الحسان المشربة بحمرة ، وشبه صفاءها بنقاء اللجين ومياه الغدران . قال :"تنشر كاساتها ألوية حمرا ، وتتوقد في صفحات الخدود جمرا ، فمن حمراء كنار تتلهب ، ومن صفراء كالزجاج المذهب ، ومن بيضاء كأنها نطفة غدير ، أو فضة طافت بها قوارير ، أو وردية تتضاحك في الشفاه اللعس ثغورها المفترة ، ويخالطها الصفاء كخد أبيض تشرب بحمرة ، تضيء في دجى الليل مصباحاً ، وتهدي إلى الجلساء بريحها تفاحاً "(٢) .

أما مجالس الشراب فوصفوا فيها الصحب ، والقداح ، والأباريق وأنواع الشراب ، وصنوف الأطعمة ، والسقاة ، والقيان ، والشموع وما يصاحب ذلك من لهو ومجون ، ومن ذلك قول ابن حبيب الحلبي في مجلس بأنه "ينطوي على قيان ، ينشدن البديع من سحر البيان ، لهن أصوات ، توقظ أعين اللذات ،...، وفيه أنواع من الشراب تلمع في أوانيها كلمع السراب ،...، إلى غير ذلك من روح وريحان ، ومحاسن وإحسان ، ومسموع ومشموم ، ومشروب ومطعوم ، وعودٍ يُحرق ويُحرك ، ومسكٍ في الصحاف يُفتت ويُفرك ، وقريضٍ يُنشد ، وعَرف ضائع لا يُنشد "(٣) .

وفي وصف ابن حبيب لهذا المجلس بضعة أسطر في وصف صاحبٍ له أخذت عليه الخمر كل مأخذ بعد انفضاض الشرب فجراً ، فصور ترنحه يمنة ويسرة ، وتحامله على ابن حبيب في الطريق حتى إذا وصل بيته خانته قواه فوقع لا حراك فيه . قال :"أشرت إلى صاحبي بالنقلة ، وعرفته أن الليل قد عزم على الرحلة ، فقام يهتز من السكر اهتزاز الأفنان ، وانصرفنا أنا أمشي كالرخ وهو يمشي كالفرزان ، فلما صرنا إلى البيت ، خر صعيقاً كالميت "(٤) .

---

(١) مطالع البدور : ١٥٣ .
(٢) مسالك الأبصار : ١٧٦ - ١٧٧ .
(٣) نسيم الصبا ، ابن حبيب الحلبي ، تصحيح محمود العلاف ، ١٢٨٩ هـ : ٦٠ .
(٤) نسيم الصبا : ٦١ .

وصف الغلمان

ويُعد من الموضوعات التي طرقها أدباء عصر المماليك شعراً ونثراً ، وما كتبوه من رسائل في عشق الغلمان المُرْد أشبه ما يكون بالقصص ، إذ يحكي الكاتب في رسالته تجربة متخيّلة ، أو حقيقيّة ، ويسرد أحداثها : من لقاء المصادفة الأول الذي سلبه لبّه ، إلى الحديث عن الرقيب العاذل ، إلى اللقاء الموعود ، والهجر والصدود ، ومراسلة الحبيب ، ولايفوّت فرصةً لوصف جمال حبيبه وبهائه ، ولطفه ورقّته ، وأدبه وظرفه ، وترى تفصيلاً في وصف الجسد من قدود وخدود ، وعيون وجفون ، وشعر وشفاه ، وريق ، إلى غير ذلك .

ومن هذه الرسائل رسالة لابن أبي حجلة (١) ، وصف فيها عشقه لغلام من ثلاثة غلمان رآهم في اثناء تجواله في رياض دمشق ، بدأها بمقدمة وعظيّة ، وكأنه يشير بذلك إلى أن هذه الرسالة من وحي الخيال ، قال فيها بعد حمد الله على نعمه ، وبيان فضله على خلقه ، ووصف أثر المطر في إحياء الأرض :"فحياة الأرض بعد موتها عبرة لمن اعتبر ، وهذا البعث من أعظم الاستدلال عند أهل النظر ، فسبحان من قضى على الخلق بالمحو والإثبات ، وحكم على العقل بالإقرار بالتوحيد لما أقامته آياته البيّنات"(٢) .

وأفاض ابن أبي حجلة في وصف رياض دمشق ، وأطيارها وأشجارها ، وخضرتها وزهورها ، وخروج أهلها للاستمتاع بما فيها من مناظر ، وطربه لسماع أصوات المغاني وهن يرددن غناءهن على أصوات الدف والمعازف . قال في دمشق :"كل ما تشتهيه نفسك فيها وبها البِشر والهناء والسرور ، قلت للركب مذ أنخنا عليها ونزلت ولدانها من القصور ، هذه الجنّة ادخلوها بسلام ، بلدٌ طيب ورب غفور"(٣) .

وصف الكاتب بعد ذلك الصدفة التي جمعته بمن عشقه ، إذ مرّ به ثلاثة غلمان

---

(١) أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبدالواحد ، الشهير بابن أبي حجلة ، أصله من تلمسان بالمغرب العربي ، سافر إلى المشرق العربي فأقام في مصر ودمشق ، وكان من أعيان أهل الأدب ، توفي عام ٧٧٦ هـ (المنهل الصافي ٢ : ٢٥٩) .
(٢) الرسالة ، (ميكروفيلم) بالجامعة الأردنية رقم (١٢٧) : ١-٢ .
(٣) نفسه : ٢ - ٣ .

يتمايلون تمايل الأغصان حركها النسيم ، ويتيهون على الشمس صفاءً ودلالاً ، وعلى الغزلان رشاقةً واختيالاً . قال: "وإذا أنا بسرب ظباء أوانس ، بل دوحة غصون موائس ،...، فحصل لي تكميل اللذة بهذا المعنى ، وشبّبت بموصول المقاطيع في منازل الأحباب وما أحسن التشبيب في المغنى ، وأسفر ذلك السرب عن ثلاث أناس قد أمنوا من التعزيز ، ومامنهم إلا من جعل القلب مِصراً وقال أنا العزيز" .

ولاترى في وصفه الغلام الأول سوى صفات حسيّة ، فوصف عيونه الذوابل الفاتكة ، وقدّه الميّاد ، وخصره النحيل ، قال بأنه اختال في مشيته "بوجنةٍ كجنّة أينع روضها ، وأزهر فيه وردها ، عليه دم العشاق منثور ، وثغر تزهو من صفاء صفاته بدور النحور ، ومُبتسم لو تبسم في الليل صيّر الظلام نهاراً" .

وانتقل ابن أبي حجلة إلى وصف الثاني ، وأطال في الحديث عن جسده وسماتٍ حسنه ، ثم قال يصف أثر نظراته فيه :"..بألحاظ كم تركت صباً مصاباً بالعين والنظرة ، وأجفان أضلّت الناس حين فترة ، أسفر فرأيت البدر طالعاً من أطواقه ، وقد لبس حلّة الجمال مصبوغة بدم عشّاقه ، رماني بسهم لحظٍ من قوس الحاجب ، فصاد بجارح اللحظ قلبي الطائر"(١) .

ويبدو أن كل ما تقدم كان تمهيداً لوصف ثالث الغلمان ، فهو أسمر البشرة ، له خال في صفحة خده ، يميس مثل غصن هزه الطرب ، وكان صاحباه قد أثارا مكامن العشق في نفس الكاتب ، فما لبث أن رآه حتى سباه بلحظه ، ورماه بسهمه فأصماه . قال : "وأقبل الثالث ، وعندي لميّت الغرام منه باعث ، يخطر كالغصن في الاعتدال ، بقوام كم أتلف روحاً ومال . أسمر عمّه الحسن بخاله ، وقد نصب صدغه شركاً فوقع القلب في حباله ،...، يختال في حلةٍ زرقاء ، كأنه البدر في أديم السماء ، تبدو في زرقتها مشارق أنواره ، فتحسب الشمس طالعةً من إزاره" .

وقع هذا الفتى من قلب ابن أبي حجلة موقعاً لم يملك حياله إلا أن ينساق وراءه ، ونهاه عن التمهل والتفكر ما رآه من حسنه فاعلن لمالكه ولاءه ، فما لجراح سهام الألحاظ شفاء . قال :"فما كانت إلا نظرة أتعبت الخاطر ، وغيّبت رشد

---

(١) الرسالة : ٥ - ٧ .

الحاضر ، ومن أمسى أسير العيون كيف يرجى له خلاص ؟ ومن نصبت على عقليه شراك الجفون .. هيهات ، ولات حين مناص !" .

وقد جرى الكاتب على ماكان عليه الشعراء من وصف دلال المحبوبة على حبيبها ، فذكر أن الغلام لما أن رأى شغفه به تدلل ، ونظر إليه نظرة المعرض المستخف ، فأرّق جفن عاشقه ، وأطال ليله ، وأبكى عينه بدمع سخين . قال :"وما هو إلا أن رأى عيني قد انصرفت إليه ، وقلبي قد حل في يديه ، وعلم أن حبّه ملك قيادي ، وأنه من الثلاثة مرادي، وهو الذي أضرم ناري ، ولكن لشقوتي وقع عليه اختياري ، فرنا ونظر ، وأخذ القلب بلمح البصر"(١) .

ثم وصف الكاتب استنجاده بأحد أصحابه ؛ لأن الفتى أعرض عنه ، فنصحه بأن يراسله عن طريقه فوافق ، وذكر نص الرسالة التي كتبها بدموعه ، وذكر فيها شوقه المستعر بين ضلوعه ، وأشجانه وأحزانه ، وأخذ يستعطفه ويذكره بسقامه ونحول جسمه ، وأفاض في وصف لواعج شوقه ، واستطرد في استعطاف معشوقه واسترحامه ، ولاينه في أثناء ذلك بالحديث عن جماله ، وتمنى عليه تحقيق وصاله القريب ، ومن ذلك قوله :"عرضت رقّي ، ووقفت بين الترجي والتمنّي" ، وقوله :"فأسأل الله أن يجمع الشمل بعد الفراق ،... نادى الجفن دمعي فارحم ، وأمسيت عنك كأخبار وأنت تعلم ،... وأصبح القلب بعموم الوجد مخصوصا ، وأمسى الكرى والصبر : هذا منكرا وهذا منقوصا" ، وقوله : "أشكو إليك غراما حكم على القلب سلطانه ، وهوى قد استحوذ على اللب شيطانه ، وجوىً تأججت في الحشا نيرانه ،... كيف يصحو من سكر الهوى ، من شرب صِرف الشوق بكؤوس النّوى" .

وفي ختام رسالته إلى معشوقه طلب لقاءً يراه فيه ، وتمنّى عليه الرأفة بحاله . قال :"والمراد ساعة أتمثّل بها بين يديك ، وأبثّ بعض ما ألقى إليك ، والسلام"(٢) .

تحدث الكاتب بعد ذلك عن إجابة معشوقه إلى طلبه ، فعاد الرسول بمن أرسل

---

(١) رسالة ابن أبي حجلة : ٨ - ٩ .
(٢) نفسه : ١٠ - ١٣ .

إليه ، ووصف فرحته بقدومه ، وبالغ في ذلك أيما مبالغة فقال :"فقمت ووجهي بقدوم البدر يتهلل ، ومُحيّاه من الحياء بلؤلؤ العرق يتكلل ، وكنت قد أعددت له ما يليق بمثله ، ووددت لو فرشت خدي موطئاً لنعله ، وتلقّيته كما يتلقى المحب الحبيب ، ورحت ولي من لحظه وثغره سهم ونصيب" .

وأسقط ابن أبي حجلة فرحته بلقاء محبوبه على ما حوله من زهور وطيور ، وأغصان وغزلان ، فترى الورود تخدم معشوقه ، ووصف الليلة التي قضاها معه ، لكنها ليلة كان العفاف أنيسها ،والأدب والظرف واللطافة أضفت عليها جمالاً وسحراً ، فكانت قصيرة مثل لحظات السعادة ، ما إن طلع بدرها حتى أشرقت الشمس مؤذنة بغيابه . قال يصف تلك الليلة :"في روضة طاب رُباها ، وتمسك الطيب بذيل صباها ، والظبي سارح في نواحيها ، وقد تبسّمت فرحاً به ثغور أقاحيها ، والغصن يُثني في التثنّي على قوامه ، والورد من الخجل يستتر بأكمامه ... ، فقطعناها ليلة ما غاب شفقها ، حتى طلع فلقها ، وكاد يسبق أولها آخرها ، ولم يكن عيبها إلا تقاصرها ، فيالها ليلة كانت غرة في جبهة الدهر"(١) .

- رسائل المفاخرات والمناظرات

وهذه الرسائل غاية في الظّرف ، وإن دلّت على ضرب من الترف الفكري ، وهي قائمة على تخيّل الكاتب(٢) ، وقدرته على تلمّس الفروق بين الأشياء ، وتغلب أن تكون المفاخرة بين نقيضيْن كالماء والنار ، والليل والنهار ، أو بين ما يُتوهم فيهما التناقض كالسيف والرمح ، والسيف والقلم ؛ "فيتحدث الكاتب على لسان أحد الطرفين مُجلياً محاسنه ، مظهراً خصائصه ، مستهدفاً تفضيله . وقد يتوخّى ذكر معايب الآخر ، حتى يُنهي المحاورة بالمصالحة أو بتغلب أحدهما"(٣) كما قال الدكتور محمد كامل الفقي .

وتختلف المفاخرات عن رسائل الوصف ، وإن كان الوصف عمادها ؛ ذلك لأنها تقوم

---

(١) رسالة ابن أبي حجلة : ١٣ ، وانظر رسائل أخرى في : نهاية الأرب ٨ : ١٤٠ - ١٤٩ ، نسيم الصبا : ٣٥ - ٤٣ ، لوعة الشاكي ودمعة الباكي ، صلاح الدين الصفدي ، مطبعة الجوائب بالآستانة ١٢٩٢ هـ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٦٤ .
(٣) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢١ .

على الحوار والجدل وسوق الأدلة ، "فتتمشى الحماسة بين سطورها ، وينقلب أسلوبها إلى نمط من الأساليب الخطابية "(١) سعياً وراء التأثير وكسب الأنصار المتخيّلين كما رأى محمود رزق سليم ، ويقتضي ذلك أحياناً قلب الحقائق ، وبهرجة الزيف . وتوضّح نهاية الرسالة موقف الكاتب من كلا المتفاخرين ، وتكون الرسالة في أصلها قائمة على فكرة تحمّلت في ذهنه ، فقام ينشرها ويدافع عنها بما لديه من قوة بيان ، وسُموّ خيال .

ذهب الدكتور محمد زغلول سلاّم إلى أن هذا اللون من الرسائل ظهر في العصر الأيّوبي(٢) ، لكنني أميل إلى تقدم ظهورها عن ذلك(٣) ، وأعتقد أن ما قيل في المفاخرة بين السيف والقلم قد يعود إلى مفاضلة أبي تمام بينهما في فتح عمّورية (٤) ، وأن المفاخرات بين السيف والرمح قد تكون تأثرت بقصيدة المتنبّي في الحدث الحمراء (٥) ، وتفضيله السيف على الرمح فيها .

أورد ابن حبيب في "نسيم الصبا" مفاخرة بين فصول السنة (٦) ، فشخص الفصول وجعلها تحضر مجلس الأدب ، فقام كل فصل منها يتحدث عن نفسه وفضائله وفوائده دون ذكر عيوب الفصول الأخرى ، لكن هذه المفاخرة ليست ناضجة نُضج غيرها ، وكأنها إنما أنشئت بغرض الوصف ، فهي أشبه ما تكون بمقطوعات وصفيّة جُمعت معاً ، والحوار فيها ضعيف على غير ما في الرسائل الأخرى .

ومن المفاخرات بين السيف والقلم ما أنشأه الأديبان : ابن الوردي ، وابن نُباتة ، ويُلاحظ في هاتين الرسالتين أن الكاتبين حشدا معارفهما الدينيّة والتاريخية والأدبيّة ، وكل ما يمكن توظيفه في المفاخرة ، فجاءت كل منهما غاية في الجمال ، وهما متشابهتان إلى حد كبير .

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٦٣ .
(٢) الأدب في العصر المملوكي : ١٦ .
(٣) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٦٥ .
(٤) قصيدته : (السيف أصدق إنباء من الكتب) ، ديوانه بتحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م ، ١ : ٤٠ .
(٥) قصيدته (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) ، ديوانه ، تحقيق عبدالوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤٤م : ٣٧٤ .
(٦) نسيم الصبا : ١٦ - ٢٠ .

بدأ ابن الوردي رسالته بذكر دواعي إنشائها بقوله :"لما كان السيف والقلم عُدّتي العمل والقول ، وعُمْدتي الدول فإن عدمتْهما دولة فلاحول ، وركني إسناد الملك المعربين عن المخفوض والمرفوع ، ومقدمتي العز والذل الصادر عنهما المحمول والموضوع ، فكرت أيهما أعظم فخراً ، وأعلى قدراً ، فجلست لهما مجلس الحكم والفتوى ، ومثلتهما في الفكر حاضرين للدعوى ، وسويت بين الخصمين في الإكرام ، واستنطقت لسان حالهما للكلام"(١) .

وبعد المقدمة تقسم الرسالة إلى مراحل أربع تتلوها الخاتمة ، وتشمل المرحلة الأولى منها محاورة طريفة بدأها القلم بذكر فضله ، واستحضار ما جاء في حقّه من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وأكد على دوره في بناء الأمم ورُقيّها ، وذكر أنه وسيلة الحرب قبل أن تحرك السيوف من أغمادها ، ثم تلاه السيف فذكر فضله في نشر الدعوة على يد المسلمين الأوائل ، وأنه تشرف بحمل الرسول الكريم له لا للقلم(٢) .

وفي المرحلة الثانية تشتد حدة المفاخرة ، فبدأ كل يعدد مناقبه ومعايب الآخر ، فكان مما قاله القلم :"أنا مخصوص بالري وأنت مخصوص بالصدى ، أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى ، ما لنت إلا بعد دخول السعير ، وما حُددت إلا عن ذنب كبير ، أنت تنفع في العمر ساعة ، وأنا أفني العمر في الطاعة . أنت للرهب ، وأنا للرغب" . فرد عليه السيف :" طالما جعلت بعض فراخي بصددك وهي السكين ، فاصبحت من النفّاثات في عقدك يا مسكين ، فأخْلت من الحشو جثمانك ، وشقّت أنفك وقطعت لسانك ،ويحك ! إن كنت للديوان ، فحاسبٌ مهموم ، أو للإنشاء ، فخادم لمخدوم ، أو للبليغ ، فساحرٌ مذموم"(٣) .

وفي المرحلة الثالثة تصبح المفاخرة مقتصرة على الذم والقدح ، ويصوّر الكاتب في أثناء ذلك سلبيات السيف والقلم ، ولاريب في أن بعض السلبيّات كانت

---

(١) ديوان ابن الوردي : ٧٨ .
(٢) نفسه : ٧٨ - ٨١ ، وانظر ما يُناظره في رسالة ابن نُباتة في خزانة الأدب وغاية الأرب ١ : ٢٣٠ - ٢٣٤ .
(٣) نفسه : ٨١ ، ٨٢ ، وانظر رسالة ابن نباتة في خزانة الأدب وغاية الأرب ١ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

مستمدة من واقع عصره ، فهو عصرٌ كثر فيه القتل والتعذيب ، وراجت فيه الرشاوى والمصادرات والمظالم ، ويبدو أن في ذلك نقداً خفياً موجهاً لأرباب الوظائف من أرباب السيوف والأقلام . جاء على لسان القلم في ذم السيف قوله : أنت "ابن النار والدخان ، وبأتر الأعمال وخوّان الإخوان ، تفصل ما لا يُفصل ، وتقطع (ما أمر الله به أن يوصل)(١)،...، يا غراب البين ، ويا عدة الحين ، وما معتلّ العين(٢) ، ويا ذا الوجهين ، كم أفنيت وأعدمت ، وأرملت وأيتمت" . فكان رد السيف بأن قال :"كم جريت بعكس، وتصرفت في مَكس، وزورت وحرّفت ، ونكّرت وعرفت ، وسطرت هجواً وشتماً ، وخلّدت عاراً وذماً"(٣) .

أما في المرحلة الرابعة فيرتب الكاتب حيلة على السيف من القلم ، بعد تهديد السيف له بسطوته وشدته(٤) ، ثم تبدأ حدة اللهجة في المفاخرة تتضاءل بعد هذا اللين من القلم ، وتُعتبر هذه الملاطفة بداية النهاية في الرسالة ، أجرى ابن نُباتة على لسان القلم قولاً لطيفاً بعد أن كال للسيف من السباب والشتائم ما أغاظه فدفعه إلى التهديد ، ومن قول القلم ملاطفةً :"أيها المتلهّب في قدحه ، والخارج عما يُنسب إليه من صفحة ، ما هذه الزيادة في السباب ، والتطفيف في كيْل الجواب ، وأين علم الشيوخ عند جهْل الشباب ، أما كان الأحسن بك أن تترك هذا الرفث ،...، وتحلم كما زعمت أنك السيد ،...، أما تعلم أني مُعينك في تشييد الممالك ، ورفيقك فيما تسلكه لنفعها من المسالك"(٥) . وقد يُفهم من هذه السطور تفضيل ابن نُباتة للسيف ، غير أن الرسالتين انتهتا بغير حكم ، بل ترك الكاتبان الحكم للمطّلع بعد أن يأخذ بحجج كل طرف .

ومن المناظرات مناظرة طريفة بين القلب والعين كتبها ابن قيّم الجوزيّة ، وتظهر قراءتها أنها وعظيّة ، يسوق فيها حديثاً عن أثر الهوى في نفس العشّاق ، وما يُصيب العاشق من حسْرة وأرق ، وكيف تتواجد الجوارح وتتلاوم ، ويُلقي كل

---

(١) سورة البقرة : ٢٧ .
(٢) المقصود حرف العلّة في (سيْف) .
(٣) ديوان ابن الوردي : ٨٢ - ٨٣ ، وانظر نظيره في خزانة الأدب وغاية الأرب ١ : ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٤) خزانة الأدب ١ : ٢٣٧ ، وانظر ديوان ابن الوردي : ٨٣ .
(٥) نفسه ١ : ٢٣٨ .

بالملائمة على الآخر ، ويورد في سياق ذلك آيات كريمة وأحاديث شريفة مما يدعو إلى التعفف وصيانة النفس عن الوقوع تحت رحمة الشهوات .

وقد مهّد ابن قيّم الجوزية لهذه المناظرة بقوله :"لما كانت العين رائداً ، والقلب باعثاً وطالباً ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذا له لذة الظفر ، كانا في الهوى شريكي عنان . ولما وقعا في العناء ، واشتركا في البلاء ، أقبل كل منهما يلوم صاحبه ويُعاتبه" .

ثم أقام القلب يحاور العين ويُعاتبها ، ويلومها على ما سبّبته له من حرقة وحسرة ، ذلك بأنها ترتاد مواضع الحُسن ، وتتعلق بأذيال الحسان . قال :"أنتِ التي سقتِني إلى موارد المهلكات ، وأوقعتني في الحسرات بمتابعتك اللحظات ، ونزّهت طرفك في تلك الرياض ، وطلبت الشفاء من الحدق المراض" .

وبعد أن ساق بعض الآيات والأحاديث في النّهي عن النظر ، والأمر بغضّ البصر ، سيطرت عليه روح الوعظ والنّصح ، فبدا حديث ابن قيّم الجوزية حديثاً مباشراً ، ومؤدى ذلك النصح هو التعفف في النظر والقول . قال :"فمن الملسوم سوى من رمى صاحبه بالسهم المسموم ؟ أو ما علمتِ أنه ليس شيء أضر على الإنسان من العين واللسان ؟ فما عطب أكثر من عطب إلا بهما ، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما ، لله كم من مورد هلكة أورداه ، ومصدر ردى عنه أصدراه ، فمن أحب أن يحيا سعيداً ، أو يعيش حميداً ، فليغُضّ من عِنان طرفه ولسانه ليسلم من الضرر ، فإنه كامنٌ في فضول الكلام وفضول النظر"(١) .

وما أن أنهى القلب عتابه ، والكاتب وعظه ، حتى وقفت العين تجادل وتنافح ، فردت كيد القلب إلى نحره ، وأعادت دعواه عليه ، فدحضت حججه ، وأبانت عوجه ، وتحريفه في القول ، فنسبت الهوى إليه ، وأنه باعثها لتجول باحثة عن الحسن ، فهو الحقيق باللوم . قالت: "ظلمتَني أولا وآخرا ، وبؤت بإثمي باطنا وظاهرا ، وما أنا إلا رسولك الداعي ، ورائدك الدال عليك ،... فأنت الملك المطاع ، ونحن

---

(١) روضة المحبّين ونزهة المشتاقين ، ابن قيّم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ م : ١٠٦ - ١٠٧ .

الجنود والاتباع ، أركبتني في حاجتك خيل البريد ، ثم أقبلت علي بالتهديد والوعيد ، فلو أمرتني أن أغلق علي بابي ، وأرخي علي حجابي ، لسمعت وأطعت"(١) .

وسار ابن قيّم الجوزية في حديث العين مسيره في حديث القلب ؛ إذ ذكر بعض الايات والاحاديث التي تعد القلب أساساً في سلوك الإنسان المسلم ، ثم أقبل يعظ ، مركّزاً على أن امتلاء القلب بحب الله يملك عليه إحساسه ، ويصرفه عن حب سواه . قال مشيراً إلى آثار حب الله :"وأصل بليّتك أنه خلا منك حب الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته ، وأقبلت على غيره وأعرضت عنه ،...، فكيف بمن استبدل بمحبّة خالقه وفاطره ، ووليّه ومالك أمره ، الذي لاصلاح له ولافلاح ، ولا نعيم ولاسرور ، ولافرحة ولانجاة ، إلا بأن يوحده في الحب ، ويكون أحب إليه من سواه ،...، فلو أقبلت عليه ، وأعرضت عمّن سواه لرأيت العجائب ، ولأمنت من المتالف والمعاطب ، أوما علمت أنه خص بالفوز والنعيم ، من أتاه بقلبٍ سليم"(٢) .

وحكّم الكاتب في هذه المناظرة بين الخصمين الكبدَ ، فهي الحرّى التي تتقطع في العشق ألـمـا ، فادّعت عليهما بأنهما تعاونا على إيذائها ، ثم حكمت بأنهما شريكان في البليّة ، فالعين تلتذّ بالرؤية ، والقلب يدفعها بتمنّيه وتشهّيه ، ثم تركت الحكم ، بعد أن حكمت مبدئياً باشتراكها في المعصية ، للّه سبحانه(٣) .

- النقد والتهكم

وتكشف هذه الرسائل عن علاقات الأدباء بعضهم ببعض في بعض جوانبها ، وبولاة الأمر ، وهو جانب طريف لا ريب ، إذ إن ما عودنا عليه أدباء هذا العصر من التملق والمديح المبالغ فيه كاد يطغى على إنتاجهم من الرسائل .

وأهم هذه الرسائل رسالة "الحرّاقة للخرقة" في ذم القاضي الرياحي(٤) ، وهي

(١) روضة المحبين : ١٠٧ - ١٠٨ .
(٢) نفسه : ١٠٩ .
(٣) نفسه : ١١٠ - ١١١ . وانظر مفاخرة بين قوسين في كتاب الفروسية لابن قيم الجوزية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٧م : ١١٧ - ١٢٠ .
(٤) شهاب الدين أحمد بن الرياحي ، أول قاض مالكيّ استقضي في حلب عام ٧٤٨ (انظر تتمة المختصر ٢ : ٤٩٠) .

من إنشاء ابن الوردي ؛ ذلك لأنها تمثل موقفاً جريئاً من السلطة ، فالقاضي يُعين من قبل الدولة ، وقد كتبها ابن الوردي عام ٧٤٩ هـ ، إذ يذكر أن القاضي أسقط تسعة من الشهود اتهاماً بالزور ، وذكر ذلك في تاريخه عام ٧٤٩ هـ(١) .

وإذا كان ابن الوردي قد صدر في رسالته هذه عن حس صادق ، ورغبة في رفع ظلم القاضي الرياحي والحد من تجاوزاته ، فإن في رسالته ما يدل على أنه كان يطمح إلى تولي ذلك المنصب . قال مخاطباً الرياحي: "هذا وقد أعلمتك أنني لو رضيت الولاية تقدّمتك"(٢) .

قال يصف رسالته ، ويبين سبب إنشائها :"إن نصيحة أولياء الأمر تلزم ، والتنبيه على مصالح العباد قبل عموم الفساد أحزم" ، "وهذه رسالة أخلصت فيها النية ، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعية ، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين ، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السمين ، لكن جنّبتها فُحش القول إذ لست من أهله ، وخلدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله ، ورجوت بها الثواب ، وتحريت فيها الصدق والصواب ، نصرةً للمظلوم ، وغيْرةً على حملة العلوم"(٣) .

ويبدو أن السبب الأول في إسقاط القاضي للشهود التسعة أنه أخبرهم عندما جاء إلى حلب قاضياً أن الأمير قرابغا(٤) الدوادار أعطاه مبلغاً من المال ليشتري له به في حلب عقاراً ، فلما مات الأمير أكل القاضي المال وأنكره ، وخاف من أولئك أن يكشفوا الأمر فلاحقهم ، وعمل على تشويه سمعتهم ، والطعن في عدالتهم . قال ابن الوردي يصوّر ظلمه لهم :"أسقط التسعة قهراً ، ونادى عليهم جهراً ، وشاور على تطويفهم في الأسواق والجوامع ، لولا أن منعه من ذلك مانع ، هذا من غير إحضار لهم ولا إعذار ، ولاتقديم دعوى ولا إنذار ، ولا بظلم متظلم ، ولابكلمة من متكلم ، إلا سطوة وغلوّا ، واستكباراً في الأرض وعلوّا ، وخوفاً

---

(١) تتمة المختصر ٢ : ٥٠٠ ، وانظر ديوانه : ١٥٥ .
(٢) ديوانه : ١٧٢ .
(٣) ديوانه : ١٥٤ - ١٥٥ .
(٤) كان يعمل دواداراً عند نائب دمشق ، وتقدم عنده حتى كان لايخالف له أمراً ، مات في الطاعون عام ٧٤٩ هـ (انظر الدرر الكامنة ٣:٣٢٩).

على الدرهم والدينار"(١) .

وقد أفاض ابن الوردي في ذم الرياحي ، وعدد ما استطاع من معايبه من : جهل ، ووقاحة ، وجرأة على الدين وتشهير بأفاضل الناس ، وكذب ، وإسقاط شهود ، وتقريب لأراذل القوم من الفسقة ، وتحريض للنائب على من يكره . قال يصور ذلك :"قاضٍ سلب الهجوع ، وسكب الدموع ، وأخاف السرب ، وكدر الشرب ، بجرأته التي طمّت وطمّت ، وعاميّته التي عمت وعمّت ، وفتنته التي بلغت الفراقد ، وأسهرت ألف راقد ، ووقاحته التي أدهشت الألباب ، وأخافت النطف في الأصلاب ، فكم لطّخ من زاهد ، وكم أسقط من شاهد ، وكم أرعب بريّا ، وكم قرب جريّا ، وكم سعى في تكفير سليم . وكم عاقب بعذاب اليم ،وكم قلب ذائب ، بنائبة توسط بها عند النائب"(٢) .

ولم تقف جرأته عند هذا الحد فقط ، بل تجاوزت ذلك حتى طال انتقاده الحكام بمصر ، وذكرهم بأن أفعال الموظفين محسوبة عليهم ، وهم مسؤولون عنها ، ويشير بلفتة لطيفة إلى أثر المنصب في متولّيه ، ويصور المنصب بأنه البرق الخلّب . قال :"هذا مالكيٌ متعصب ، قد أسكره الدهر والمنصب ، فلا يفرق بين الارض والسّما ، ولايعرف عموم الخاصة من خصوص العمى ، حركاته وسكناته مكتوبة عليكم ، ولاندري : أنشكوكم إلى الدهر ، أم نشكو الدهر إليكم"(٣) .

ويصور ابن الوردي وقوف الناس بحلب ضد الرياحي ، وانفضاضهم عن مجلسه ، واستصغارهم له بسبب أفعاله ، وأثر ذلك في القاضي قائلاً : "لما رأى خُلُوّ مجلسه ، وقلّة مؤنسه ، وانقطاع الأعيان عن داره ، وإهمال الكافة له لصغر مقداره ، قال له رأيه الفاسد :إلى متى أنت مهجور كاسد ؟ فازدجرْ وانتهرْ ، وقبّحْ حتى تشتهر ، فآذى وناوا ، وجرح وما داوى ، فطفر الناس عليه بهذه الطفرة ، وما زادهم إلا نفرة"(٤) .

وتعرض الرسالة صراحةً ما كان يبذله بعض الأفراد من الرشاوى في سبيل الحصول

---

(١) ديوانه : ١٥٦ .
(٢) نفسه : ١٥٥ ، وانظر : ١٥٧ - ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ .
(٣) نفسه : ١٦٢ .
(٤) نفسه : ١٦٦ .

على المناصب ، وأن الرياحي ما وصل إلى منصبه ذاك إلا بدفع الرشوة ، وبعد توليه التف حوله جماعة سوء من الموظفين أمثاله ، فترفع عن الناس ، وأخذ يجمع المال من الرشاوى ويكنزه ، ونسي ما كانت حاله قبل استقضائه . قال ابن الوردي :"نسي جلوسه في السوق ، وأصبح يُثبت الفسوق ، نُقل من الذراع والمقص ، إلى هذا المنصب الأخص ، والله لقد هَزُلت ، فسُحقا للدنانير وما فعلت"(١) .

وطالب ابن الوردي ولاة الأمر بمصر أن يسارعوا في عزل الرياحي بنبْرة فيها شيء من التهديد والتقريع بقوله :"فإن شئتم يا نُظّام الدولة أن يقوم وزن هذه البلاد ، فكونوا في عروض عزله أسباباً تدْع(٢) لكم الأوتاد" ، وكرر التهديد المبطّن بقوله :"فذبّوا عن مهوة الشّهبا ، ولبّوا فيها دعوة الألبّا ، قبل أن يُطوى الجبل ، ويُعقر الجمل"(٣) .

---

(١) ديوانه : ١٧٠ - ١٧١ .
(٢) في الأصل (تدعو) .
(٣) ديوانه : ١٧٤ - ١٧٥ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ٢٧٤ - ٢٨٠ ، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، الصفدي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩م : ٤٠٤ - ٤١٢ .

الفصل الثاني

أثر الغزوين الصليبي والمغولي في الرسالة الفنّية

يُعد عصر المماليك الأول بحقّ عصر مقاومة وجهاد ، وهو من هذه الناحية امتداد لما بدأه الزنكيّون والأيّوبيون ، غير أنه يمتاز بكثرة المتكالبين على الأمّة الإسلامية ؛ إذ واجه المماليك بقايا الصليبيين الذين كانوا قد ثبّتوا لأنفسهم وجوداً قوياً عزّزوه بكثير من القلاع والحصون والموانئ ، ومكنوا لاستعمارهم بأعداد كبيرة من الغزاة . كما واجه المماليك هجمة المغول العاتية التي نكبت الأمة بإسقاط الخلافة ، وهدمت ركناً من أركان الحضارة الإنسانية بما أدت إليه من حرقٍ وإتلاف للكتب والمكتبات .

وتجدر الإشارة إلى أن استمرارية الحروب الصليبية أدت إلى تغيّر في نمط الحياة بمصر والشام على مختلف الأصعدة ، كما وحّدت اهتمامات الأمّة ، فأصبح الشغل الشاغل لها ردّ الغزاة ، والقضاء عليهم ، ووقف زحفهم ، واسترجاع ما بأيديهم من بلاد المسلمين ، وما أن بدأت غزوة المغول حتى ترسّخت هذه التوجهات ، على الرّغم من الذّعر الذي بثّه المغول في النفوس .

وقد تزامنت هذه الأخطار الخارجية مع أخرى داخلية مثل صراع المماليك على السلطة (١) ، وانتشار الأوبئة والمجاعات (٢) ، وفتن بعض الطوائف والجماعات(٣) ، ومؤازرة بعض أهل الذمّة في مصر والشام للأعداء(٤) ، وضعف العلاقة بين الطبقة الحاكمة وبين الرعيّة بسبب الظلم والاضطهاد .

وعلى الرّغم من تلك الأخطار ، فقد احتفظ المسلمون بعناصر البقاء ، ومقوّمات الاستمرار ، كما يبين ذلك جهادهم المستمر لأعدائهم . وسأحاول في هذا الفصل أن أدرس أثر الحروب الصليبية والغزو المغوليّ في الرسالة الفنّية ، ومدى مشاركة الكتّاب في التعبير عن تطلّعات الأمّة .

---

(١) انظر الجوهر الثمين ٢ : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٦ .
(٢) انظر نفسه ٢ : ٧٢ ، ٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٦٠ ، السلوك ٢ : ٧٧٢ ، ٣ : ٥٨ ، ٨١-٨٢ ، ١٩٠ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٩٥ ، ٣١١ .
(٣) انظر كنز الدرر ٩ : ١٧ ، ٤٠ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٣٦ .
(٤) انظر كنز الدرر ٨ : ٥٢ ، ٩ : ٤٤ ، الجوهر الثمين ٢ : ٦٠ ، السلوك ١: ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٨٠ .

الرسائل الجهادية

وهي تلك الرسائل التي أنشئت وكان الجهاد الغرضَ منها ، إمّا حثاً عليه ، أو بشارةً بالنصر ، وإمّا وصفاً لما دار من أحداث في المعارك . وتجدرُ الإشارة إلى أن هذا اللون من الرسائل غلب على الرسائل الديوانية في الفترة الواقعة بين بداية حكم المماليك وبين عام ٧٠٢ هـ ، وهي الفترة التي شهدت كثيراً من المعارك مع الغزاة الصليبيين والمغول . ثم أصبحت الحاجة إليها قليلة .

وقد عُني المماليك عناية شديدة بتنظيم الصفوف ، وإثارة الحميّة في نفوس الجند والرعيّة ، وحشدِ الطاقات للوقوف في وجه الغزاةِ ودحرهم ، كما عُني بعضهم بموضوع الجهادِ وفضائله كالأشرف خليل الذي طلب من القاضي ابن جماعة (١) تأليف كتاب في ذلك(٢) ، ونظراً لأهميّة هذا الموضوع في ذلك العصر كثرت المؤلفات التي تتحدث عنه ، وعن آلاتهِ ، وعَمد المنشئون إلى وصفها في رسائلهم وكتبهم (٣) .

وتجدرُ الإشارة إلى أنّ هذه الرسائل اضطلعت بدور مهم في صراع المسلمين مع الغزاة في عصر المماليك ، إذ كان بعضها يشتمل على أساليب الحرب النفسية من إثارة الهمم ، أو تهديد للعدوّ ، أو السخرية منه .

- الحثّ على الجهاد

وتشتمل هذه المكاتبات على "حمدِ اللهِ تعالى على جميل صُنعهِ في إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة بإظهار الملّة ، وما وعد اللهُ به من نصر أوليائه ،

---

(١) بدر الدين محمد بن إبراهيم ، وُلد بحماة عام ٦٣٩ هـ وسمع على علماء عصره في الفقه والعربية ، ولي القضاء بمصر ودمشق بين عامي ٦٩٠ هـ و ٧٠١ هـ عدّة مرات ، وفي عام ٧٠٢ هـ عين قاضي القضاة بمصر ثم عُزل وأعيد إلى ذلك المنصب عدّة مرات في عهد الناصر إلى أن توفي عام ٧٣٣ هـ (فوات الوفيات ٢ : ٣٥٣ ، الوافي بالوفيات ٢ : ١٨) .

(٢) مستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر في فضل الجهاد ، ابن جماعة ، تحقيق أسامة النقشبندي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، ١٩٨٣ م : ٩٩-١٠٠ .

(٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب السماح في أخبار الرّماح للسيوطي ، تحقيق د. أنور أبوسويلم و د. ماجد الجعافرة ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، ع ٣٧ عام ١٩٨٩م : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٦٤-٢٧٣ .

وخذلان اعدائه"(١) . وعلى المنشئ فيها ان يذكّر المسلمين بدينهم، وبفرض الله الجهادَ على عباده المؤمنين، كما جرت العادة ان يذكّر المجاهدون بما يهوّن عليهم القتالَ من : جزيل الثواب لهم إن خرجوا في سبيل الله فانتصروا او استشهدوا ، والوقوع في المذلّة والصّغار إن هم قعدوا عنه (٢) .

وإذا كُتب عن الملك إلى اهل الثّغور في اوقات حركة العدوّ ، فإنّ الكاتب "يبسطُ القولَ في وصف العزائم وقوّة الهمَم ، وشدّة الحميّة للدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة"، ويحثّهم على التيقّظ ، وعلى ان لا يؤتى الدينُ من قبَلهم ، وعليه ان يُبرز "ذلك في امتن كلام واجلّه ، وامكنه واقربه من القوّة والبسالة، وابعده من الليّن والرّقة ، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى ، واستنزال نصره وتاييده ، ... ، دونَ التصريح بسؤال بطلان حركتهم ، ورجاء تاخيرهم وانتظار العرَضيّات في تخلّفهم ، لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم ، واستشعار الوهن والخوف منهم"(٣) .

قال ابن حبيب يذكر الجهاد وفضائله ، ويحث عليه :" إن الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد ، ونقمته القائمة على اهل الشرك والعناد ، وهو من الفروض الواجبة ، التي لم تزل سهام اصحابه صائبة، فواظبوا على فعله ، ولاتذهبوا عن مذاهبه وسبله ، واطلبوا اعداء الله براً وبحراً ، وقسموا بينهم الفتكات قتلاً واسراً وفاجئوهم بمكروب الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ، وخذوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الربح الثمين"(٤) .

وإثارة الهمم ، شحذ العزائم من اجل ما يعنى به الكاتب ، ولذلك اطالوا في ذكر ما يؤدي إليه في رسائلهم ، قال الشهاب الحلبي في رسالته إلى بعض نواب الثغور :" اصدرناها ومنادي النفير قد اعلن بيا خيل الله اركبي ، ويا ملائكة الرحمن اصحبي ، ويا وفود الظفر والتاييد القربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق

---

(١) صبح الاعشى ٨ : ٢٤٩ .
(٢) نفسه ٨ : ٢٥٠ .
(٣) حسن التوسل : ٣٣٢ - ٣٣٣ .
(٤) صبح الاعشى ٨ : ٢٥٤ .

الركض إلى العدا ، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام ، فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه على المدى ، والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من قرُبها ، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوقت إلى الإرتواء من قلبُها ، والكماة قد زارت كالليوث إذا دنت فرائسها ، والجياد قد مرحت لما عودتها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها"(١) .

وأضاف الشهاب مصوراً الثقة بنصر الله تحقيقاً لوعده لعباده المؤمنين : "والنصر قد أشرقت في الوجود دلائله ، والتأييد قد ظهرت في الوجود مخائله ، وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبات بحسن المآل أوائله ، والألسن باستنزال نصر الله لهجة ، والأرجاء بأرواح القبول أرجة ، والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبتهجة"(٢) .

وسعياً إلى تثبيت الطمأنينة في النفوس ، قد يلجأ الكاتب إلى المقابلة بين جيش المسلمين وبين أعدائهم ، مصوراً أولئك بالاستعداد وحسن الاعتقاد ، والقوة ، ورباطة الجاش ، وأعداءهم بالضعف والذلة والاعتماد على ما بأيديهم من أسلحة ، لا على الشجاعة والثقة بوعد الله ، ذلك بأنهم سيواجهون قوماً أنزل الله سكينته عليهم ، ومن ذلك قول ابن حبيب :".. واطفئوا جمرة الشرذمة الغائظة للإسلام ، ولاتخشوا من جمعهم الآيل إلى التفريق ، وحشدهم الذي هو عما قليل - إن شاء الله تعالى - غريق ، ولاتعبأوا بسفنهم الحربية ، فإن سفنكم الخيول المخلوقة من الرياح ، ولاتنظروا إلى مجاذيفهم الخشبية ، فإن مجاذيفكم السيوف والرماح"(٣) .

وترى الحث على الجهاد في بعض الرسائل التي أنشئت اعتذاراً عن الهزيمة ، أو في إقامة العذر لمن هزم ، وحضه على معاودة القتال ، والأخذ بالثأر من الأعداء ، وهي علاج نفسي ناجع ; إذ إن عنف الإحساس بالهزيمة قد يؤدي بمن هزم إلى التخاذل عن معاودة القتال ،وقد تؤدي مرارتها إن أُحسن توجيهها إلى الثبات ، والرغبة الملحّة في التعويض عنها بنصر ، ولاشك في أن الكاتب لمثل هذه الرسائل

---

(١) حسن التوسل : ٣٣٣ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٢٥٣ .
(٢) نفسه : ٣٣٤ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٢٥٣ .
(٣) صبح الأعشى ٨ : ٢٥٤ .

يجب ان يتوخى الحرص والدقة في تعبيره عن ذلك ، فكثرة التذكير بموقف الانهزام تورث الحسرة والالم والتخاذل(١) .

ومن هذه الرسائل رسالة انشأها الشهاب الحلبي إلى من هزم هو وجيشه ، تتضمن إقامة عذره ، ووصف اجتهاده في المعركة ، ويحثه على معاودة عدوه وطلب ثأره . قال فيها على لسان السلطان بعد أن عرّفه بأنه معذور فيما حدث :" والليث إذا جرح كان أشد لثباته ، وأمد لوثباته ، والموتور لايمطلى بناره ، والثائر لايرهب الإقدام على المنون في طلب ثاره ، والدهر ذو دول"(٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك رسائل فريدة في الحث على الجهاد في هذا العصر ، ومن هذه الرسائل رسالة من ابن تيمية إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون التي أرسلها إليه يحثه على جهاد المغول بعد هزيمة الناصر عام ٦٩٩ هـ ، وعدة رسائل أرسلها بيبرس إلى ملك المغول بَركة خان يحثه فيها على الجهاد ضد هولاكو .

بدأ ابن تيمية رسالته إلى الناصر بحشد من الآيات القرآنية التي تحث على الجهاد ، وتعِد عباد الله بالنصر على أعدائه ، ثم دعا للناصر قائلا :"إلى سلطان المسلمين ، نصر الله به الدين ، وقمع به الكفار والمنافقين ، وأعز به الجند المؤمنين ، وأذلهم به على القوم المفسدين"(٣) .

وعاد ابن تيمية إلى تذكير الناصر بوعد الله بأن ينصر دينه ويتمّ نوره ، ثم حشد مجموعة من الأحاديث الشريفة في فضل الجهاد ، مما يذكر بنصر الله ، ومما وعد به النبي الكريم أمته .

وتجدر الإشارة إلى دقة ابن تيمية في التعبير عن الهزيمة ، حيث جعل منها فتنة كفر الله بها الخطايا ، وسبباً في اجتماع كلمة المسلمين حول ولي أمرهم ، ومحرّكاً لهم ومثيراً لعزماتهم ، وتطهيراً لما في النفوس من الكبر والجهل

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٢٩٧ .
(٢) حسن التوسل : ٣٨٥ ، وانظر : ٣٨٦ - ٣٨٧ .
(٣) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر ، تحقيق صلاح الدين المنجّد ، بيروت ١٩٧٦م : ٩ - ١٠ .

والظلم ، وبها :" انكشف لعامة المسلمين شرقاً وغرباً حقيقة حال هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام وإن تكلموا بالشهادتين ، وعلم من لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبعد عن شرائع الإسلام"(١) .

ولتحقيق ما يصبو إليه ابن تيمية ، وصف للناصر تحرّك الشوق في نفوس المسلمين للجهاد ، وإقبالهم على البذل في سبيل الله ، وإعدادهم العدة لمؤازرة الجيوش الإسلامية ، وفرحهم لما رأوا استعدادات السلطان للجهاد ، واتبع ذلك بالحديث عن واجبات المسلمين من الحكام وغيرهم في جهاد أعدائهم . قال :" فإن الله فرض على المسلمين الجهاد بالأموال والأنفس ، والجهاد واجب على كل مسلم قادر ، ومن لم يقدر أن يجاهد بنفسه ، فعليه أن يجاهد بماله"(٢) .

ويبدو أن سيطرة الفكرة على ذهن ابن تيمية جعلته يكرر المعاني، ويستطرد في الكلام ثم يعود إلى التذكير بفرضية الجهاد ، فقد أورد بعض الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية مرة أخرى ، وهي هذه المرة مما يذكر المسلمين بمصيرهم إن هم قعدوا عن الجهاد ، ثم ذكّر الناصر بقوله :" فمن ترك الجهاد عذبه الله عذاباً أليماً بالذلّ وغيره ، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره ، فإن هذا الدين لمن ذبّ عنه"(٣) .

ويبدو أن في ذلك تهديداً ضمنياً ، وتخويفاً للناصر من عاقبة التخاذل ، ويمكن أن يُعزى سبب تمهيد ابن تيمية لكل ما يريد تذكير الناصر به بالآيات والأحاديث لما تقدم ، فهو لايريد إثارة السلطان عليه ، بل إثارة عزيمته للجهاد ، وهو لايأتي بالكلام من عنده ، بل يستمده من قول الله ورسوله .

وعرض ابن تيمية لكل ما يمكن أن يوطد عزم السلطان على الجهاد ، فذكر أن الجهاد يوحد الأمة فإن تركته تشاغلت ببعضها ، وأن بعض المسلمين من المغول ومن هم تحت سيطرتهم مستعدون للمشاركة في المعركة بالحيلة والخدعة . قال :"ومن نعم

---

(١) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر : ١٢
(٢) نفسه : ١٣ .
(٣) نفسه : ١٤ .

الله على الأمة أنها اجتمعت على ذلك في الشرق والغرب ، حتى إن المؤمنين من أهل المشرق قد تحركت قلوبهم انتظاراً لجنود الله ، وفيهم من نوى أن يخرج مع العدو إذا جمعوا ، ثم إما أن يقفز عنهم ، وإما أن يوقع بهم ، والقلوب السّاعتة محترقة مهتزة لنصر الله ورسوله على القوم المفسدين"(١) .

ثم ذكر للناصر وقوع الخلاف بينّ ملك المغول واخيه وأمه ، ورغبة بعض أمرائهم وقادتهم في الوقوف إلى جانب المسلمين نتيجة سعي بعض الصالحين لذلك ، وعاد مرة أخرى إلى تذكير الناصر بفرضية الجهاد ، وبضرورة استغلال الخلف بينهم . قال : "هناك يكون انتهاز الفرصة ، ولايحل للمسلمين أن ينتظروهم حتى يطأوا بلاد المسلمين كما فعلوا عام أول" ، ففي ذلك مذلة للمسلمين(٢) .

وبعد بعض الآيات والأحاديث والأخبار في الحث على الجهاد، وصف ابن تيمية للملك الناصر خوف المغول من المسلمين ، وما في قلوبهم من الرعب ، وبأن بعضاً منهم اتخذ زي المسلمين لئلا يؤخذوا ، وأبرز فرضيّة الجهاد مركزاً على عقوبة قعود المسلمين عنه ، وأنهم ما هزموا ولاذلوا حين قاموا به ، وأموراً تبشر بالنصر على المغول مثل نبوءة في أحد الكتب القديمة .

والقبل ابن تيمية قبل أن ينهي رسالته يعدد فوائد الحركة في سبيل الله ، وفيها تحقيق الطمأنينة لأهل البلاد حتى يعمروا ويزرعوا ، ومنها أن البلاد التي احتلّها المغول فيها خيرات من حق المسلمين ، ومنها تثبيت المسلمين في بلاد المغول على إسلامهم، وإشعارهم بقوة الإسلام وحمية المسلمين ، وإلا ارتد بعضهم ، ومنها استعادة ما في البلاد التي احتلها المغول من أموال السلطان ، ثم قال :"فإذا كانت عامة القلوب هناك وهنا مع هذا العسكر المنصور ، وقد أقامه الله سبحانه وأيده ،...، وقلوب العدو في غاية الرعب منه ... ، فمن نعمه على المسلمين أن ييسر غزاة ينصر الله بها دينه هنا وهناك ، وما ذلك على الله بعزيز" .

---

(١) رسالة ابن تيمية : ١٤ - ١٥ .
(٢) نفسه : ١٦ .

وانهى رسالته مذكراً بحرمة انتظار العدو حتى يدهم البلاد الإسلامية ، وبوجوب الخروج إليه (١) .

وفي عام ٦٦٠ هـ أرسل الملك الظاهر إلى ملك مغول القفجاق(٢) بركة خان رسالة يحثه فيها على قتال هولاكو ، ويقيم الدليل على أنه يجب عليه قتال التتار ، لأنه تواترت الأخبار بإسلامه ، ويترتب ذلك عليه ولو كانوا أهله ، قال فيه : "وليس الإسلام قولاً باللسان ، والجهاد أحد ما له من الأركان ، وقد تواترت الأخبار بأن هلاون(٣) لأجل زوجته ، وكونها نصرانية ، أقام دين الصليب ، وقدم مراعاة دين زوجته على دينك"(٤) .

- البشارات بالنصر

وهي من "أعظم المكاتبات خطراً ، وأجلها قدراً ، لاشتمالها على إنجاز وعد الله تعالى ، الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين"(٥) ، ويبدو أن السلطان كان إذا بشر أحد موظفي السلطنة بالنصر ، فإنه يطلب منه قراءة تلك البشارة على الأسماع ، وأن يقوم بكتابة مضمونها إلى النيابات لإشهار الخبر ، وإشاعة البهجة (٦) .

ولم يقتصر في إرسال هذه البشارات على داخل السلطنة ، بل كانت تسير إلى ملوك المسلمين ، ومن ذلك رسالة (٧) قطز إلى ملك اليمن بعد انتصاره على المغول عام ٦٥٨ هـ ، وعدة رسائل(٨) من قلاوون وابنه الأشرف خليل إلى اليمن كذلك .

انشأ محيي الدين بن عبدالظاهر رسالة قطز إلى ملك اليمن يبشره فيها بالنصر

---

(١) رسالة ابن تيمية : ١٧ - ٢٠ .
(٢) انظر في ذلك السلوك ١ : ٤٦٥ ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : ٣٥٢ - ٣٥٣ .
(٣) من أسماء هولاكو .
(٤) الروض الزاهر : ٨٨ - ٨٩ ، وانظر : ١٣٩ ، ١٧٠ - ١٧١ ، ٣٧٢ .
(٥) صبح الأعشى ٨ : ٣٧٧ .
(٦) نفسه ٨ : ٣٧٧ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٢ ، عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٤٣ .
(٧) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٦ .
(٨) نفسه ٧ : ٣٩٢ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٦ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٣٢٣ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٤٤ .

العظيم على المغول في معركة عين جالوت ، وقد افتتح محيي الدين هذه الرسالة بالدعاء لملك اليمن ، ثم بشره بالنصر وهنّأه به . قال :"أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، المنصوري ، وأعلى مناره ، وضاعف اقتداره ، نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد ، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين"(١) .

ثم وصف محيي الدين النصر ، ومجّده ، إذ كان أثره في النفوس عظيماً ، ولعظمته صمّ الدهر فلن يسمع بمثله ، وترويه الرواة والسمّار ، وهو يوم أثار فيه المجاهدون بخيولهم غباراً ران على البدر فحجبه . قال :"صدرت هذه التهنئة إليه رواية للصدق عن اليوم المحجل الأغر : (الكامل)

يوم غدا بالنقع فيه يهتدي من ضلّ فيه بأنجم المرّان

ففي أذن الدهر من وقعه صمم ، وفي عرنين البدر من نقعه شمم ، ترفعه رواة الأسل عن الأسنة ، ويسنده مجرّ العوالي عن مجرى الأعنة (٢) .

وبعد أن رفع من شأن النصر وصف محيي الدين ما دار في المعركة من أحداث ، وكيف حزّب التتار الأحزاب ، وتجمعوا قاصدين بلاد المسلمين ، لكنهم مكروا ومكر الله فاذلهم ، وخابت ظنونهم ، فآل الأمر بهم إلى الندم . قال :"أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتار -خذلهم الله تعالى- استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام... فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ، وقد أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ، وعاد كيدهم في نحورهم"(٣) .

ثم وصف محيي الدين جيش المسلمين وثباته ، واستعداده للتضحية في سبيل الله ، فهم واثقون بنصر الله ، مؤمنون إيماناً يثبت في مواقف الصبر والجلاد أقدامهم ، وقال :"هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاثية عقبانها في وكور ظباها ، رابضة آسادها في غيل قناها ، وما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٦ .
(٢) نفسه ٧ : ٣٨٦ ، والمران هي الرماح الصلبة .
(٣) نفسه ٧ : ٣٨٦ - ٣٨٧ .

راسخة ، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخة"(١) .

كما صور ابن عبد الظاهر تصافّ الفريقين قبل المواجهة في المعركة ، وانتقال خبر كل فريق إلى الآخر حتى حل الظلام، وفي سياق ذلك تحدث عن الرهبة التي كانت تملأ نفوس الجنود من غدر التتار ، وظهورهم فجاة ، فناموا وهو أيقاظ ، وظلوا على حالهم حتى ظهور عدوهم . قال :"ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ، واخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضّته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كالأمس ، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات ... إلى أن تراءت العين بالعين"(٢) .

وبعد ذلك وصف محيي الدين المعركة ، وما حل بالمغول من قتل وأسر ، وشجاعة المسلمين في مواجهتهم ، ففلوا حدهم ، وفرقوا جمعهم، ولاحقوهم فلامكان إلا به منهم قتيل ، ودارت الدائرة عليهم حتى كان ما حولهم اصبح سلاحاً تصيبهم جراحه ، فلم يبق منهم أحد . قال : "فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضوا ، ويترك في بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المفاوز دلاصاً ، ومراتع الظبا للظبا عراصاً ، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصاً ، ... ، فلا روضة إلا درع ولاجدول إلا حسام ، ولاغمامة إلا نقع ولاوبل إلا سهام ... ، حتى صار كافور الدين شقيقاً ، وتلوّن الحصباء من الدماء عقيقاً ... ، وقتل من المشركين كل جبار عنيد "(٣) .

ومن رسائل البشارات البارعة ، تلك التي انشأها شهاب الدين محمود الحلبي بفتح المرقب(٤) عام ٦٨٤ هـ ، وأرسلها إلى الملك الصالح علي بن قلاوون وليّ عهد ابيه ، بدأها الشهاب بالدعاء لعليّ بدعاءٍ مناسب لمضمون الرسالة . قال : " لازالت آيات النصر تُتلى على سمعه من صحف البشائر ، ونفائس الظفر تُجلى على

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٧ .
(٢) نفسه ٧ : ٣٨٧ .
(٣) نفسه ٧ : ٣٨٨ .
(٤) قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (معجم البلدان ٥ : ١٠٨) ، وكان صلاح الدين الأيوبي قد حاول فتحه بعد حطين فلم يتمكن ، والحصن الآن في سوريا قرب بانياس ، ومازالت آثاره وقلعته قائمة إلى الآن (المعالم الأثرية ٢ : ٢٩٢ - ٢٩٥) .

سره في أحسن طالع ، وأيمن طائر ، وفواتح الفتح تملى لديه بما تزهو به الأسرة ، وتزهر بنوره المنابر" .

وبعد الدعاء له ذكر الشهاب ما كان من حال النصر على الصليبيين في المرقب ، وما أدى إليه النصر عليهم من فرح وسرور للمسلمين ، وذلة وانكسار لعدوهم ، وكيف كان هذا الفتح سبباً في قوة الإسلام وأهليه ، وأنه فتح أعان الله فيه المؤمنين بملائكة من عنده فهو قرين لنصر المسلمين في بدر عظمة وأثرا . قال الشهاب : "ويعنهي أنه سطرها والنصر قد لمعت بوارقه ، ونصب بعد النصب على مفرق الفرقد سرادقه ، والظفر قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، .... والإسلام وقد وطئ هام الكفر بقدمه ، والدين وقد عز بفتكات سيفه فأنف أن يكون الشرك من خدمه ..... والأملاك وقد نزلت لتشهد أخت النصرة البدرية في صفوفها ومواكبها ، وحصن المرقب وقد ألقت عليه الملة الإسلامية شعار سعدها"(١) .

وقد لجأ الشهاب لتحقيق الأثر السعيد في النفوس إلى التهويل في أمر هذا الحصن ، حتى يجعل من أمر فتحه معجزة أنعم الله بها على القائد قلاوون ، فهو حصن تحامت قصده الملوك لمنعته ، ولم يخطر في بال أحدهم أنه يمكن فتحه ، ومن حاول خاب ظنه ، ويقع في قمة جبل شامخ تحيط به جبال شاهقة ، وحوله خنادق وأودية سحيقة من هبطها لا خروج له(٢) .

وبعد إطناب في وصف منعته وعلوه ، انتقل الشهاب إلى وصف ما قام به جيش المسلمين من أساليب القتال لفتحه بعد أن فوجئت الجنود بماله من حصانة ، وكان أول تلك الأساليب نصب المجانيق ؛ السلاح الناجع في معالجة الأسوار والأبراج ، ثم تبادل الجيشان التقاذف بالحجارة حتى كسرت مجانيق الأعداء ، وعلى الرغم من ثبات العدو ، ومحاولته استبدال ما كسر من مجانيقه ، فإنها أصبحت غير قادرة على المضي . قال :"ولم يكسر لهم منجنيق إلا ونصبوا آخر بمكانه ، ولاقطعت لأحد أصبع إلا وصل الآخر ببنانه ، فظلت تتحارب مثل الكماة ، وتتحامل تحامل الرماة ،

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٨ - ٢٤٩ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ - ٣٩٦ .
(٢) نفسه ٤ : ٢٤٩ - ٢٥٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ .

حتى لقحت وفسحت للرضا مجالاً ، ومالت وميل فيها وكذلك الحرب تكون سجالاً "(١) .

كما وصف الشهاب أسلوب النقابين في معالجة الأسوار لإحداث فتحات فيها ، وما أحدثه ذلك في قلوب الأعداء من رعب أيقنوا معه بالهلاك ، وأدركوا أنه لاسبيل إلى المجالدة لكنهم صبروا . قال: "لكنهم أظهروا الجلد ، وأخفوا ضرام نار الجزع" ، ثم وصف بدء المعركة ، حيث زحفت الجيوش وأحاطت بالسور حصاراً محكماً . قال : "وتدفقت إليهم الجيوش فملأت الأفق ، وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق ، ونهضت إليه مستمدة من عزمات سلطانها ، مستعدة لانتزاع أرواح العدا على يديها من أوطانها"(٢) .

وبعد مزيد من حجارة المجانيق ونيرانها خارت من الحصن قواه ، وانهارت أبراجه ، وتصدعت أسواره ، وانتشرت النار فأتت على ما وصلت إليه ، ثم أخذ الجيش المسلم بمهاجمة من فيه ، ولما رأى الأعداء أنه لاقبل لهم بما أمامهم ، أعلنوا الخضوع ، وبذلوا الطاعة طلباً لعفو السلطان . قال الشهاب يصف ذلهم في تلك اللحظات الرائعة :"وثبت منهم من لم يجد وراءه مجالاً ، فلجأوا إلى الأمان ، وتمسك دنيء كفرهم بعزة الإيمان ، وتشبثوا بساحل العفو حتى ظنوا أنهم أحيط بهم وجاءهم الموت من كل مكان ، وسألونا أن يكونوا لنا من جملة الصنائع ، وتضرعوا في أن نجعل أرواحهم لسيوفنا من جملة الودائع ، فنتصدق عليهم بأرواحهم كرماً ،... ، وأطلقتهم اليد التي لايخيب لديها الأمل ،...، وخرجوا بنفوس قد تجردت حتى من الأجسام ، ومثّل طلقت الكرى خوفاً من الصوارم التي تمثّلها عليهم الأحلام"(٣) .

وقد ختم الشهاب هذه الرسالة مبشراً بما حدث من نصر ، وعمل على زيادة السرور فصور حال الحصن بعد أن علاه شعار الإسلام ، وتحول ما فيه من كنائس إلى مساجد ، وكيف أصبح الأذان يصدر من المآذن بعد قرع الأجراس ، فقال :"سُطّرت والمدينة قد تسنّم أعلاها ، وشعار الإسلام قد جردها من لباس الكفر وأعراها ،

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٠ - ٢٥١ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ .
(٢) نفسه ٤ : ٢٥١ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ - ٣٩٨ .
(٣) نفسه ٤ : ٢٥٢ - ٢٥٣ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٨ .

والأعلام قد سلكت إلى ذلك الحصن أعلى مرقى ، والسعادة قد بدلت بِيَعه مساجد ومحاريبه قِبلة وكانت شرقاً ، فأصبح يرفل في حلل الإيمان ، وأذعن بالطاعة فأخرس جرْسَ الجرَس ِبه صوتُ الأذان"(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل المبشرة بالنصر على المغول تحوي وصف المعركة معهم ، وهي في الأغلب الأعم بطريق المواجهة في أرض المعركة(٢) ، أما المعارك مع الصليبيين فقد غلب عليها أن تكون عن طريق الحصار لقلاعهم وحصونهم(٣) .

رسائل التهديد .

تبادل المسلمون بقيادة المماليك مع أعدائهم رسائل التهديد والوعيد ، وكان الطرف المرسل يزهو بكثرة جيوشه ، وشجاعتهم ، ويحاول أن يدخل في نفس المرسل إليه الفزع والرهبة ، ويدعوه إلى الدخول في طاعته ، والانقياد لما يطلبه منه .

وقد دارت بعض هذه الرسائل بين المماليك والصليبيين ، وبخاصة في عهدي بيبرس وقلاوون اللذيْن بلغ الصراع مع الصليبيين أوجه إبان حكمهما . وقد أثبت المسلمون بقيادة هؤلاء براعة نادرة في التعامل مع الغزاة ، واعتمدوا على المفاجأة ، والحيطة والحذر ، والقدرة على التخطيط ، والسرعة في التنفيذ(٤) .

أرسل الفرنج في عكا عام ٦٦١ هـ رسالة إلى الظاهر بيبرس يتهمونه فيها بنقض الهدنة معهم ، ويهددون المسلمين ويتوعدونهم بالتتار ، وكان بيبرس قد عقد معهم هدنة عام ٦٥٩ هـ من شروطها : أن لا يجدّدوا بناء داخل عكّا وما يتبعها ، غير

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٣ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٨ - ٣٩٩ .
(٢) انظر في ذلك رسائل في : ذيل مرآة الزمان ٤ : ٩٥ ، تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٣ - ٢٢٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦١ - ١٦٤ .
(٣) انظر رسائل من ذلك في صبح الأعشى ٧ : ٣٩٢ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٨ - ٣٤٣ ، ٣٧٥ - ٣٨٤ ، ٤٤٥ - ٤٤٩ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٦-١٦١ ، ٤ : ٢٤٢ - ٢٥٦ .
(٤) العسكرية الإسلامية وقادتها العظام ، بهاء الدين محمد أسعد ، مكتبة المنار ، عمان ١٩٨١م : ١٦٢ - ١٦٥ ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي : ٥٩ .

انّهم خرقوا الهدنة ، وشرعوا في بناء أبراج لتحصين أرسوف(١) ، وادّعوا انّ ذلك لحمايتهم من "صعاليك المسلمين والتتار"(٢) ، وأرسل بيبرس إلى الصليبيّين رسالة تهديد دعاهم فيها إلى إحسان الجيرة ، وكفّ الأذى ، وأوضح في رسالته أن المسلمين لا يخشون التتار ولا غيرهم ، وأكّد أنّه قادر على الوصول إلى قلاعهم ، والاستيلاء عليها متوعّداً بكثرة عساكره (٣) .

ويتّضح من بعض رسائل التهديد التي أرسلها بيبرس إلى الصليبيين فهمُه الصحيح لطبيعة أعدائه ، وتنبّهه إلى ما يحوكونه من مؤامرات للإيقاع بالمسلمين، ومن ذلك ان ملك قبرص وحاكم عكّا احتالا على ملكة بيروت(٤) وجعلاها تترك مملكتها ليستوليا عليها ؛ فيصبحا اقدر على محاربة المماليك ، إذ كان بين الملكة وبين بيبرس مُعاهدات تحفظ بموجبها حدودَ بلاد المسلمين من جهتها ، فأرسل بيبرس يهدّد ملك قبرص قائلاً : "هذه الملكة بيني وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى اودَعها عندَ جاهي ، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادَها ، وفي هذه المرّة ما سيّرت رسولاً ، ولا بدّ من حضورها ، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها ، وإلاّ انا احقّ ببلادِها"(٥) .

ويبدو ان تلك الرسائل كانت تؤتي ثمارَها سريعاً ، ففي عام ٦٦٩ هـ ، أغار بيبرس على طرابلس وناوشها ، فأرسل بيمنْد ملكها إليه مستفسراً : "ما مراد السلطان بهذه الأرض ؟" ، فكان جواب بيبرس : "جئت لأرعى زروعكم ، وأخربَ بلادكم ، ثم اعود إلى حصاركم في العام الآتي" . وقد اوقعت تلك الرسالة في نفس

---

(١) مدينة ساحلية بين قيسارية ويافا ، احتلها الصليبيون عام ٤٩٤ هـ (معجم البلدان ١ : ١٥٣) ، وظلت بأيديهم حتى حررها بيبرس عام ٦٦٣ هـ (ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٨) ، وقد احتلها الصهاينة عام ١٩٤٨م ، وطردوا سكانها وهدموها ، ولم يبق منها سوى جامعها الذي حولوه إلى محطة رادار ، وأقاموا على أنقاضها مستوطنة ، وأطلقوا عليها اسم (ريشف) ، انظر بلدانية فلسطين المحتلة ، أنيس صايغ ، بيروت ١٩٦٨م : ١٦٢ - ١٦٣ .
(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ١١٧-١١٨ ، ١٥٣-١٥٨ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ٥٤ .
(٣) انظر الروض الزاهر : ١٥٣ ، السلوك ١ : ٩٦٥ .
(٤) هي الملكة إيزابيلا ابنة جان دي بلين الثاني ، وقعت معاهدة مع بيبرس عام ٦٦٧هـ ، وكان ملك قبرص يطمعُ في مملكتها ، حكمت بين عامي ٦٦٢هـ و ٦٨٠ هـ (الروض الزاهر : ٣٥٨ ، وانظر صبح الأعشى ١٤: ٤٣ ، ٤٦) .
(٥) تاريخ الدول والملوك ، ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين ، طبعة الجامعة الأمريكية ، بيروت ١٩٤٢م ، ٧ : ٣٥ .

بيمند الخوف والفزع، فأرسل إلى بيبرس يستعطفه ويسترضيه ويطلب مهادنته إلى عشر سنين(١).

ومن هذه الرسائل ، تلك التي أرسلها قلاوون إلى بيمند ملك طرابلس يهدّده ويطلب منه هدْم برج في حصنِ مرقيّة(٢) قائلاً : "إنّ العساكر قد تفرغت ، وما بقي لها إلا أنت ، وهذا البرجُ أنت الذي عمّرته في الحقيقة ، ولولا إعانتك لما بُني ، فأنت المؤاخذ به ، فإما أن يُهدم ، وإلاّ أخذنا قبالته مالا ينفعك في الدفع عنه صاحب مرقيّة ، وتندمُ حيث لا ينفعك النّدم" ، فما كان من الفرنجيّ إلاّ أن نفّذ ، وقد اشترك المسلمون في هدمِه ، فقد أرسل قلاوون فِرقة من النقّابين لذلك الغرض(٣) .

وأوّل ما نقف عليه من رسائل التهديد بين المغول والمماليك ، رسالة شديدة اللهجة أرسلها هولاكو إلى المظفّر قطز ، وقد حشدَ فيها منشئها ما يستطيع من عبارات التهديد والوعيد .

بدأ هولاكو رسالته بتذكير المماليك بكونهم عبيداً هربوا من سيوف المغول ، مدّعياً بأنه وجيشَه جنُد الله يسلّطهم على من يشاء من عباده الظالمين ، كما ذكّرهم بما حلّ بالبلاد التي رفض أهلها النّزول على ما يريده المغول من قتل وتدمير ، زاعماً أنّ ذلك تطهير لتلك البلاد من الفساد . قال : "يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم... أنّا نحن جندُ الله في أرضِه ، خلقنا من سخطه وسلّطنا على من حلّ به غضبه ، فلكم بجميع البلاد مُعتبَر ، وعن عزمنا مزْدجَر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرقّ لمن شكا . وقد سمعتم أنّنا فتحنا البلاد ، وطهّرنا الأرضَ

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١ .
(٢) قلعة حصينة في سواحل حمص قديمة ، كانت خرّبت فجدّد بناءها معاوية بن أبي سفيان ورتّب فيها جنوداً (معجم البلدان ٥ : ١٠٩) وكان صاحب مرقيّة (بَرتُلمَا) هرب إلى بلاد التتار بعد فتح حصن الأكراد على يد بيبرس ، ولمّا مات الظاهر عادَ وبنى هذا البرج بمساعدة الصليبيين المجاورين له (تشريف الأيام والعصور : ٨٧-٨٨ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٣١٦) .
(٣) تشريف الأيام والعصور : ٨٨-٨٩ .

من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب"(١).

وبعد هذه المقدمة خاطب هولاكو قطز محاولاً إدخال الرهبة في نفسه مستعرضاً قوّته ، وقدرته بما يملكه جيشه من عدّة للحرب ، وبما له من جيوش تندفع كالسّيول ، مذكّراً إياه بأنْ لا جدوى من الهرب أو التحصّن . قال : "فأيّ أرضٍ تؤويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تنجّيكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع"(٢) .

والطريف في هذه الرسالة أن هولاكو حاول إدخال الوهن إلى نفوس المسلمين عن طريق الدين ، فادعى أن المماليك لا يمتّون إلى الإسلام بصلة ، فهم لا يتناهون عن منكر ; يحرمون الحلال ، ويحلّون الحرام ، ويسفكون الدماء ، ولا يوفون بالعهود على حدّ زعمه ، وهو بذلك يحاول أن يخفّف من ثقتهم بنصر الله لعباده المؤمنين ، وغير خفيّ أن لذلك ما له من الأثر في المعركة ، وللوصول إلى هذا الأثر حشد الكاتب كثيراً من الآيات القرآنية في سياق رسالته . قال : "دعاؤكم علينا لا ينفع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفّون عند الكلام ، وخنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فابشروا بالمذلّة والهوان ، "فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون"(٣) .

ثم عاد هولاكو إلى التهديد المباشر ، عارضاً على المماليك التسليم له والدّخول في طاعته ، حاضّاً لهم على ذلك بما يوفّره لهم من منع سفكِ دمائهم والتساوي معهم في الحقوق وحسن المعاملة إن أذعنوا . قال :"فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصدَ أماننا سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذّر من

---

(١) السلوك ١ : ٤٢٧ .
(٢) نفسه ١ : ٤٢٨ .
(٣) نفسه ١ : ٤٢٨

أنذر"(١) .

وانهى هولاكو رسالته إلى قطز بتذكيره أن المواجهة لا تفيد ، والقوة لا تنفع ، مطالباً بسرعة ردّ الجواب ، مهدّداً بأنهم إن لم يُذعنوا لمطالبه فليس لهم إلاّ الذلّة والهوان ، وجاء في ختامها بيتان من الشعر فيهما ذات اللهجة ، وقال : "فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا بردّ الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منّا جاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حِرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد انصفناكم إذ راسلناكم ، وايقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم"(٢).

وقد سبّبت هذه الرسالة إرباكاً وتوتّراً في نفوس المماليك ، إذ اجتمعوا وحاولوا الخروج براي واحد ، لكنّ الآراء تضاربت ، ثم اقرّوا قطز على رأيه في ضرورة الخروج إلى القتال ، ووافق قطز على راي بيبرس في امر الرسل فَصَلَبهم(٣) .

ومن رسائل التهديد التي وجهها المغول إلى المماليك ، رسالة ملكهم أبغا(٤) إلى بيبرس بعد ان هزمهم الأخير في وقعة الأبلستين(٥) وقتل منهم عدداً كبيراً ، وكانت رسالة أبغا تشتمل على التعريض بجُبْن بيبرس وخشيته من المواجهة . قال ساخراً : "إنّكم تنقضّون فجأة كاللصوص ، وتطاردون فرساننا وطلائعنا ، وتقتلون بعضهم ، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدّكم تفرّون كاللصوص ، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا ، فادخلوا الميدان كالرجال ،

---

(١) السلوك ١ : ٤٢٨ - ٤٢٩ .
(٢) نفسه ١ : ٤٢٧ - ٤٢٩ .
(٣) جامع التواريخ في تاريخ المغول ، رشيد الدين بن فضل الله الهمذاني ، تعريب محمد نشأت ، ومحمد هنداوي ، وفؤاد الصيّاد ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ١٩٦٠م ج٢ ق١ : ٣١١-٣١٣ .
(٤) هو آباقا خان أو أباقا إيلخان ، وهو ابن هولاكو من سلالة جنكيز خان ، تولّى الملك بعد وفاة هولاكو سنة ٦٦٣هـ ، ويقال : إنّه كان ذا كفاية وعلم ودراية ، توفّي مسموماً عام ٦٨٠ هـ على يد بعض أهله (انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٤٧ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٣٤٨) .
(٥) مدينة كانت ببلاد الروم مشهورة ، قريبة من آبسس التي يزعم أنّها مدينة أصحاب الكهف (معجم البلدان ١ : ٧٥) .

وثبّتوا الأقدام"(١) .

وعلى الرّغم مما في هذه الرسالة من وعيد شديد اللّهجة ، يُتوقّع منه خوف بيبرس ، فإن رده كان أشد وقعاً ، فأرسل إليه يهدده بأنّه سيظل يقاتلهم حتى يحرر جميع ما استولوا عليه من بلاد المسلمين . قال بيبرس : "لا أزال حتى انتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها ، من بلاد الخليفة وسائر اقطار الأرض"(٢) .

ولم تنقطع رسائل التهديد بين الطرفين على الرّغم من إعلان المغول دخولهم في الإسلام عام ٦٨٠ هـ في فترة حكم ملكهم أحمد(٣)، فبعدَ إسلامه أرسل الملك احمد رسالة تهديد ووعيد إلى قلاوون ، وعلى الرّغم من أنّ فيها دعوةً إلى الصّلح ونبذ الخلافات(٤) ، فإن نزعة الاستعلاء والغرور تطبع الرسالةَ بطابعٍ غير طابع الصّلح والرغبة في المسالمة .

بدأ الملك أحمد رسالته بإخبار قلاوون باعتناقه الإسلام ، وادّعى أنّ ما يسعى إليه ، وما سعى إليه آباؤه ، هو نُصرة دين الإسلام ورفع كلمة الله ، ثم ذكر ما كان من اجتماع كبار قادة المغول بعد تملّكه ، وإجماعهم على ضرورة حشدِ الجيوش لغزو المماليك ، وهو تهديد مُبطّن ، وإن كان احمد قد اخبر قلاوون بعدم موافقته على رأيهم بقوله : "فاجتمع عندنا ... جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ... واتّفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في إنفاذ الجمّ الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرضُ برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرضُ رُعباً لعظيم صولتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة..."(٥) .

وبعد أن ذكر الملك احمد دواعي عدم موافقته على إرسال الجيوش لحرب

---

(١) جامع التواريخ ج٢ ق٢ : ٦٣ .
(٢) البداية والنهاية ١٣ : ٣٢٤ .
(٣) اسمه في الأصل تكدار ، وقد اتّخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام في بدء سلطنته ، وهو الذي خلف ابغا على مملكة المغول واغتاله ابن اخيه أرغون عام ٦٨٣ هـ (انظر في دخول المغول الإسلام تشريف الأيام والعصور : ١-٤ ، البداية والنهاية ١٣: ٣٤٧) ، وفي ترجمته انظر تشريف الأيام والعصور : ٦١-٦٥ .
(٤) تشريف الأيام والعصور : ٨ ، ٩ .
(٥) نفسه : ٧ .

المماليك ، من رغبة في انتظام الصّلح ، وتسكين الفتن ، وحرص على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، عاود التهديد مرّة أخرى .قال : "إننا لا نحبّ المسارعة إلى هزّ النصال للنّضال ، إلا بعد إيضاح المحجّة ، ولا نأذن لها إلاّ بعد تبيين الحقّ وتركيب الحجّة"(١) .

وأفاض في رسالته في توضيح صدق نيّته ، وصحّة طويّته ، وأطلع قلاوون على ما قام به مما يثبت ذلك ، من إقامة شعائر الدين ، وإصلاح أحوال المسلمين ، وعدم التطرّق لأموالهم ، ورعاية للصالحين والفقراء ، والاهتمام بإقامة المساجد ، ومنع عساكره من التطرّق لبلاد المسلمين المجاورة ، وأبلغ قلاوون ان عسكره قبض على جاسوس للمماليك فأطلقه لحرمة دم المؤمن ، لكنّه اتبع ذلك كلّه بتهديد سافر طلبَ فيه من قلاوون بذْل الطاعة ، وهدّده بما قد يحدث لو لم ينزل على أمره ، قال : "فإن وفّق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام امور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسّك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتّحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمرُ تلك الممالك والبلاد ، ... ، وتخلصُ رقاب المسلمين من أغلال الذّلّ والهون ، وإن غلب سوء الظنّ بما تفضّل به واهب الرحمة ،... فقد شكر الله مساعينا ، وأبلى عذرنا ، (وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا)"(٢) .

وقد ردّ قلاوون على هذه الرسالة برسالةٍ انشأها محيي الدين ابن عبد الظاهر ، وهي بحقّ دالّة على حنكة سياسية عالية ، حيث ردّ فيها على كل فقرةٍ من فقرات الرسالة المتقدّمة آنفاً ، ودحض فيها مزاعم الملك أحمد ، وجادله حيث احتاج إلى ذلك ، ولاطفه في موضع الملاطفة ، وهدّده في موطن التهديد ، ووافقه على دعوته إلى مدّ جسور الاتّحادِ ونبذ الخلافات(٣) .

---

(١) تشريف الأيام والعصور : ٧ .
(٢) تشريف الأيام والعصور : ٩-١٠ وانظر نصّ الرسالة في السلوك ١: ٩٧٧-٩٨٤ ، والآية من سورة الإسراء : ١٥ .
(٣) الرسالة في المصدر نفسه : ١٠-١٦ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٥٧-٢٦٣ ، النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ابن أبي الفضائل ، طبعة باريس ١٩٣٢م : ٥١٠-٥١٥ .

بدأ ابن عبد الظاهر الرسالة بذكر رسالة الملك أحمد واصفاً ما اشتمل عليه خطابه من إعلان إسلامه بالنبأ العظيم ، وأعلمه بما لاقته رسالته من ترحيب واستقبال ، وما أحدثه خبر اعتناقه للإسلام من فرحة في النفوس ، ووصف انتقال الملك إليه بأنه اصطفاء" من الله له لما هو عليه من تقوى ، وبأن ذلك تحقيق لبشرى قال بها أولياء الله المقرّبون(١) .

وكان ردّ قلاوون على تهديدات الملك أحمد بجيوشه الكثيرة ، وعلى رفضه آراء قومه من ضرورة الإسراع في قتال المماليك ردّاً لبقاً ، حيث فسّر ابن عبد الظاهر ذلك بأنّه خوف وتخاذل ، وبأنّه لم يكن نتيجة خوفه وحرصه على دماء المسلمين ورغبته في الاتّحاد ، بل كان رهبةً من عواقبه الوخيمة عليه وعلى قومه . قال محيي الدين: "... وأنّه اطفأ تلك النائرة ، وسكن تلك الثائرة ، فهذا فعل الملك المتّقي ، المشفق من قومه على من بقي ، المفكّر في العواقب ، بالرأي الثاقب ، وإلاّ فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرّة ، لكانت تكون هذه الكرّة هي الكرّة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضلّ ولا فعل من غوى"(٢) .

وفي سياق الرسالة نبّه قلاوون الملك أحمد إلى أسبقيّة المماليك في الإسلام ، وأنّ ذلك يعطيهم ميزةً عليه وعلى قومه ، وأشار إلى أن إقامة شعائر الإسلام من واجبات الملك المسلم منبّهاً الملك احمد بانه لا يجوز له التفاخر بذلك ، بل طالبه باكثر مما قام به ، ووافقه على ضرورة فتح أبواب الاتّحاد ونبذ الخلافات ، ثم ردّ على استشهاده بالآية الكريمة : "وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً" ، بقوله : "وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى ... ، فما على هذا النسق من الودّ ينتسج ، ولا على هذا السبيل يُنهج ، بل لفضل المتقدّم في الدين ونصره عهود ترعى ، ... ، ولو تامل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروّى وتامّل" (٣) .

---

(١) تشريف الأيام والعصور : ١١ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٥٩ ، النهج السديد : ٥١٢ .
(٢) تشريف الأيام والعصور : ١١-١٢ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٥٩-٢٦٠ ، النهج السديد : ٥١٢-٥١٣ .
(٣) تشريف الأيام والعصور : ١٥ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٦٢ ، النهج السديد : ٥١٣ .

وهدد قلاوون ملك المغول في أنحاء مختلفة من الرسالة ، والملاحظ على تهديداته أنها كانت غير مباشرة ، بل فيها نوع من التلميح والإشارة مثل قوله : "...ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، وإذلال عدوّنا وإعزاز مصافينا" ، وقال في موضع آخر : "إذا كفّ العدوان ، وترك المسلمين وما لهم من ممالك ، سكنت الدهماء ، وحقنت الدّماء ، وما أحقّه بأن لا ينهى عن خلقٍ ويأتي مثله"(١) .

وأكثر جوانب ردّ قلاوون على رسالة الملك أحمد لباقةً وحنكةً كان ردّه على طلبه تحديد موعد ومكان للقاء الجيوش ، حيث تهرّب قلاوون من ذلك تهرّب القادر ، والرّاغب في تحقيق المصالحة وحقن دماء المسلمين ، والسّياسيّ الذي يستغلّ الفرصة حين ظهورها وإمكان تحقيقها ، فلم يظهر في ردّه خوفاً ، ولا حنقاً ، بل أظهر رغبته في تحقيق الصلح ، وإرساء أواصر الودّ ، فقال : "ومن المشافهة أنّه إن حصل التصميم على ألاّ تبطل هذه الغارات ، ولا تفتر هذه الإشارات فيتعين مكاناً يكون فيه اللقاء ، ويعطي الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتّفق فيها ملتقى الجمعين مرةً ومرةً ، قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم ، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم ، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدّر ، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدره لا لمن قدّر"(٢).

وقد أدّت هذه الرسالة إلى تحسين العلاقة بين قلاوون والملك أحمد ، حيث أرسل الأخير وفداً إلى قلاوون لعقد الصّلح عام ٦٨٢هـ(٣) .

واستمرّت لغة التهديد والوعيد بين المماليك والمغول على الرّغم من إعلان هؤلاء للإسلام ، ويبدو أن إعلانهم للإسلام كان خدعة منهم كما ذكر ابن عبد الظاهر(٤) .

---

(١) تشريف الأيام والعصور: ١٦ ، صبح الأعشى ٧: ٢٦٣ ، النهج السديد : ٥١٣-٥١٤ .
(٢) نفسه : ١٦ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٦٤ ، النهج السديد : ٥١٥ .
(٣) انظر تشريف الأيام والعصور : ٧٠ .
(٤) نفسه : ٤ ، وانظر رسائل تهديد أخرى في كنز الدرر ٩ : ٥٣ - ٥٦، السلوك ١ : ١٠١٨ - ١٠٢٣ ، النجوم الزاهرة ٨: ١٤٣- ١٤٦ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٦٦ - ٢٧٢ ، ٨ : ٦٩ - ٧١ .

ويبدو أنّ هذه الرسائل كانت ترسل إلى أحلاف العدوّ لتحييده ، وإخراجه من دائرة الصراع ، فبعد معركة مرج الصفّر عام ٧٠٢ هـ ، وانتصار المماليك فيها على المغول ، أرسل الملك الناصر ، رسالة توبيخ وتهديد إلى متملك سيس(١) الأرمنيّ ، حيث كان يقف إلى جانب المغول في تلك المعركة ، وهي من إنشاء شهاب الدين محمود الحلبيّ .

بدأ الشهاب الحلبيّ هذه الرسالة بدعاء ساخر له ، قال فيه : "بصّره الله رشده ، وأراه مواقع غيّه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده ، وأسلاه بسلامة نفسه عمّن روّعته السيوف الإسلامية بفقده" (٢) .

ثم انتقل إلى وصف المعركة ، وما حلّ بالعدو المغولي من قتل وأسرٍ مذكراً الملك الأرمنيّ بخداع المغول ونواياهم السيئة ، وأنّهم خدعوه ووعدوه بمعسول الأمانيّ ، وبصّره بحال الجيوش الإسلامية في النصر على المغول في كل مواجهة ، محاولاً أن يحيّده ويرجعه عن الوقوف إلى جانبهم ، وبعد توبيخ عنيف له ، حاول استمالته بتذكيره بحسن معاملة المماليك له ولآبائه ورعيّته ، ثم قال مهدّداً : "ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسى ملازمة ربقة الحتف خناقه ، ولا يرجع يورد نفسه في موارد الهلاك ، وهل يرجع إلى الموت من ذاقه ؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه ، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبتذل السيوف الإسلامية مصونه ، ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا تقبل ، ويتمسّك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تمسك"(٣) .

وبعد أن ذكّره بغدر غازان(٤) ، وحاول استمالته بمزيد من الوعود الحسنة قال مهدّداً : "والسيوف الآنَ مصغية إلى جوابه ؛ لتكفّ إن أبصر سبيل الرشاد ، أو تتعوّض برؤوس حماته وكماته عن الأغماد إن أصرّ على العناد" (٥) .

---

(١) كانت عاصمة مملكة الأرمن (أرمينيا الصغرى) ، وهي الآن إحدى مدن تركيا في الجنوب منها . أطلق عليها ياقوت سيسيّة ، وقال : "بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين انطاكية وطرسوس" (معجم البلدان ٣: ٢٩٧) .
(٢) صبح الأعشى ٨ : ٢٥٩ .
(٣) نفسه ٨ : ٢٦٠-٢٦١ .
(٤) ملك المغول ، وهو ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، تولى الملك عام ٦٩٤ هـ ، وكان بوذياً ثم أسلم . ظل ملكاً على المغول حتى وفاته كمداً عام ٧٠٣ هـ بعد معركة مرج الصفّر (فوات الوفيات ٤: ٩٧) .
(٥) صبح الأعشى ٨ : ٢٦٢ .

- السخرية من العدو

وهذا اللون من الرسائل يعد من أكثر أساليب الحرب النفسية تأثيراً ، وأشدها وقعاً في نفوس الأعداء ، فهي تشتمل على وصف هزيمته ، وما أصاب جنوده ورعيته من قتل وأسر وسبي ، وما حل بأمواله وممتلكاته من نهب وسلب وحرق وهدم ، وفي ذلك "إيلام خاطره ، وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله"(١) . ومن هذه الرسائل ما يحتوي على استهزاء بالعدو المنتصر ، ويسعى فيها الكاتب إلى التقليل من شأن الهزيمة على قومه ، ومن شأن النصر لدى أعدائه .

وعلى رأس هذه الرسائل تلك التي وجهها الظاهر بيبرس إلى ملك طرابلس بيمند الصليبي ، وذلك بعد تحرير الظاهر لأنطاكية واستنقاذها من أيدي الصليبيين عام ٦٦٦هـ ، وهي من إنشاء محيي الدين ابن عبد الظاهر . وقد كان بيمند شديد الأذى للمسلمين ، وكان أسر منهم خلقاً عندما استولى المغول على بلاد الشام عام ٦٥٨هـ (٢) .

بهذا الفتح العظيم أرسل بيبرس إلى بيمند رسالة بليغة ، بدأها ابن عبد الظاهر بالحط من رتبة الملك الصليبي لأنه فقد ركناً من أركان مملكته ، وصوره فاقداً لصوابه ، فدعا له بالرشد والسداد في سخرية شديدة ، واستهزاء مؤثر . قال : "قد علم القومص الجليل... المنتقلة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البرنسية إلى القومصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده ..."(٣) .

وكان الظاهر قد أغار على أطراف طرابلس قبل غزو أنطاكية ، ولذلك وصف ابن عبد الظاهر ما كان أحدثه جيش المماليك بطرابلس من قتل وأسر ونهب وحرق ، وسخر فيها من بيمند حيث ذكره بمذلته حين غزاه بيبرس في عقر داره ولم يستطع الدفع عن نفسه وعن أهل مملكته ، وفي ذلك من التقريع ما فيه . قال محيي الدين في رسالته

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٠٤ .
(٢) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٢ .
(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٠٩ ، صبح الأعشى ٨ : ٢٩٩ ، والسلوك ١ : ٩٦٦ .

تلك : "قد علم القومص ... ما كان . من قصدنا طرابلس ، وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر ، وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار"(١) .

ثم شرع يذكره بما حلّ بجيشه ورعيّته ، وصور له قتلى الصليبيين وقد تراكمت جيفهم حتى اصبحوا كالجزر ، ثم قطعت الأشجار ونهبوا الأموال وسبوا النساء وغنموا الدّواب ، وما ذلك إلاّ لإثارة الحسرة في نفسه ، وتلا محيي الدين ذلك مصوراً خوف بيمند في ذلك الحين بقوله : "هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً ، قلت فزعاً : عليّ هذا الصوت"(٢) .

وبعد أن ذكّره بما اصاب طرابلس ، شرع في وصف فتح المسلمين لأنطاكية ، وهو يذكر ذلك مؤرخاً له باليوم والشهر ، ويصف ما أحدثه عنصر المفاجأة في نفوس اهلها من الفزع ، وكيف حاولوا الدفاع عنها فلم يستطيعوا ، وأن كبارهم حاولوا التوسّط بين الرّهبان وبين بيبرس ليؤمّن أهلها ، فكان أن رفض الرّهبان النزول عنها . قال : ".. وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك انطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بَعُدنا فسنعود على الأثر ، وها نحن نُعلمك بما تم ، ونفهمك البلاء الذي عم . كان رحيلنا عن طرابلس يوم الأربعاء رابع وعشرين شعبان ، ونزولنا انطاكية في مستهل شهر رمضان ، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة ، فكُسِروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كُنُد اصطبل ، فسال في مراجعة أصحابك ، فدخل المدينة ، فخرج هو وجماعة من رُهبانك ، وأعيان اعيانك ، فتحدّثوا معنا ، فرايناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأنهم رايهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشرّ واحد"(٣) .

وبعد هذا العرض التفصيلي لما دار من احداث ، وجّه ابن عبد الظاهر جلّ اهتمامه لتقريع بيمند ، فاشار إلى انّ أهل انطاكية رفضوا التسليم ظنّاً منهم

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر :٣٠٩ صبح الأعشى ٨ : ٢٩٩ ، السلوك ١ : ٩٦٦ .
(٢) الروض الزاهر : ٣١٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٣٠ ، السلوك ١ : ٩٦٧ .
(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٠-٣١١ .

أن بيمند سينجدهم ، فكان أن خذلهم ، وظلّ قابعاً في حصنه ، خائفاً أن تطوله يدُ المنون ، ثم عرض محيي الدين صورةً مثيرةً لما حلّ بأنطاكية على أيدي المسلمين ، مستغلاً لتحقيق الألم في نفس بيمند كل ما يمكن أن يُسهم في ذلك من صور . قال : "وفتحناها بالسيف ... ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلاّ وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي أحد منّا إلاّ وعنده شيء منهم ومنها ، فلو رأيت خيّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنّهّابة فيها تصول والكسّابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، ودا ماتِك فكلّ أربع منهنّ تباعُ فتُشترى من مالكَ بدينار"(١) .

واتبع محيي الدين هذه الصّورة بصورة أشد وقعاً ، وهي مستمدة من عقيدة الصّليبيّ ، فوصف ما حدث للكنائس والأناجيل والصلبان وقبور الرهبان . قال : " ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسرت ونثرت ، وصحفها من الأناجيل المزوّرة وقد نُشرت ، وقبور البطارقة وقد بُعثرت ، ولو رأيت عدوّك المسلم وقد داس مكان القدّاس ، والمذبح وقدْ ذُبح فيه الراهب والقسيس والشّمّاس" (٢) .

وتابع ابن عبد الظاهر في رسالته يذكّر بيمند بتلك الصور المؤلمة ، وبأنه لو رأى ذلك لمات حسرة وكمداً ، ولبكى بكاء النساء الثواكل ، ثم عدد له محيي الدين ما استولى عليه المسلمون من بلاد كانت تحت يده ، وكثرة ما قتلوه من رجاله حتى اصطبغت مياه نهر العاصي بدمائهم المسفوكة . قال :"ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام ، وهو ديركوش(٣) ، وشقيف تلميس(٤) ، وشقيف كفر دبّين(٥) ، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ، وأخذناهم بالنواصي ، وفرقناهم في الداني والقاصي"(٦) .

وأكثر مواضع الرسالة إيلاماً للملك الصليبي ، ذلك الذي بشّر فيه بسلامة

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٠ .
(٢) نفسه : ٣١١ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٠٠-٣٠١ ، السلوك ١ : ٩٦٧-٩٦٨ .
(٣) حصن قرب أنطاكية (معجم البلدان ٢ : ٤٥٢) .
(٤) في معجم البلدان :تل منّس : حصن قرب معرة النعمان ببلاد الشام (٢ : ٤٤) .
(٥) قلعة صغيرة قرب أنطاكية ، ودبّين ضيعة كالربض لها (معجم البلدان ٣ : ٣٥٦).
(٦) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٢ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠١ - ٣٠٢ ، السلوك ١ : ٩٦٨ .

نفسه ، ونجاته من الموت أو الأسر أو الجرح ، وسخر فيه محيي الدين من بيمند سخرية لاذعة ، إذ جعل التأخير في أجل بيمند إنظاراً له ليدخل في طاعة بيبرس ، ويعوض ما فاته من فروض الخدمة . قال :"وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً ، وإما جريحاً وإما كسيراً ، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات"(١) .

وأنهى محيي الدين رسالته بتهكم شديد ، أخبره فيه السبب وراء كتابة هذه الرسالة له ، فزعم ان أهل انطاكية لم يبق منهم أحد يخبر بيمند بما جرى ، وأخبره بأن الرسالة تهدف إلى تبشيره بسلامته ، وطلب منه ان يصدق ما يرسله بيبرس إليه من أخبار بعد هذه المعركة . قال : "ولما لم يسلم احد يخبرك بما جرى خبرناك ، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك ، لتحقق الأمر على ما جرى ، وبعد هذه المكاتبة لاينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لاتسأل غيرها مخبراً" .

قال محيي الدين :"ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب"(٢) .

وفي عام ٦٦٩ هـ استولى بيبرس على حصن الأكراد ، فانهزم الفرنج إلى تلة قريبة منه ، فتبعهم المسلمون ، وأحضروا منهم جماعة ، واطلقهم صدقة عن ولده الملك السعيد ، وأمن جميع الفرنج على أنهم يتوجهون إلى بلادهم ، ثم تسلم الحصن(٣) . ثم أرسل بيبرس رسالة إلى ملك عكا يسخر فيها منه ، إذ كان إخوته يحكمون في ذلك الحصن ، وقد أنشأ تلك الرسالة محيي الدين بن عبد الظاهر(٤) .

---

(١) انظر الحاشية (٦) .
(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٣ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٢ ، السلوك ١ : ٩٦٩ .
(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر :٣٧٥-٣٧٦ ، البداية والنهاية ١٣ :٣٠١ .
(٤) انظر الروض الزاهر : ٣٧٦ .

وفي العام ذاته استولى بيبرس على حصن عكار(١) ، واطلق من فيه ، ومنّ عليهم ورحّلهم إلى طرابلس ، وتسلّم القلعة بعد عشرة أيام ، وحوّل كنيستها إلى جامع(٢) ، وعلى أثر هذا الانتصار أرسل بيبرس إلى بيمند المليبي رسالة فاضت بعبارات الفخر بقوة عساكر المسلمين الذين نقلوا المنجنيقات إلى أعالي جبال شاهقة ، صعبة المسالك حتى على الطيور إن أرادت بناء أوكار لها فيها ، ونقلوا أسلحتهم في أودية سحيقة ، ولم يبالوا بحرارة الشمس ، ولاشدة الأمطار وكثرة الأوحال(٣) .

وبعد طول وصف لجيش المسلمين بشر محيي الدين بيمند المليبي بهزيمته ، وركز على الجانب الديني ، فذكر له ان كنائسه تحولت في حصن عكار مساجد يُرفع فيها اسم الله بدلاً من ضرب النواقيس ، ووصف له ما حل بجنوده ، وكيف أطلق السلطان بيبرس من بقي منهم ، قال: "وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نُصب مكان علمك الأحمر ، وأن صوت الناقوس صار عوضه الله أكبر ، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح ، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح" .

وختم ابن عبد الظاهر رسالته بتهديد لبيمند ، بعد أن وصف بتهكم ما حلّ بأهل عكّار ، وأنّ بيبرس أطلق من بقي من أهلها مَنّناً ، ورغبة منه في أن يخبروا بيمند بما حدث ، قال : "ويفهموكم انه ما بقي من حياتكم إلاّ القليل ، وانهم ما تركونا إلاّ على رحيل،..."، وأتبع ذلك بقوله : "يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل بها ، وإلاّ فليجهّز مراكبه ومراكب أصحابه ، وإلا فقد جهّزنا قيودهم وقيوده" (٤) .

ومن هذه الرسائل تلك التي أرسلها الناصر محمد بن قلاوون إلى غازان ملك المغول بعد معركة مرْج الصّفّر عام ٧٠٢ هـ ، التي انتصر فيها المماليك ، وهي

---

(١) في البداية والنهاية (عكا) ، وهو خطأ إذ فتحت عكا بعد ذلك على يد الأشرف خليل .
(٢) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١ .
(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٨١ ، السلوك ١ : ٥٧٢ .
(٤) نفسه : ٣٨١ ، السلوك ١ :٥٧٣ ، وانظر الروض الزاهر : ٣٨٦-٣٨٨ ، البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١-٣٠٢ ، السلوك ١ : ٥٩٤ .

متأثرة برسالة محيي الدين بن عبد الظاهر الأولى إلى بيمند ، وبخاصة في وصف ما حلّ بجيش المغول من هزيمة نكراء (١) .

- صورة النصر

يبدو أن اليأس كان مسيطراً على النفوس قبل تحقيق المماليك انتصاراتهم الرائعة على الصليبيين والمغول ، وقد أدت النزاعات التي قامت بين الملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين إلى تقوية الشعور بالضعف عند المسلمين ، حيث تنازل خلفاء صلاح الدين عن بيت المقدس مرتين عام ٦٢٦ هـ وعام ٦٤١ هـ (٢) ، وقد أدى الخوف من حركة المغول غرباً باتجاه بغداد إلى انتشار الإحباط والوهن (٣) ، و زادت النزاعات بين المماليك في بداية حكمهم ذلك الإحساس قوة .

ولذلك كانت الانتصارات على الأعداء ذات أثر كبير في النفوس ، إذ كانت تقام الاحتفالات وتزين البلاد والطرقات ، ويحيي الناس ليالي أفراح يشارك فيها الجميع ، ومن ذلك ما حدث بعد النصر على المغول في عين جالوت عام ٦٥٨ هـ (٤) ، وكذلك بعد فتح عكا على يد الأشرف عام ٦٩٠ هـ (٥) ، وقد عبر الكتاب في رسائلهم عن مظاهر الفرح التي خلقتها الانتصارات ، ومن ذلك قول علاء الدين بن عبد الظاهر في رسالته بالنصر على المغول في مرج الصُفّر عام ٧٠٢ هـ يصف زينة دمشق عندما دخلها الناصر محمد :"قد أخذت زخرفها وازينّت ، وتبرجت محاسنها للناظر وما بانت بل تبيّنت ، وكادت جدرها تسعى للقائه لتؤدي السنّة من خدمته والفرض ،... وعادت المآتم بدمشق أفراحاً وأعراساً ، وربوع الهناء قد عوضها أمن مقدمه الوحشة إيناساً ، والقلعة بآلات حصارها مزيّنة .."(٦) .

ويبدو أن ما عانته الأمة من ويلات الحروب مع الصليبيين والمغول ، كان له دور في تمجيد الانتصارات ، فعلى الرغم من أن بعض المعارك كانت قليلة الأهمية

---

(١) انظر نص الرسالة في كنز الدرر ٩ : ١١٩ - ١٢٢ .
(٢) انظر تفصيل ذلك في بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، د. عبد الجليل عبد المهدي ، دار البشير ، عمان ١٩٨٩م : ١٨٠ - ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ .
(٣) انظر المختصر في أخبار البشر ٣ : ٢٠٥ .
(٤) نفسه ٣ : ٢٠٥ .
(٥) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٧٨ .
(٦) السلوك ١ : ١٠٣٤ ، وانظر : ١٠٣٥ - ١٠٣٩ .

عسكرياً ، وبعضها الآخر كان إنجازاً عظيماً ، وتحولاً حاسماً في مسار الصراع مع الغزاة ، فإن عناية الكتاب بتمجيد تلك الانتصارات ، مهما تضاءل أثرها ، كانت متساوية تقريباً .

يصور الكتّاب النصر بأنه يشبه الخيال فلا تتطرق إليه الظنون ، وبأنه ما كان ليقع في الحسبان حدوثه ، وبأن الملوك المتقدمين حاولوا تحصيله فوقعوا دون مرامه . قال ابن عبد الظاهر في فتح طرابلس الشام :"وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريدة ، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة ، وكلما مرت شمخت بأنفها ، وتأنقت في تحسين منارة منازهها ، وتزيين ريحانها وعصفها ، ومرت وهي لاتغازل ملكاً بطرفها ، وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج ، والأمواج من بين يديها ومن خلفها ،...، ما قصد أحد شطها بنكاية إلا شطّ واشتطّ"(١) .

كما صوروا محاولات الملوك المتقدمين الفاشلة ، وذلك للإعلاء من شأن السلطان الذي تحقق النصر على يديه ، فما كان تحصيله إلا بجد صاعد ، وسعي دائب ، وهمة عالية . قال الشهاب محمود في فتح قلعة المرقب على يد قلاوون :"وقد أحاطت العلوم بأن هذا الحصن طالما شحت الأحلام ، أن تخيل فتحه لمن سلف من الأنام ، فما حدثت الملوك أنفسها بقصده إلا وثناها الخجل ، ولاخطبته ببذل النفائس والنفوس ، إلا وكانت من الحرمان على ثقة ، ومن معاجلة الأجل على وجل"(٢) .

وعلى الرغم مما كان للانتصار في عين جالوت من أثر في تحول مسار الصراع مع المغول ، فإنني لم أجد له صدى فيما اطّلعت عليه من رسائل بالمستوى الذي كان للانتصارات على الصليبيين ، فكل ما وجدته بشأنه رسالة بشرى أرسلها قطز إلى ملك اليمن ، وقد تقدم ذكرها في البشارات بالنصر(٣) .

ومن صور تمجيد الانتصارات الربط بينها وبين المعارك الإسلامية العظيمة ذات

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٤ .
(٢) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ ، وانظر ٧ : ٣٩٧ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ .
(٣) انظر صبح الأعشى ٧ : ٣٨٦ .

الاثر في التاريخ الإسلامي ، وبخاصة معركة بدر ، كما ربطوا بين السلاطين الفاتحين وبين القادة البارزين في التاريخ الإسلامي مثل خالد بن الوليد(١) . قرن ابن عبد الظاهر نصر قلاوون على المغول عام ٦٧٨ هـ بيوم بدر بقوله :" وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً ، وكوكب سعده مضيئاً ، ويوم نصره بدرياً "(٢) وما ذلك الربط إلا للدلالة على عظم انتصارات سلاطينهم ، وإعجاباً منهم بمن تقدم من قادة المسلمين .

وينسب الكتاب النصر إلى الله سبحانه ، فهو الذي وعد عباده المخلصين بظهور دينه على كل دين ؛ ولذلك تراهم يتحدثون عن نزول الملائكة لمساعدة الجيش المسلم ، ولاتكاد رسالة بشرى بالنصر لهم تخلو من هذه المعاني ، ويقرنون ذلك بذكر سلاطينهم ، ورعاية الله لهم ، إشادة بهم لقيامهم بأمر الجهاد ضد أعداء الدين ، ومحافظتهم على ديار المسلمين ودمائهم وأموالهم وأعراضهم ، قال ابن الظاهر يصف ذلك في رسالته المتقدمة :"أرسل الله ملائكة النصر ترمي ، وجرد سيوف الظفر تجز الرقاب وتدمي . وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبته ، واطلع الله على ما نواه من نصر الدين فتقبله بقبول حسن وأنبته "(٣) .

إن رسائل البشارات بالنصر ، وهي تشير إلى اليأس الذي كان مستوطناً في النفوس ، لترسم صوراً مشرقة للنشوة والفرح الغامر بعد الانتصار ، وما من شك في أن الفرحة هي بانتصار الإسلام ، وهزيمة اعدائه وانكسار شوكتهم ، وزوال الاحتلال البغيض .

وترى مشاعر البهجة لابين أهل الأرض وحسب ، بل جعل الكتّاب الفرحة تعم الأرض والسماء ، فتتهلل الملائكة فرحاً ، وترفع دعاءها إلى الله تعالى ان يكلأ السلطان برعايته . قال محيي الدين يصف انتصار قلاوون على المغول عام ٦٧٨ هـ :" وأصبح بها أهل التهائم والنجود في هناء ، وملائكة السماء في شكر لسلطان

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، السلوك ١ : ١٠٣٣ ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٥ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٣ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ .
(٣) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ - ٣٩٦ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٩٠ - ٩٦ .

الإسلام ودُعاء ، وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدع ، ودموع السحائب أن تتشرع، وأكباد البيد أن تتقطع"(١) .

ويصور ابن العجمي أثر فتح حصن الشقيف(٢) بأن المنابر طربت لسماع خبره فخشعت ، ونشرت في الآفاق ذكره ، وسُرت به القلوب بعد وجل ، فكان حياءً أعاد إليها الحياة والأمل ، وتهللت به وجوه المؤمنين بعد أن علاها رهق الخوف(٣) .

ومما اهتموا به أثر النصر في قوة الأعداء العسكرية والمعنوية ، وما أدى إليه من رُهب في بقاياهم يُعين على قِراعهم . قال محيي الدين في أثر فتح حصن الأكراد في غيره من الحصون :"والبلاد الفرنجية قد غُضت منها الأبصار وخشعت القلوب ، واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب ، فهذه تود لو أكنّتها البحار تحت جناح أمواجها ، وهذه لو أسبلت الرياح العواصف عليها ذيول عجاجها ، وهذه لو اجتثت من فوق الأرض فما لها من قرار ، وهذه لو خُسف بها الثرى وعفت منها الآثار ، وذلك لما بلغهم وشاهدوه من ويل حل بأهل هذا الحصن المنيع"(٤) .

وللنصر آثار كثيرة ، منها : الديني ، والعسكري ، والنفسي ، والاجتماعي، والاقتصادي ، وقد لاتظهر هذه الآثار في آن معاً ؛ إذ يكون ذهن الكاتب منصرفاً إلى واحد ، أو أكثر ، منها في رسالته .

ويتمثل الأثر الديني للانتصارات في قوة الإسلام وذلة الكفر ، وعودة البلاد والعباد إلى ظل الإسلام وأمنه . كما يتمثل في سعادة المسلمين به ، وإحساسهم بنعمة الله عليهم، وثقتهم بنصره الذي وعد .قال علاء الدين بن عبد الظاهر في أثر النصر في مرج الصفر عام ٧٠٢هـ بأنه من الوقائع التي : "استقر بها الملك في مهاد السكون بعد القلق ، وتبدلت بها الملة الإسلامية الأمن بعد الفرق ، واضحى

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٠٤ .
(٢) المقصود هو شقيف أرنون ، وكان قلعة حصينة في قمة جبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل (معجم البلدان ٣ : ٢٥٦) وهو الآن يعرف بقلعة الشقيف ، قرب قرية في قضاء النبطية بجنوب لبنان .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٧ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٣٣ .
(٤) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٢ .

بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيبه ، وطلع بها بدر السرور كاملاً بعد مغيبه ، وعمّت الأيام إحساناً من الملك وحسنى"(١) .

وترى الأصداء النفسية والعسكرية فيما أشرت إليه آنفاً من حلول الفزع في نفوس الأعداء ، وتراه أوضح في تحول القلاع والحصون من مراكز أذى للمسلمين إلى حصون لهم يستخدمونها ضد أعدائهم . قال ابن العجمي بأن فتح قلعة الشقيف كان كسباً عسكرياً ، إذ "كانت المجانيق ترمي عليها ، فصارت ترمي منها ، وتصدر حجارتها إليها ، فصارت تصدر عنها ، وتملّكناها معقلاً شيده لنا العدو وبناه ، وحصناً منيعاً دافع عنه حتى تعب فلما تعب أخلاه وخلاه ، وأصبح ، بحمدالله ، شك فتوحها لنا يقيناً ، وما كان من خنادقها وأسوارها يقي الكفار غدا يقي عساكرنا المنصورة ويقينا"(٢) .

أما الأثران الاقتصادي والاجتماعي للانتصارات ، فنراهما في حديث الكتاب عن الغنائم التي حصلت عليها الجيوش بعد المعارك ، ولم أجد حديثاً عن الغنائم سوى في رسالتين لابن عبد الظاهر ، أولاهما رسالته إلى بيمند بعد تحرير أنطاكية ، والأخرى رسالته في وصف غزوة بيبرس لقيسارية(٣) الروم ، كما لم أقف على ذكر السبايا سوى في أولى الرسالتين المتقدمتين . قال فيها مخاطباً بيمند :"فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولاجارية إلا وهي في ملكنا جارية ، ولاسارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارية ، ولازرع إلا وهو محصود ، ولاموجود لك إلا وهو منك مفقود" ، وقال كذلك :"... وكيف نُهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير ، وتأهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي"(٤) .

كما صور ما غنمه الجيش المسلم من المغول في رسالته الثانية بقوله :"وأما

---

(١) السلوك ١ : ١٠٢٨ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ٤ : ٩٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٠ .
(٣) أو قيصرية ، مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم ، كانت كرسي ملك بني سلجوق (معجم البلدان ٤ : ٤٢١) ، وهي الآن مدينة في أواسط تركيا ، وما زالت تحتفظ ببعض آثارها القديمة ، واسمها قيصريّة .
(٤) الروض الزاهر : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٥ .

العدو ، فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن ، وما يصولون به من سيوفٍ وقسيّ وكنائن ، وما يلبسونه من خوذٍ ودروع وجواشن ، وما يتموّلونه من جميع أصناف المعادن"(١).

وقد عد بعض الكتّاب الانتصارات ثأراً من الأعداء لما فعلوه بالمسلمين ، ومن ذلك انتصار قلاوون على المغول عام ٦٧٨ هـ ، إذ وصفه ابن عبد الظاهر بالثأر للأمة منهم ، وكأنه يشير بذلك إلى ما فعلوه نوبة بغداد . قال :"وقد علم الله والمسلمون أن العيان في هذه الواقعة ليس كالخبر ، ولعمر الله إن هذه النصرة ذكرى للبشر ، لأنها كفت الأمة الإسلامية عظيماً ، وأخذ الله بها للأئمة والأمة ثأراً قديماً"(٢) .

- صورة الهزيمة

وتصور الرسائل هزائم المماليك كما شاركت في تصوير انتصاراتهم ، غير أن التعبير عن الهزيمة كان محدوداً ، حيث كانت الهزائم التي تعرض لها المسلمون أمام الصليبيين أو المغول قليلة ، كما ابتعد الكتاب عن تصوير الآثار النفسية المؤلمة للهزائم غالباً ، وحاولوا أن يبرروا لحدوثها ، ويجعلوا منها سبيلاً للحث على الجهاد .

وقد درجوا على عد الهزيمة قضاءً وقدراً ، وجعل أسبابها خارجة عن ضعف المسلمين وقوة أعدائهم ، ومن ذلك وصف هزيمة المماليك أمام المغول عام ٦٩٩ هـ في معركة وادي الخزندار ، حيث جاء في رسالة الناصر محمد إلى غازان بعدها :"وما زالت تتفق بين الملوك الوقائع والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ، ولا عار على المغلوب ، وكم من ملك استظهر عليه ثم نُصر ، وعاوده التأييد فجُبر بعدما كُسر"(٣) .

وذكره في رسالةٍ ثانية إليه بهزائم المغول أمام المسلمين ، وبأنه أظهر

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٧ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٥ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٢٨ .
(٣) صبح الأعشى ٧ : ٢٦٨ ، وانظر : ٢٦٧ .

الخديعة والمكر بادعاء الإسلام ، فكان ذلك سبباً في امتناع الجيش المملوكي عن قتاله ، وادعى الناصر أنه لولا ذلك لذاق غازان وجيشه هزيمة نكراء ، ولكن الله قدر (١) .

وفي رسالته الموجهة إلى الناصر يحثه فيها على الجهاد ، وصف ابن تيمية هزيمة المماليك أمام المغول عام ٦٩٩ هـ بالفتنة التي عادت بالفائدة ، قال :"إن هذه الفتنة التي جرت ، وإن كانت مؤلمة للقلوب ، فما هي إن شاء الله إلا كالدواء الذي يسقاه المريض ليحصل له الشفاء والقوة ، وقد كان في النفوس من الكبر والجهل والظلم ما لو حصل معه ما تشتهيه من العز ، لأعقبها ذلك بلاءً عظيماً ، فرحم الله عباده برحمته" ، وادت الهزيمة ، في رأيه ، إلى اتعاظ المسلمين بها ، وجمع كلمتهم بعد الفرقة والخلاف ، وتحريك عزائمهم في سبيل الله (٢) .

وجعل الشهاب محمود من هزيمة أحد قادة المماليك نصراً ، لأنه لم يهزم بسبب الضعف أو التخاذل ، بل قاتل حتى لم يبق وسعاً وكسر هو وفئة من جيشه أجفان السيوف ، وثبت بالعدد القليل أمام جحافل العدو . قال الشهاب :"وهذا هو الموقف الذي قام مقام النصر إذ فاته النصر ، والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد ، فقد فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوف لايدركهم الحصر"(٣) .

ويبين الشهاب محمود في رسالة تقريع إلى من هزم هو وجيشه بعض أسباب الهزيمة ، ويثني باللائمة عليه وعلى أصحابه الذين ما إن رأوا العدو حتى سقط في أيديهم ، وساورتهم الشكوك في إمكانية الصمود أمام الجحافل ، فولوا الأدبار، على الرغم من أن العدا جزعوا لمرآهم . قال :"حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى من عدده وعُدده بمعالجة الحَين ، أعجل نصول العدا عن وصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد ما أشرف على حصولها"(٤) .

---

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ ، وانظر حسن التوسل : ٣٨٥ - ٣٨٦ .
(٢) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر : ١٢ .
(٣) حسن التوسل : ٣٨٦ .
(٤) نفسه :٣٨٨ ، وانظر : ٣٨٩-٣٩٠ ، الروض الزاهر : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، السلوك ١ :٥٩٤ .

وانشأ ابن أبي حجلة رسالةً وصف فيها هزيمة المسلمين أمام الفرنجة الذين أغاروا على الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ ، بدأ فيها بوصف غفلة المسلمين في البلد ، وانصرافهم عن الاستعداد لحفظها إلى الملذات ، فاستغل الفرنجة ذلك وهاجموا الثغر بسفنهم في غياب العسكر المملوكي ، قال :"بينما الناس في غفلاتهم ، وظلم ولاتهم ، لايتناهون عن منكر ، ولايرون مع ارتكاب الكبائر إلا كل آية هي أكبر ، إذ دهمهم بالثغر ما اصطكت به أسنانه ، ونعقت بالبين غربانه..." .

كما وصف في رسالته خروج الناس للقتال ، وانتشارهم على الساحل ، وأنهم كانوا من المتطوعة "لفروح المجاهدين ، وغيبة حماة الدين" ، لكنهم لم يكن لهم بالفرنجة طاقة . قال :"واقبلت الفرنج من كل فج ، وتأهبوا للنزال ،...، فحمل البطل ، وضرب السيف بالرقاب المثل ، وبلغ السيل الزبا ، وسالت النفوس على الظبا ، فشاهد الناس يوماً مشهوداً ، (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)"(١) .

ويذكر ابن أبي حجلة أفعال الفرنجة الشنيعة بالإسكندرية وأهلها بعد انتصارهم ، إذ عاثوا بها فساداً ، فقتلوا من قتلوا ، وأسروا من أسروا من الرجال ، وسبوا النساء ، وانتهكوا الحرمات ، ونهبوا ما بأيدي الناس من أموال . قال :"...فبطل الكرّ ، وملك الفرنج البر ، وطلعوا السور ، وهجموا الدور ، فحازوا النقود النضّة ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،...، وعموا الأسواق بالنهب والإحراق ، وأكثروا الجرائر ، وأسروا الحرائر ، وتساوت الموالي بالعبيد" .

ويذكر أنهم فروا بعد أن سمعوا بمقدم طلائع الجيش المملوكي، وكانت مدة ذلك على ما ذكره ابن حبيب ثلاثة أيام(٢) .

- صورة المجاهدين

كانت العناية بالمجاهدين ، والاهتمام الوافر بالجهاد من أهم الصفات التي

---

(١) تذكرة النبيه ٣ : ٢٨٨، ٢٨٩ ، والآية في سورة الأحزاب : ١١ .
(٢) نفسه ٣ : ٢٩٠ - ٢٩١ .

أضفاها الكتّاب على القادة المماليك ، ويبدو أن ما حققه المماليك من انتصارات رائعة على الأعداء مهد السبيل أمام الكتّاب ليبالغوا في ذلك . قال محيي الدين بن عبد الظاهر يذكر اهتمام قلاوون بالجهاد في رسالة بشرى إلى ملك اليمن : " كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة ... قد أصبحت ذكرى للبشر ، ومواقفه للنصر كم جاءت هي والقدر على قدر ، وقد صارت سِيَرُها وسَيْرُها : هذه شدو في الأسمار ، وهذا جادة تستطيب منه حُسن الحدو السُّفار ، فكم قاتلت من يليها من الكفار"(١) .

ويشيد الكتاب بتلك الروح الجهادية ، والعزيمة الصادقة ، والرغبة عن الدنيا في الآخرة عند سلاطينهم ، وبما يسعون إليه من ذبّ عن حياض الإسلام . قال شاهد عيان لمعركة عكا عام ٦٩٠ هـ في رسالة له يصف عزيمة الملك الأشرف خليل واستعداداته :"فيها عزم السلطان على المسير إلى عكا ونزالها ، والجد في قتالها ، متمماً لما عزم عليه والده من أخذها واستئصالها ، فتقدم بتجهيز العساكر ، وكتب إلى النواب بأقطار الممالك بإنفاذ العساكر الشامية إليها ، وحمل المجانيق والآلات لتركب عليها ، وأمر بالاستكثار من الحشود، وألا يتأخر أحد من الجنود" ، ثم "اجتمعت جيوش الإسلام ، وجرد السلطان صارم الاهتمام ، وأرهف حد الاعتزام ، وشمّر تشميراً يعجز عنه كل ملك هُمام"(٢) .

ومما قاله علاء الدين بن عبد الظاهر في وصف همة الملك الناصر محمد ، وقيامه بجهاد أعداء الدين :"بايع الله على نصرة هذه الملة التي لايحيد عن نصرها ولايريم ، وعاهده على بذل الهمم التي انتظمت في سبيل الله كالعقد النظيم ، وخضع لله في طلب النصر ... وقال :رب قد بذلت نفسي في سبيلك فتقبلها بقبول حسن ، ونويت المصابرة في نُصرة دينك وأرجو أن اتبع النية بعمل يعدو بيان إنسان في وصفه واللسن"(٣) .

وقد يعمد الكاتب إلى المبالغة في تصوير عزيمة سلطانه قائد الجيش ، ورغبته

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٣ ، وانظر ٨ : ٣٦٥ ، ١٤ : ٣٤٧ .
(٢) السلوك ١ : ١٠٠٢ ، وانظر : ١٠٢٩ ، صبح الأعشى ١٤ : ١٥٩ .
(٣) نفسه ١ : ١٠٣٠ ، وانظر : ٢٧ ١٠ ، صبح الأعشى ١٤ : ١٦٣ .

في الجهاد ، وقدرته على قهر أعداء الدين ، فيجعل من النصر إنجازاً متواضعاً إذا ما قيس بتلك الهمّة ، ويصفه - على عِظمه - بأنه كالمقدمة لغيره ، وكالتدريب للعساكر . وصف محيي الدين فتح صفد (١) بقوله على لسان قلاوون :"مِلنا على سواحل العدو المخذول فغرّقناها ببحار عساكرنا الزاخرة ، وشنّينا بها من الغارات ما ألبسها ذلاً رفل به الإسلام في ملابس عزه الفاخرة ، وهي، وإن كانت غارة عظيمة شنّت في يوم واحد على جميع سواحله ، واستولى بها النهب والتخريب على أمواله ومنازله ، واستُبيح من حَرمه وحُرمه مصونات معاقله وعقائله ، إلا أنها كانت بين يدي عزائمنا المنصورة نشيطة نشّطنا بها الغازين ، واسترهفنا بها همم المجاهدين ، وقدمناها لهم كاللّهنة قبل الطعام للساغبين"(٢) .

كما صور الكُتّاب ثبات القادة من سلاطين المماليك في المعارك ، وصبرهم وقوتهم ، فتراهم لايكترثون بكثرة أعدائهم ، ولاينكُصون من أمامهم . قال علاء الدين يصف ثبات الناصر في مرج الصفّر :"قابل العدو بصدره ، وقاتل حتى أفنى حديد بيضه وسُمره ، وخاطر بنفسه والموت أقرب إليه من حبل الوريد ،ونكب عن ذكر العواقب جانباً ولم يستصحب إلا سيفه المُبيد"(٣) .

وللإعلاء من شأن القائد الفاتح ، قد يعمد الكاتب إلى التعريض بمن تقدمه من الملوك الذين ارتضوا الترف والتخاذل بدلاً من الشرف والجهاد ، واستحبوا السلم الذليل ولم يفكروا في عواقبه . قال أحمد بن الأثير في رسالة بفتح صفد بأنها كانت "تدعو الملوك إلى نفسها فيصامموا ، وتخطبهم ومهرها أدنى حرب فيرغبوا في العزلة والمسالمة فيسالموا ، ألهاهم عن فخر فتحها الرغبة في رفاهية عيشة ظنوها راضية ، ووقفت بهم دون السعي فيه همة لنزول الدنايا متغاضية ، وجنح بهم مُراد السلم ، وإرادة السلم كانت عليهم القاضية"(٤) ، ولاشك في أنه أراد رفع

---

(١) مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وكانت تعدّ من مدن لبنان (معجم البلدان ٣ : ٤١٢) ، وقد احتل الصهاينة صفد الفلسطينية عام ١٩٤٨م ، وأجلوا سكانها العرب ، وتقع صفد في شرق الجليل الأعلى ، وما زالت تحتفظ ببعض آثارها ، وقد أطلق عليها الصهاينة (تسفاد) . (انظر بلدانية فلسطين المحتلة : ٨٨-٨٩) .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٩ .
(٣) السلوك ١ : ١٠٣١ ، وانظر : ١٠٣٢ .
(٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٣ .

ترقبهم التزاماً ، والرقاب من سيوفهم اقتساماً ، وكم حمدت التجارب من رأيهم شيخاً ، وحمد الإقدام من شبوتهم غلاماً ، قد دوّخوا البلاد فلا موطن إلا لهم به معركة ، وأرملوا الحلائل، فلا مشرك إلا وقد أرمل من مشركة ، وأزعجوا الكفر ، فلاقلب إلا به منهم خوف ، ولاسمع إلا به حركة ، وملأوا الأرض كثرة "(١) .

كما وصفوه بالصبر على المشقات والأهوال ، وعدم الشكوى ، والسرعة في إنجاز المهات ؛ ذلك لأن الجنود يحملون في قلوبهم بغضاً شديداً للكفر وأهله ، ويتسابقون إلى الفوز بجزيل ثواب الله وفضله . قال محيي الدين في البشارة بفتح طرابلس يصف ذلك: "جنود" لاتستبعد مفازة ، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حزازة ، فامشطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لاترافق بها غير الرياح الهوج ،..... ولم يحفل أحد منهم بسرب لاصق، ولابجبل شاهق ، فقال : هذا منخفض وهذا عال ، وشرعوا في التحميل لما يوهي ذلك التحصين" (٢) .

ولابد للمقاتلين من الثبات في صفوفهم ، وأروع آياته تلك التي تثبت فيها الفئة القليلة أمام الجموع الغفيرة ، ولايكون الثبات إلا ثمرة للعقيدة الصادقة ، والإيمان الراسخ. كتب الشهاب محمود على لسان من هُزم يعتذر عن هزيمته بقوله :"وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرنا جفون السيوف ، وحطمنا صدور الرماح في صدور الصفوف ، وأرينا تلك الألوف كيف تُعد الآحاد بالألوف" (٣) .

كما وصفوا المجاهدين بأنهم يحبون الموت ، ويقبلون على المعارك رغبةً في الشهادة ، وتلك أروع تضحية يقدمها المؤمن ، إذ يتهلل وجهه لرؤية مقام الشهادة ، ويرى للموت وجهاً طلقاً لاجهامة فيه . ومن ذلك قول ابن العجمي في فتح صفد ، إنه لما أبدى المليبيون شجاعةً في المعركة ، "صبر أولياء الله على ما عاهدوا

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٢ ، وانظر النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٥ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٠ .
(٢) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٤ - ٣٩٥ ، وانظر نهاية الأرب ٥ : ١٦٨ .
(٣) حسن التوسل : ٣٩٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٣ .

شأن بيبرس من حيث عرّض بغيره .

ولإتمام ما يريده الكاتب من مديح لسلطانه الفاتح ، يزعم أن الله أخر الفتح ليتم على يديه ، واختصّه به لأهليته وقدرته وصلاحه ، ومن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته بفتح طرابلس على يد قلاوون :"وأخّر الله مُدتها إلى خير الأزمان ، وفتحها على يد سلطاننا الذي حقق الله به آمالاً لاتنفذ منه إلا بسلطان"(١) .

وتصور الرسائل همم الأمراء قادة الجيش ، وإقدامهم ، وإعدادهم العدة للقاء العدو ، فتراهم يضحّون من أجل دينهم ، فلاعزة لهم إلا بعزته . ومنهم علاء الدين بن عبد الظاهر بأنهم في معركة مرج الصّفر "رأوا الحياة في هذا اليوم مغرماً ، وعدوا الممات فيه مغنماً ، وقالوا : لاحياة إلا بنصر الإسلام ،...، وما أعددنا العزائم إلا لهذا الموقف ، ولا أحددنا الصوارم وخبأناها إلا لنبذلها في السفك فنسرف"(٢) .

وقد صور بعض الكتّاب حنينهم إلى الجهاد ، ومن أجمل ما كُتب في ذلك قول شاهد عيان لمعركة عكا - ويبدو أنه أحد الأمراء - في رسالته يصف فتحها على يد الأشرف :"وكنت حينئذٍ بالكرك ، فلما بلغني أمر هذه الغزاة ،...، تاقت نفسي إلى الجهاد ، وحنّت إليه حنوّ الأرض الظامئة إلى صوب العهاد ، فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصير إلى هنالك ، لأساهم في ثواب الغزو وأشارك ، فأذن لي بالحضور ، ...، فكنت كمن فاز أمله بنجاحه ، وانجلى ليله بصباحه"(٣) .

وترى في رسائلهم صوراً مشرقةً لجيش المسلمين ، آخرها الكثرة وأولها الإقدام والحنكة والصبر ، فهو ساهرُ الطرف لايطرق عينيه كرى ، متوقد العزيمة ، صلبٌ يفلّ الحديد ولايُفلّ ، وتضجر البيض من الضرب ولايمل . قال محيي الدين في رسالة إلى ملك اليمن :"كم شكت النقوب من مناكبهم زحاماً ، والشرفات من

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٦١ .
(٢) السلوك ١ : ١٠٣١ ، وانظر : ١٠٣٣ .
(٣) نفسه ١ : ١٠٠٢ - ١٠٠٣ .

الله عليه ، وقدموا نفوسهم قبل أقدامهم رغبةً إليه ، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف ، فلم يروا دونها مقيلاً ، وتحققوا ما أعده الله لأهل الشهادة ، فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلاً "(١) .

ولم أقف على صورة فردية لفارس من المجاهدين ، غير صورة السلطان ، سوى صورة وصف بها ابن الظاهر ، واحداً من الذين أبلوا بلاءً حسناً في المعركة التي خاضها بيبرس ضد المغول عام ٦٧٥ هـ ، ويبدو أن الكتّاب كانوا يتحاشون ذكر غير سلاطينهم في الرسائل الجهادية ، وإن كان محيي الدين قد عظم ذلك الفارس بقوله : "مولانا الصاحب زين الدين حرس الله جلاله" ، مما ينبئ بأنه أحد الأمراء ، فإن هذه الصورة تظل فريدة . وصفه محيي الدين بأنه كان :"أول مسابق، وأسرع راشق ، وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ، فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرّته ، وأجاد في طعنته ، وزار زئير الليث ، وسابق حتى لم يبق حيث، ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ، وخضب بما تحدر من دم عدوه أكناف سرجه وعنان لجامه ، وكانت عليه من الله باقية واقية في تقدمه وإقدامه ، وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي السلاح ، وقد أخذ نصيبه ، ونصيب فرسه من سالم الجراح"(٢) .

أما المسلمون من غير المقاتلين ، فإن بعض ما وقفت عليه من رسائل يدل على مشاركتهم معنوياً ومادياً في المعارك ، وبخاصة ضد المغول ؛ ذلك لأن مشاعر الخوف من المغول كانت أشد لما عرف عنهم من وحشية ، وتبرز صورة المسلمين وهم في المساجد يتضرعون إلى الله تعالى أن ينجز وعده ، ويستمطرون رحمته ولطفه ، وهو موقف يوحي بتلاحم الأمة جمعاء في وجه الغزاة . قال محيي الدين يصفهم بعد توجه الجيش لحرب المغول عام ٦٧٨ هـ :" وكان المسلمون في سائر البلاد الإسلامية في تلك الساعة قد طرقوا أبواب السماء ، وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولامشهد ولامسجد في تلك الساعة في القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتهجدين

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٢ ، وانظر نهاية الأرب ٥ : ١٦٢ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٦ ، وانظر حسن التوسل : ٣٨٩ - ٣٩٠ .

في ذلك الوقت قائمة متزاحمة بالمناكب ، فاستجاب الله دعاءهم"(١) .

هذا في الوقت الذي توحي فيه رسالة ابن تيمية إلى الناصر بأن موقف الرعية من الجيش بعد هزيمة ٦٩٩ هـ كان سلبياً ، وقد يكون ذلك بسبب فعائل المغول الشنيعة بعد دخولهم الشام ، لكن الموقف تغير بعد بدء الناصر بإعداد العدة لحرب المغول . قال ابن تيمية :"وحنت إلى العساكر الإسلامية نفوس كانت معرضة عنهم ، ولانت لهم قلوب كانت قاسية عليهم، وطابت نفوس أهل الإيمان ببذل النفوس والأموال للجهاد في سبيل الله، وأعدوا العدة لجهاد عدو الله وعدوهم ، وانتبهوا من سِنتهم ،واستيقظوا من رقدتهم"(٢) .

- صورة العدو

برز أثر الصراع العقائدي بين المسلمين والغزاة الصليبيين والمغول في تحديد ملامح صورة الغزاة ، وقد ركز الكتاب في الرسائل الجهادية على فكرة الصراع العقائدي ، وهدفوا من وراء ذلك إلى جمع الصفوف ، وحشد الطاقات ، مما يدل على يقظتهم الفكرية ، ووعيهم بطبيعة الصراع .

وصف الكتّاب في رسائلهم الغزاة الصليبيّين بالكفر ، والشرك والنّجاسة ، ومن ذلك قول ابن العجمي(٣) في فتح الشقيف(٤) ، وفيه قلعتان ، عام ٦٦٦هـ : "فتعففوا عن أن يحموا من تلك القلل جهتين ، أو أن يقتسموا بها فئتين ، أو يجمعوا مع كفرهم ، إلاّ ما قد سلف ، بين الأختين ، أو أن يغدو نجسُ شركهم إلا وهو فيما دون القلّتين"(٥) .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ .
(٢) رسالة ابن تيمية إلى الناصر : ١٣ .
(٣) أحمد بن عبد العزيز الحلبي ، كان عالماً حسن الخطّ ، كتب للملك الظاهر بيبرس ، وكان من أعيان الكتاب ، توفّي في صور ، ودفن في دمشق عام ٦٧٨ هـ (انظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٨) .
(٤) هناك عدّة أماكن بهذا الإسم منها شقيف أرنون ، وتيرون ، وديركوش ، ودُبّين ، والمقصود هو شقيف أرنون لأنه الأقرب إلى يافا ، وفيها أن فتحه كان بعد يافا مباشرة (معجم البلدان ٣ : ٣٥٦) وقد تقدم التعريف به .
(٥) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٠ ، ٤ : ٢٥٦ .

ووسم المليبيّون بأهل النار(١) ، وأهل الشرك ، وأصحاب الأرواح الخبيثة(٢)، وأهل النفاق ، وعلوج الكفر(٣) ، وشياطين النفاق ، ومنشئ المفاسد(٤) ، وأهل الأحد(٥) ، وأصحاب التثليث(٦) ، وأعداء الدين ، والطغاة الملحدين(٧) .

ويورد المنشئون في الأسباب التي تدفع إلى فتح الحصون واستردادها من أيدي الصليبيين ، أنّهم يحملون أهلها من المسلمين على النّصرانية ، ويجعلونها وسيلة لضرب المسلمين في ديارهم ، واستباحة حُرماتهم . قال ابن العجميّ على لسان قلاوون بعد فتح عدّة قلاع : "وأعقبنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى ، تبيّنّاه أشدّ وطأةً على الإسلام وأعظم ضُرّاً ، وهي صفد التي باء بإثمها حاملُها على النصرانية ، ومسلّطُها بالنكاية على البلاد الإسلامية ، حتى جعلها للشرك مأسدة آساده ، ومَرادَ مِراده ، ومجرّ رماحه ومجرى جياده ، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى ، وكم استرقّ الكفّار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلما ، وكم تسرّب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنماً وقوّضوا معْلما"(٨) .

وامتدّ تأثير الصراع العقائديّ إلى ما يرسمه المنشئون من صور في رسائلهم ، فصورة الحصن قبل الفتح تقابلها صورة مختلفة جداً بعده ، وتُستمدّ الصورتان من ألفاظ تتصل بعقيدة المسلمين وعقيدة الصليبيين ، وهي لا شك مقابلة بين الإيمان وبين الشرك ، ومن ذلك في رسالة بفتح حصن المرقب عام ٦٨٤ هـ : "سطّرنا هذه البشرى وأعلام النصر قد خفقت بنودها ، وذلّت لها علوج الكفر وكنودُها ، والسيف من دمائهم يقطر ، والصليب خزيانُ ينظر ، والأذان مكان الناقوس ، والقرّاء مكان القسوس ، والكنيسة قد عادت محراباً ، والجنّة قد فتحت للمجاهدين فكانت أبوابا"(٩) .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٢ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ .
(٤) نفسه ٤ : ٢٤٥ .
(٥) نفسه ٤ : ٢٥٢ .
(٦) نفسه ٤ : ٢٥٥ .
(٧) السلوك ١ : ١٠٠٤ .
(٨) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢٣٩ .
(٩) نفسه ٤ : ٢٤٤ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ .

أما الصراع مع المغول، فكان من المتوقع أن يكون لإسلامهم صدىً أوسع في الرسالة الفنيّة ، ويبدو أن وحشيّتهم ، وتعاملهم الدمويّ مع أهل البلاد التي غزوها لم تترك في النفوس مجالاً لقبولهم ، وأتت على كل التوقعات لوجود الخير فيهم ، ولم تبقِ لهم سوى صورة واحدة ، أبعادها : الكفر ، والغدر ، والهمجيّة .

وسمهم الكتّاب في رسائلهم بالمشركين والكفار ، والمجرمين ، وأهل النّار ، وبأنّهم أهل الشيطان ألقوا إليه أمورهم ، وسلّموه قيادهم . قال ابن عبد الظاهر من رسالة قطز إلى اليمن مبشراً بالنصر عليهم في عين جالوت : "فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال ، ... ، وأقلعوا في البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه، وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرّهم أمنيّة الظنون الحوادس ، فما وسوس الشيطان كفراً إلا وأحرقه الإيمان بكوكب"(١) .

وقال فيهم في رسالة قلاوون مبشراً بالنصر عليهم عام ٦٧٨ هـ : "وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم ، فعجّل الله بأرواحهم إلى النّار ، وأبت الأرض أن تواري جسداً لهم فقذفتهم في المهامِة والقفار"(٢) .

والرسائل بعد إسلام المغول فيها موقفان متقاربان ، إذ يُكفّر المغول صراحة في قسم منها ، وبخاصة في البشارات بالنصر ، أما القسم الآخر ففيه تشكيك بنواياهم ، وطلب لتأكيد تمسكهم بالإسلام ، وهذا الأخير كان في الرسائل المتبادلة بين الطرفين . وأعتقد أن السلطة كانت تحاول أن تفيد من إسلامهم ، فتتقي بذلك حروباً أخرى ، وعلى الرغم من أن بعض البشارات كانت تشمل وصفهم بالكفار ، وأنها رسائل ديوانية تمثل موقف السلطة الحاكمة من المغول ، وأن موقف المماليك من إسلام المغول ليس متطابقاً في رسائلهم إليهم مع موقفهم في البشارات بالنصر ، فإنه لاتناقض بين الموقفين ، فهم يرضون الشعب والجيش بوصف المغول بالكفر ، ويحاولون تثبيت الإسلام في نفوس المغول بمطالبتهم بتطبيق ما أعلنوه على أرض الواقع(٣) .

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٧ ، وانظر : ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، كنز الدرر ٩: ١٢١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ .
(٣) صبح الأعشى ٨ : ٢٦٣ ، تشريف الأيام والعصور : ١٣ .

قال الناصر في رسالته إلى غازان بعد هزيمة المماليك عام ٦٦٩ هـ يعلل هزيمة جيشه بأن غازان لما رأى أنه ليس له "بجيشنا قِبل في المجال ، عاد إلى قول الزور والمحال ، ...، وتظاهر بدين الإسلام"، ولذلك امتنعت الجيوش عن قتاله ، وقال مشككاً في إسلامه ، طالباً منه توكيد ذلك :"فأين ، وكيف ، وما الحجة ؟ وحرّم البيت المقدس تُشرب فيه الخمور ، وتفتض فيه البكور ، ويُقتل فيه المجاورون ، ويُستأسر خطباؤه والمؤذنون ، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان ، وتُهتك النسوان ، ويدخل فيه الكافر سكران ، فإن كان هذا على علمك ، فواخيبتك في دنياك وأخراك ،...، وإن كنت لم تعلم بذلك، فقد أعلمناك ، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك ، وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام ،..، فاقتل الطوامين(١) الذين فعلوا هذه الفعال ، وأوقع به أعظم النكال ، لنعلم أنك على بيضاء المحجة"(٢). وقد سبب إسلام المغول بعض التضارب في جواز قتالهم قبل وقعة مرج الصفّر عام ٧٠٢ هـ ، وكان العامل الحاسم في اتفاق الآراء على قتالهم ابن تيمية الذي قال بوجوبه(٣) ، وكان رأيه في رسالته إلى الناصر أنه "انكشف لعامة المسلمين ... حقيقة هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام وإن تكلموا بالشهادتين ، وعلم من لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم ، والنفاق والتلبيس"(٤) .

وبعد هذه المعركة برز الصراع العقائدي مع المغول ثانية بوضوح ، وأصبحت قضية تكفيرهم في الرسائل ثابتة ، فهم أعداء الملّة المشركون ، وأحزاب الكفر وأشياعه . قال الشهاب محمود في البشارة بالنصر عام ٧٠٢ هـ :"وبرز فيه الإسلام كله للشرك كله ، ولله الحمد الذي أعز دينه ونصره ، وحصد بسيوف الإسلام عدو دينه بعد أن حصره ، وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب الكفر ، وكانوا أمثال الرمال لايعدون"(٥) .

---

(١) جمع طومان (تومان) ، وهو أمير عشرة آلاف فارس (صبح الأعشى ٤ : ٤٢٣) .
(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ ، وانظر ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٣) فتاوى ابن تيمية ، تقي الدين أحمد ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ٤ : ٢٩٨ ، وانظر البداية والنهاية ١٤ : ٢٨ .
(٤) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر : ١٢ .
(٥) نهاية الأرب ٥ : ١٦٢ .

وتشير المصادر التاريخية إلى بعض مظاهر التحالف بين المغول والصليبيين والأرمن والروم بعد احتلال المغول بلادهم عام ٦٤١هـ(١) ، كما تشير إلى عقد اجتماعات على مستويات رفيعة بين الأطراف المعادية للإسلام(٢) ، كما دارت بعض الرسائل بين المغول والصليبيين للإخبار بتحركات جيش المماليك(٣)، ويبدو التحالف في معاملة المغول للنصارى بعد عين جالوت(٤) ، وأشار ابن عبد الظاهر إلى تحالف المغول مع الروم والكرج(٥) في رسالته التي وصف فيها غزوة قيسارية الروم قائلاً :"فلما أقبل الناس من علو الجبل ، شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلباً ، كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده"(٦) .

كما ورد ذكر التحالفات في الرسائل التي دارت بين المماليك وبين المغول وأحلافهم ، ومن ذلك ما جاء في رد الناصر على غازان بعد هزيمة الأول عام ٦٩٩هـ ، حيث قال :"ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع ، وينتصر بالتابع والمتبوع ، وحشد وجمع من كل بلد ، واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن ، واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح وألكن"(٧) .

ومن آثار تلك التحالفات في الرسائل ما نقف عليه من تقريع لمن ساعد الأعداء ، وسخرية منه ، وتذكير بما قد يصيبه جراء ذلك . قال الشهاب محمود في رسالة إلى ملك الأرمن بعد هزيمة التتار عام ٧٠٢هـ، وكان قد ساند المغول :"ولقد عرض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطوتها في أمان ، ووثق بما ضمن له التتار من نصرة ، وقد رأى ما آل إليه أمر ذلك الضمان، وجر لنفسه بموالاة

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٧١ ، السلوك ١ : ٣١٣ .
(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، دار المسيرة، بيروت ط١: ٢٥٦ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٩٣ ، السلوك ١ : ٣١٣ .
(٤) ذيل مرآة الزمان ١ : ٣٦٢ - ٣٦٤ ، كنز الدرر ٨ : ٥٢ ، الجوهر الثمين ٢ : ٦٠ ، السلوك ١: ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٨٠-٨١ .
(٥) جيل من النصارى كانوا يسكنون جبال القبق ، ثم قويت شوكتهم فملكوا مدينة تفليس (معجم البلدان ٤ : ٤٤٦) ، وقال فيهم ابن فضل الله العمري : "صليبة دين الصليب ،... وهم للعساكر الهولاكوية عتاد وذخر" (التعريف بالمصطلح الشريف :٧٨) .
(٦) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ ، وانظر ٧ : ٣٩٣ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٧ .
(٧) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ .

التتار عناءً كان عنه في غنى ،وأوقع روحه بمظافرة المُغل في حومة السيوف التي تخطفت أولياءه من هنا ومن هنا ، واقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه ، واغتر هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره"(١) .

وتدل هذه الإشارات ، على الرغم من قلتها ، على وعي الكتاب لما كانت تواجهه الأمة الإسلامية في صراعها مع الغزاة ، وعلى تنبه القادة إلى طبيعة الصراع ، واطلاعهم على أبعاده المختلفة ، ويمكن أن نفهم رفض المظفر قطز طلب الصليبيين في عكا السماح لهم بالمشاركة في معركة عين جالوت ضد المغول بهدي مما تقدم ، وقد صدق حدسه ، حيث كاتبوا المغول ليعلموهم بوصول جيش المماليك إلى غزة في طريقه لحربهم(٢) .

ونرى في الرسائل الجهادية وصفاً لقوة العدو ، وحشود جيوشه ، واعتنائه باختيار الفرسان والمقاتلين ، ويكون هذا الوصف قبل المعركة وفي أثنائها .

والحديث عن قوة الأعداء ليس من ابتداع الكتاب في عصر المماليك ، بل قال فيه الكتّاب والشعراء قبل ذلك(٣) ، وهو ، فيما أرى ، ذو اتصال بهدف قصدوا إليه ، إذ اتخذوا منه مدخلاً لإبراز قوة الجيش المسلم ، وعلوّ همته ، وتعظيم قيمة النصر وأثره ، كما جعلوه أساساً للمبالغة فيما لحق بالعدو من خسائر بعد المعركة .

قال محيي الدين يصور منعة أنطاكية بين أسوارها ، وكثرة من فيها من المقاتلين ، واستعدادهم للمقاومة بما يملكون من عتاد وسلاح : "رأينا مدينة يجتمع في داخل سورها الإنس والوحش والطائر ، للاستيطان والبادي والحاضر ، تحف بها أسوار لايقطعها الطائف في يوم سيرا ، ولايدرك الناظر من أولها لها أخيرا ، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب ينسلون ، ومن كل هضبة ينزلون ، وفي ظلال كل مطهّم يتقيّلون"(٤) .

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٢٦١ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٩٣ ، السلوك ١ : ٤٣ .
(٣) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ١٤٠ .
(٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٣ .

ووصف الشهاب الحلبي جيوش المغول في مرج الصفر بأنها كالرمال عدداً ، وكالجبال صلابة وقوة ، وبأنهم كانوا في "مائة ألف ينصبّون انصباب السيل ، ويعلون الجبال على ظهور أشد منها من الخيل"(١) .

وأشار ابن عبد الظاهر إلى عناية المغول بانتقاء جنودهم في المعارك ، وشعورهم بالقوة ، وتراص صفوفهم قبل البدء بالنزال . قال فيهم قبل بدء المعركة في غزو قيسارية الروم :"فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ، وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبغا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحد لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيما الشجاعة وعرضهم لهذا السوْم"(٢) .

وفي رسالته مبشراً ملك اليمن بالنصر على المغول عام ٦٧٨ هـ ، وصف شجاعتهم وفروسيتهم ، وصور اهتمام قادتهم بحضور المعارك ، واختيار المقاتلين ، فذكر أنهم في ذلك اليوم :"جمعوا كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع لايألف غير ظهور الجياد من يوم مولده ، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا فيه ما ادخروا وما صانوا ، وسمحوا بأعزة أكابرهم ، ومقدمي التمانات(٣) الذين ما سُمع قط أنهم في معركةٍ هابوا ولاهانوا"(٤) .

وتظهر قوة الأعداء في الرسائل في أثناء المعارك ، ويصفهم الكتّاب بالبسالة والاستماتة ، والإباء والإقدام ، والثبات في مواطن الشدة ، والبراعة في القتال. وصف محيي الدين المغول في غزوة قيسارية بأنهم كانوا "يقاتلون قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، فكم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى ، وناضل ورامى ، وكم فيهم من شهم ما سلّم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم ، وذي سنان طارح به فما طرحه حتى تثلم ، وذي سيف حادثه بالصّقال فما جلى محادثةً حتى تكلم ، وأبانوا عن نفوس في الوغى أبيّة ، وقلوب كافرةٍ ونخوة عربية"(٥) .

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٦٢ ، وانظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٣١ .
(٣) جمع تومان (أو طومان) وقد عرفت به فيما تقدم .
(٤) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٣٢٤ .
(٥) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٥ .

وترى في رسائلهم مبالغةً في وصف ثبات الغزاة الصليبيين ، واستبسالهم على الرغم من أن المسلمين أثخنوهم بالجراح ، وحصونهم آلت إلى سقوط ، تلك التي ظنوا أنها مانعتهم من الله وجنده ، فكلما اشتد القتال ، وظهرت بوادر النصر عليهم ، "قاتلوا قتال مستقتل لايرى من الموت بدا ، وثبتوا متحابين يقدون ببيضهم البيض والأبدان قداً"(١) . كما وصفهم ابن العجمي في فتح صفد .

ومما وصف به الغزاة الجلد والصبر ، وتفضيل الموت على الهزيمة والفرار والأسر ، وهي صفات المقاتل الصلب ؛ لأن إظهار الجزع يغري به ، وركوب الساقين فراراً باب للقتل أو الأسر ، أو الهزيمة المؤلمة لمن ينجو برأسه . فالصليبيون يوم فتح حصن المرقب "لم يكسر لهم منجنيق إلا ونصبوا آخر بمكانه" ، وعندما حمي الوطيس "أظهروا الجلد ، وأخفوا ضرام نار الجزع"(٢) كما وصفهم الشهاب الحلبي .

ويبدو أن الصليبيين كانوا يتمسكون بحصونهم حتى آخر رمق ، ويحرصون على ألا يفيد منها أعداؤهم المسلمون بعد تسليمها إليهم ، ولذلك كان بعضهم يعمد إلى تدمير الحصن وحرق ما فيه بعد اليأس من الدفاع عنه . قال ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف :"فلما رأوا بأسنا شديداً ، وشاهدوا حزمنا عنيداً ، وعزمنا مبيداً ، والأسوار يتسورها الرّجال ، والمجانيق تحف بهم عَن اليمين وعن الشمال ،... ، حرقوا ما بالقلعة من مضمون ، وأضرموا بها نيراناً أعجب شيء كونها لم تطف بما أجروه من الجفون"(٣) .

ووصف الكتّاب العدو المغولي بأنه غادر مخادع ، يتحيّن الفرص لنقض العهود ، وينقضّ على البلاد الإسلامية في لحظة غفلة ، ويعد العدة للقتال في الأوقات التي يظهر فيها الموادعة والمسالمة ، ولم أقف على وصف الصليبيين بهذه المواصفات ، وعلة ذلك ، فيما أرى إعلان المغول إسلامهم ، حيث أصبح تعامل المماليك معهم مختلفاً نوعاً ما ؛ إذ كثيراً ما ترددت الرسل بين الجانبين بعد عام ٦٨٠ هـ كما تقدم ، أما الصليبيون، فقد كان الموقف منهم محسوماً لم يتغير .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٠٣ ، صبح الأعشى ٧ : ٣٨١ .
(٢) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ ، والسلوك ١ : ١٠٠٣ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢: ٣٨٠ ، وانظر تاريخ ابن الفرات ٧: ٢٢٤ ، نهاية الأرب ٥: ١٦٣ .

وقد علل الناصر هزيمته أمام المغول عام ٦٩٩ هـ بخداع المغول ، لجيشه وتظاهرهم بالإسلام ،فلبسوا عباءة الدين في وقت ضعفهم . قال: "ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة ، وتحققوا أنكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص ، وخدعتم باليمين والإيمان ، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الشيطان ، اجتمعوا وتأهبوا..."(١) .

ويبدو أنّ غازان استعمل الحيلة قبل تلك المعركة ، فأرسل إلى الناصر في طلب الصلح ، وطلب منه أن يوفد إليه رسلاً ليسمعوا ما يريده ، لكنه كان يجهز جيوشه لغزو الشام بمجرد وصول الرسل . قال الناصر :"فما كان إلا عند وصول رسلنا جهزت عساكرك وأظهرت الغدر لنا"(٢) .

ويصورهم الشهاب محمود في رسالته إلى ملك الأرمن بعد نصر ٧٠٢ هـ بأنهم ماكرون ، تقودهم أطماعهم ، ويحدوهم الأمل في الاستيلاء على البلاد ، وإذلال العباد ، ولايقيمون على حال إلا ريثما يتحولون ، وبأنهم يحزبون الأحزاب ، وانهم "أقاموا مدة يشترون المخادعة بالموادعة ، ويسرّون المصارمة في المسالمة ، ويظهرون في الظاهر أموراً ، ويدبّرون في الباطن أموراً"(٣) .

وتشتمل الرسائل الجهادية على وصف الغزاة بالجهل وسوء التقدير، وعجبهم الشديد بقوتهم وكثرتهم ، وخفة العقول التي تورث الهلاك ، وتؤدي إلى سوء المنقلب ، وربما كان ذلك وسيلة اتخذها الكتّاب لتبرير نتيجة المعركة بنصر المسلمين ،على الرغم مما يوردونه من صفات البسالة والإقدام في أعدائهم .

وصف أحمد بن الأثير ما أدى إليه عُجب الصليبيين في حصن المرقب من سوء العاقبة قائلاً : "وأصحابها الذين بدأوا بالسنان ، وقعقعوا لنا بالشّنان ، وامتدت لهم الأيدي والألسنة ، وجعلوا السيئة مكان الحسنة ، طمعوا بالبلاد وارتجاعها ، وارتادوا موارد الحرب على بعد أشجاعها ، واستلانوا من عسكر حصن الأكراد جانبا ظنوا به الغَلَب ، وفعلوا أمراً عادوا منه بسوء منقلب ، وصاروا

---

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) كنز الدرر ٩ : ١٢٠ .
(٣) صبح الأعشى ٨ : ٢٦٠ .

يتكلمون من رؤوس ملأى من الجهل"(١) .

وتظهر هذه الصورة للمغول في الرسائل جلية واضحة ، فالمغول كانوا أشد اعتداداً بأنفسهم ، ذلك بما زرعوه من رعب في قلوب الناس بعد المعارك التي انتصروا فيها . قال محيي الدين في البشارة بالنصر عليهم عام ٦٧٨ هـ بأنهم "ملأوا الأقطار رعباً ، والبلاد سلباً ، وأتوا المنازل كما تأتي الزلازل ، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل ، وامتدوا معتقدين أنهم مستحقون للممالك والأمصار ، مستخفين* بالملوك والأنصار ، واثقين* بأنهم لاينجو منهم سكان البراري ولا القفار ، ولا المحتجبون بأسوار البحار"(٢) .

ويسخر الناصر من أوهام غازان وأطماعه باحتلال الشام ومهاجمة مصر ، والقضاء على حكم المماليك ، فما كان من تلك الأحلام إلا الحسرة والكمد . قال يخاطبه مستهزئاً :"وكأنْ خيّلت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ،صدقت،ولكن على غير حالة مَرْضِيّة "(٣).

وامتداداً للصورة المتقدمة المتمثلة في جهل الغزاة وعُجبهم ، تظهر الرسائل لحظات الضعف التي كانت تعتري قواهم في أثناء المعركة ، وهي اللحظات التي يبدأ فيها الموقف بالتحول ، إذ يدْبّ الرعب في قلوبهم ، ويجد الوهن إلى نفوسهم سبيله ، فتتقاعس هممهم ، وبخاصة عندما يرون تنظيم الجيش الإسلامي ، واكتمال تجهيزاته وتراصّ صفوفه .

وصف ابن عبد الظاهر التتار عندما رأوا الجيش الإسلامي قبل فتح قيسارية الروم بأنهم "رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلّوا ، وسُقط في أيديهم ورأوْا أنهم قد ضلّوا ، (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)(٤) ، وعلى الموت يتراسلون"(٥) .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٨ .
* في الأصل بالرفع والمعنى به لا يستقيم .
(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٣١ ، صبح الأعشى ١٤ :١٦٨ .
(٣) كنز الدرر ٩ : ١٢٢ .
(٤) سورة الصّافّات : ٢٧ .
(٥) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ .

ويصف ابن تيمية خوفهم في رسالته إلى الناصر بأنه وصل حداً جزعوا فيه من أحد الأمراء خرج إلى الصيد ، "حتى صاروا يريدون أن يظهروا زي المسلمين لئلا يؤخذوا"(١) .

ويصف الشهاب محمود رعب الصليبيين في أثناء فتح المرقب بأنهم أصبحوا لا يشعرون بما حولهم ،.ولا حتى بأجسادهم لشدة الفزع ، وأصبح الموت كابوساً يطرقهم في نومهم ، فطلقت عيونهم الكرى خشية الأحلام المفزعة(٢) .

ولم يكن الرعب مخصوصاً بالجند ، بل كان نصيب القادة منه عظيماً ، فهم أشد تأثرا بما يحلّ بجيوشهم ، ويصيب ما يحتلّونه من بلاد ، ومن ذلك وصف ابن عبد الظاهر ملك طرابلس بعد فتح أنطاكية التابعة له ، إذ قال بعد وصفه لما حدث لجيشه ولأهل طرابلس(٣) : "هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا ، قلت فَزِعاً : عليّ هذا الصوت" (٤) .

وتجدر الإشارة إلى أن ما حقّقه المماليك من انتصارات متوالية على أعدائهم أكسبهم ثقة عالية بالنّفس ، وأورث أعداءهم خوفاً مستمراً ، فالمغول الذين اشتهروا بسفك الدماء ، وإثارة الرعب في قلوب النّاس ، أصبحوا بعد انتصارات قطز وبيبرس وقلاوون عليهم وقد "قصّرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم ، والظنّ إذا رجّم ، وصارت رؤية الدماء تفزعهم ، فلو احتاج أحدهم لتنقيس دم المريض ، لأحجم من خوفه وما احتجم"(٥) . كما وصفهم ابن عبد الظاهر في رسالة بشرى إلى اليمن .

وكذلك الحال بالنسبة لأحلافهم الأرمن ، فبعد مرج الصّفّر عام ٧٠٢ هـ "حلّ بالنّيل منهم الويل ، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعدٍ ، إلاّ وشمّر هو من الذلّ الذّيل"(٦) .

---

(١) رسالة ابن تيمية إلى الناصر : ١٧ .
(٢) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٨ .
(٣) ناوش الظاهر بيبرس طرابلس أوّلاً قبل فتح أنطاكية ، انظر الروض الزاهر : ٣٠٨-٣٠٩ .
(٤) الروض الزاهر :٣٠٩ - ٣١٠ .
(٥) نفسه : ٣٠٩-٣١٠ .
(٦) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٣ .

والرعب في مواقف النزال أول طريق الهلاك والندم ، وبخاصة بعد أن يرى المقاتلون ما حل بهم ، وأن الدائرة عليهم ، فيفرعون للندم سناً ، ويتحسرون على ما أصابهم ، وعلى ما فاتهم من السلامة ولات حين مندم ، كما وصف ابن عبد الظاهر المغول بعد عين جالوت(١) .

كما تصور الرسائل لجوء الأعداء إلى الفرار عندما يشتد القتال ، وإدبارهم بعد إقبالهم ، وهروبهم إلى الأوعار ظناً منهم أنها من الجيش المسلم عاصمتهم ، وليس الفرار هم الجنود وحسب ، بل وقادتهم كذلك . والمسلمون في أثناء ذلك الاضطراب في صفوف أعدائهم يلاحقونهم ، فيقتلون من يقتلون ، ويأسرون من يأسرون . قال الشهاب محمود في بشارته بالنصر في مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ إن المغول بعد أن حمي الوطيس بدأوا "يطلبون الفرار ، ويتوقعون القتل إن تعذر الإسار ، ... ، وتقاذفت بمن نجا منهم الفلوات ، وغرقتهم أمواج السراب قبل أمواج الفرات ، فأخذوا قنصاً باليد من بطون الأودية ورؤوس الشعاب ، ولم يحمل أحد منهم على الغنيمة بالإياب ، وقتل أكثر مقدمي التمانات ، وفر كبيرهم وأنى له الفرار؟" (٢) .

وأكثر ملامح ضعف الأعداء بروزاً ما يذكره الكتاب عن تضرعهم وتذللهم إلى السلطان طلباً للأمان ، وإعلاناً للاستسلام ، وإذعاناً بعد العجرفة والاعتداد بالنفس ، وهي ، لا شك ، أدل الصور على الضعف والهوان ، ويختم الكاتب تلك الصورة بعفو السلطان عنهم ، ونصبهم الرايات الإسلامية على حصونهم بدلاً من راياتهم . وصف ابن العجمي تذلل الصليبيين في صفد ، بعد إدراكهم أن لا مفر ، بقوله : "صار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى تمنيهم ، فعدلوا عن القتال إلى السؤال ، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال ، وتداعوا بالأمان صارخين ، وجاؤوا بدعاء التضرع لاجئين ، فأغمد الصفح عنهم ببيض الصفاح ، وقاتلوا من التوسل بأحد سلاح ، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرفوا بها

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٦ ، وانظر النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٤ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ .
(٢) نهاية الأرب ٥ :١٦٣ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ٢ :٣٤١ ، صبح الأعشى ١٤ :١٦٩ .

الشّرفات ، ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات"(١) .

وترى في الرسائل الجهادية وصفاً لما حل بالعدوّ ، ويصوّر الكتّاب ما أوقعه المسلمون بأعدائهم من قتل وأسر لملوكهم وقادتهم وجنودهم ، والدّمار الذي أتى على قلاعهم ، والغنائم التي استولى عليها الجيش المسلم بعد المعركة .

جاء في رسالة بفتح أرسوف عنوةً على يد بيبرس عام ٦٦٣ هـ قول كاتبها : "واستولينا على جميع أهلها ، فأضحى كل منهم من القيد في وثاق ، وأضرمنا بها النيران ، فعجّل الله لهم بها في الدنيا قبل الآخرة الإحراق ، وجرّعناهم غُصَص الموت ، فتجرّعوها مرّة المذاق ، ... ، فلم يفلت منهم أحد ، وعاجلناهم في هذه المدة القريبة فلم يُغنهم ما فعلوه في تحصين البلد ، ولم يُمْسِ أحد منهم في ليلة الجمعة وقد نجا من القتل إلا وهو أسير ، واحتطنا بهم فما نجا منهم ، بحمد الله ، صغير ولا كبير"(٢) .

وقد كانت صورهم مثيرة للحسرة والألم في نفوس الأعداء ، وللفرح والبهجة في نفوس أهل الإسلام ، وبخاصة في تلك الرسائل التي بشّروا فيها بالنّصر على أعدائهم ، وتلك التي سخروا فيها من أعدائهم بعد التغلّب عليهم . قال محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته إلى بيمند ساخراً مستثيرا له بعد فتح انطاكية : "فلو رأيت خيّالتك وهم مرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنّهّابة فيها تصول والكسّابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، وداماتِك وكلّ أربّع منهنّ تباعُ فتشترى من مالِك بدينار ،...، ولو شاهدت النيرانَ وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالَها قد حالت"(٣) .

ويذكر محيي الدين في رسالته المطوّلة بفتح قيساريّة الروم ، أن الجيش عرج على مكان المعركة مع المغول بعد العودة من قيسارية فرأوا جثث القتلى وهي متناثرة في أرض المعركة ،وقد تناوشتها الكواسر فمزّقتها ، وتعفّنت لتركها في

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، وانظر ٢ : ٤٤٨-٤٤٩ ، صبح الأعشى ٧ : ٣٩٨ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، السلوك ١ : ١٠٠٤ .
(٢) نفسه ٢ : ٣١٩-٣٢٠ ، السلوك ١ : ١٠٣٣ .
(٣) الروض الزاهر : ٣١١ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٦ ، ١٤ : ١٦٧ ، والسلوك ١ : ١٠٠٤ .

العراء ، وأقامت الحشرات على ما تبقّى منها ، ولعبت الرياح بما تبعثر من أشلائها ، وأقامت البوم تندبهم(١) .

كما يصور في رسالته المبشرة بالنّصر عليهم عام ٦٧٨هـ مصير ملوكهم وقادتهم ، فمنهم من قُتل ، ومنهم من سيق أسيراً مُكبّلاً بالسلاسل ، وقد ذهلوا لهول ما رأوه في المعركة ، وتقطّعت أمعاؤهم حسرةً على ما آل إليه أمرهم . قال : "وقُتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم ، فعجّل الله بأرواحهم إلى النّار ، وثنى مولانا السلطان العِنان وملوك المُغل الأسرى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى ، وقد أثمرت رؤوس الرماح بكل بطل كم كان يحسُن رأسا"(٢) .

- وصف الحصون

تقدّمت الإشارة إلى أن رسائل البشارات بالنّصر على الصليبيين لا تكاد تخلو من وصف القلاع والحصون التي حررها المسلمون ، وإلى أنّ ذاك الوصف كان يُقصد به زيادة السرور بالفتح ، وإبراز قوة الجيش المسلم وهمّة قائده .

ويغلب على هذا الوصف المبالغة في الحديث عن ارتفاع الحصون الشاهق ، ومنعتها لموقعها في قمم الجبال الشامخة ، فهي تسامي السماء وتكتنفها السحب ، وتخالط أبراجها البروج والكواكب ، وما أجمل وصف الشهاب الحلبيّ لحصن المرقب ، إذ جعل منه عروساً تلبس من النجوم أقراطا ، وتتحلى بالكواكب زينة! قال : "قد تقرّط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس إذا علت أنها تتنقّل في أبراجه ، ويظنّ من سها إلى السّها أنّه ذُبالةٌ في سراجه ، لا يعلوه من متبرّجات بروجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف في أنجمه ، وحوله من الجبال كلّ شامخ يتهيّب عقاب الجوّ قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقّلت في هضابه ، تخاف العيون إذا ما رمقته سلوك ما دونه من المحاجر ، وتتخيّل الفكر صورة الترقّي إليه ثم لا تبلغها حتى تبلغ القلوب

---

(١) صبح الأعشى ١٤: ١٨٤ ، ١٨٥ ، وانظر كنز الدرر ٩: ١٢١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٥ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ١٦٨ ، السلوك ١ : ١٠٣٣-١٠٣٤ ، ١٠٣٨ .

الحناجر" (١) .

وممّن وصف حصن المرقب محيي الدين بن عبد الظاهر . قال في قلعته متأثراً ببعض الآيات الكريمة : "وهذه القلعة لها بالنجم مناط ، وبالسحب ارتباط ، ولها على الدهر اشتراط ، ولبروجها ببروج السماء اختلاء واختلاط ، كم يسهو إليها السّها ، ولولا المغالاة - واستغفر الله - لقلت تكاد تستظلّ بسدرة المنتهى ، كأنما الرياح لجيدها مخنّقة ، والغيوم لخصرها منطّقة ، ... ، مصونة السّرح ، كأنّها ما تمنّاه فرعون على هامان من صرح" (٢) .

وقد يمزج الكاتب في وصفه للحصن بين منعة موقعه ، وبين الأذى الذي يسبّبه لبلاد المسلمين من حوله ، مما يعطي فتحه قيمة أكبر ، ويزيد البهجة بحصوله . وصف محيي الدين حصن الأكراد بأنّه كالشوكة في الحلق ، وبأنّه مصدر قوة الصليبيين التي تنشر الفزع والرّعب في قلوب المسلمين بقوله : "... كان في حلق البلاد الشاميّة غصّة لم تسغ بمياه السيوف المجردة ، وشجاً في صدورها لم تقاومه أدوية العزائم المفردة ، طالما أكسب البلاد رعباً ورهبا ،... ، وكم صان كفراً في بلاد الإسلام وحماه ، وكم ابتنى منها ببكر أساء صحبتها فما خشي معرّة ولا خاف حماة ، قد سما إلى السماء فلا أمل إليه يمتد ، وعلا في الهواء فلا بصر يلمحه إلاّ وينقلب خاسئاً عنه ويرتد" (٣) .

ولربّما جمع الكاتب إلى ما تقدم من عناصر الوصف فشل محاولات فتح الحصن المتقدمة ، وقد أبدع محيي الدين في تصوير منعة طرابلس وإبائها الخضوع لكل من حاول تحريرها ، بدلال المرأة الجميلة ، وتمنّعها على عاشقيها ، كما أبدع في وصف علوّها ومكانها من البحر ، فجعلها امرأة تتجلبب بالبحر وتختمر بالسحاب . قال : " البحر لها جلباب والسحاب لها خمار ، وليس لها من البرّ إلاّ بمقدار ساحة الباب من الدار . كأنّها في سيف ذلك البحر جبل قد انحطّ ، أو ميل

---

(١) حسن التوسّل : ٣٤٩ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٩ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ .
(٢) تشريف الأيام والعصور : ٨٥ ، وانظر صوراً أخرى في وصفه : ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٣-٢٤٤ ، ٢٥٤-٢٥٥ ، مطلع الفوائد : ٤٩١ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٤٥ ، وانظر : ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، صبح الأعشى ٧: ٣٨٠ .

استواءٍ قد خرج عن الخطّ ، ما قصد أحد شطّيها بنكاية إلا ّ شطّ واشتطّ"(١) .

- وصف الأسلحة وأساليب القتال

اهتم الكتّاب في رسائل الحرب بوصف الأسلحة كالمنجنيقات والسيوف والرماح والقسيّ والسّهام ، كما اهتمّوا بوصف الأساليب القتالية والحيل العسكرية في ساحة المعركة ، مثل نقب الأسوار ، وحصار القلاع ، ووصفِ السفن الحربية .

والمنجنيق أهم الأسلحة المستخدمة في فتح الحصون ، ولا تكاد رسالة بشارة بفتح حصن تخلو من وصفه ، وبيان أثره في الأسوار ، فلا تلبث الحجارة وكرات النفط المشتعلة تتوالى على الحصن حتى تتصدع الأسوار ، وتتداعى الأبراج ، وقد استعاروا لوصف المنجنيقات صوراً جميلة معبرة ، ومن ذلك قول ابن العجميّ في فتح صفد : "..، ثمّ وكلنا به من المجانيق كلّ عالي الضوارب ، عاري المناكب ، عبل الشّوى ، سامي الذّرى ، له وثبات تحمل إلى الحصون البوائق ، وثبات تزول دونه - ولا يزول - الشواهق ، تُرفع لمرورها الستائر فتدخل حجارته بغير استئذان ، وترضخ لنزوله رؤوس الحصون فتخرّ خاضعة للأذقان ، فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها ، ويقبّل ثنيّات ثغره حتى أبدى ثرمها"(٢) .

ومن الصور الجميلة للمنجنيقات وأثرها في الحصون قول تاج الدين أحمد بن الأثير في رسالته بفتح حصن المرقب : "والمنجنيقات تفوّق إليهم سهامها قسيّها ، وتخيّل لهم أنها تسعى إليهم حبالها وعصيّها ، وهي والحصون من ألدّ الخصوم ، وإذا أمّت معصماً لهم علّمتهم أنّه ليس بإمام معصوم ، ومتى افترى خلقٌ في آلات الفتوح التي لم يكن فيها أحد من الممترين ، وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين، تدّعى إلى الوغى فتكلم ، وما أقيمت صلاة حرب عند حصن ، إلاّ كان ذلك الحصن من يسجد لها ويسلّم"(٣) .

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٤ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ .
(٣) نفسه ٤ : ٢٤٨ ، وانظر ٢ : ٣٤١ ، ٣٧٩ ، ٤٤٧ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٩ .

ويبدو من هذه الرسائل أن المسلمين كانوا ينقلون المجانيق إلى مكانها الذي تضرب منه مفككة أجزاؤها ، حتى يسهل حملها من مكان لآخر ، ثم يقومون بتجميع هذه الأجزاء . قال ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف بأن انتظار الجيش لأمر بيبرس بالهجوم طويلاً جعل الجنود يضجرون حتى "صارت السهام في كنائنها تقلق ، وأخشاب المجانيق لتفرق أجزائها تفرق" ، وبعد أن صدر الأمر "اجتمعت أعضاء المجانيق المنفصلة ، وتخطت في الهواء كفاتها المنتعلة ، واعتزلت كل فرقة من أوليائنا بمنجنيق تثقيمه ، وأعجب شيء أنها الظاهرية وأصبحت المعتزلة ، وعن قريب أهوت إلى الأعداء محلقة صقور الصخور ، وتتابعت حجارتها إليهم عندما خصلت من المجانيق ما في الصدور ، فبعثرت من أجسادهم المرسومة في القلعة ما في القبور"(١) .

كما يبدو من بعض الرسائل أن المجانيق كانت تصنع أحياناً في ساحة المعركة بدلاً من نقلها مسافات طويلة ، إذ تقوم فرقة من الجيش مختصة بانتقاء أخشاب من الأشجار وتنقل إلى المكان المحدد للمنجنيق فيصنع ، قال محيي الدين في رسالته بفتح طرابلس : " فما لبثوا إلا بمقدار ما قيل لهم دونكم والاحتطاب ، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ، حتى جروها بأسرع من جر النفس ، وأجروها على الأرض سفائن وكم قالوا : السفينة لاتجري على يبس ، وفي الحال نقلت إليهم فرأوا من متوقلها من يمشي بها على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع" (٢) .

ومن الكتاب من استعار لها من غزل الأحباب ونظراتهم صورة ، فإذا تدللت الحصون راسلتها المجانيق بحجارتها ، وأصابت حشاياها سهامها ، فما يلبث الحصن أن تلين عريكته . قال الشهاب الحلبي في رسالته بفتح المرقب : "وقد كان نصب عليه من المجانيق ما سهامه أنفذ من سهام الجفون، وخطراته أسرع من لحظات العيون ، لا يخاطب إلا بوساطة رسله بضمير الطلاب ، ولا يرى لسان سهمه إلا كما ترى خطفات البرق إذا تألق في علو السحاب"(٣) .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ ، وانظر صبح الأعشى ٧ : ٣٨١ .
(٢) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٥ ، السلوك ١ : ٩٧٢-٩٧٣ .
(٣) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ ، وانظر : ٣٩٨ ، التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٧٠ .

وترى في الرسائل وصفاً للسيوف والرّماح والقسيّ والسهام والسّناجق(١) ، وتجدرُ الإشارة إلى أن عناية الكتاب بوصف هذه الأسلحة أقلّ من عنايتهم بوصف المجانيق وأساليب القتال ، ومن الصور الجميلة لهذه الأسلحة مجتمعة قول ابن العجميّ في رسالته بفتح الشقيف : "وأقامت السمهريّة ترمقهم بزرق عيونها ، والمشرفيّة تتناعس لاستنامتهم بتغميض جفونها ، وبقيت ألسنة السناجق في أفواه غلفها صامتة لسماع الزّحافات مصغية ، وكواسر الأساد في آجامها من الرماح السمهريّة مُقْعية ، وصارت السهام في كنائنها تقلق"(٢) .

ووصفوا السكاكين والسهام والكنائن والقيسيّ ، فجعلوا من القوس أمّاً ومن السهام أبناءها ، فإذا خرج منها السهم أنّت كأنّها ثكلى ترنّ وتعول ، وكأنّهم استمدوا وصف الشنفرى لها في لاميّته . قال الشهاب الحلبيّ : "ومن خصائص القوس أنها عقيم ذات بنين ، صامتة وهي ظاهرة الأنين ، لها كبد وهي غير مجوفة ، ويدٌ لا تملك شيئاً وهي في الأرواح مصرّفة ، ورجلٌ ما نقلت قدما ، وقبضةٌ ما عرفت إثراءً ولا عدما ، فهي نونٌ ما ألف الماء ، وهلال ما سكن السماء ، وقاتلةٌ ما باشرت الدماء"(٣) .

وقد كانت المعارك البحرية التي خاضها المماليك ضد أعدائهم قليلة ، فلم أقف على رسائل في وصف معركة بحرية ، سوى إشارات إلى غرق بعض المراكب التي أرسلها بيبرس عام ٦٦٩ هـ لفتح قبرص في أثناء غياب ملكها عنها ، ولم تتعدّ تلك الإشارات وصف السفن بالحديد والخشب تهويناً للهزيمة على النفس ، وللنصر في نظر العدوّ(٤) ، ووصَف ابن أبي حجلة لسفن الصليبيين الذين غزوا الاسكندريّة عام ٧٦٧هـ ، ووصف ابن فضل الله العمري لها في كتابه التعريف .

قال ابن أبي حجلة يصف قدوم العدوّ بسفنه بينما كان أهل الإسكندرية في غفلة من أمرهم :"دهمهم بالثغر ما اصطكت به أسنانه ، ونعقت بالبين غربانه ، من كل

---

(١) واحدُها سنجق : وهو الرمح براية أو بغيرها (صبح الأعشى ٤ : ٨ ، ٥: ٤٥٨) .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ ، وانظر : ٣٨٤ ، صبح الأعشى ٤ : ٢٤٥ ، السلوك ١: ١٠٣٠ .
(٣) حسن التوسل : ٣٥٢ ، وانظر التعريف : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٤) انظر الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٨٦-٣٨٨ ، السلوك ١ : ٥٩٤ .

غراب(١) أسرع من عقاب ، وقرقورة(٢) أشأم من غراب ، وطريدة(٣) تحمل الخيول ، يقدمها أصطول(٤) أيّ أصطول ، قطع متجاورات ، وغربان بأجنحة القلوع طائرات ، فاسودّ البحر الأزرق من بني الأصفر"(٥) .

ووصفها ابن فضل الله مستعيراً لها صفات الخيول والطيور بقوله : "وأطار من السفن كلّ خفيفة الجناح ، خفيّة الجماح ، تمدّ من القلوع أجنحة ، وتعدّ من المجاذيف أسلحة ، تجلّ أن تقاس بدهم الخيل ، أو تشبّه نجُبُه قلوعها المنتشرة بنهار أو ليل ، قد اتخذت سماء البحر ميدانا ، وحطّت على موجة البحر غربانا ، وشالت أنفها تتنسّم الأرواح ، ومدّت كفّها وكتب على الماء ما خطّت في الألواح، فكأن كل واحدة منها على البحر ثوب فيه قِصر ، وكأنّ الماء عين محدقة وهو فيها سواد البصر"(٦) .

وقد استوحى الكتّاب في وصف الحصار ، بوصفه أسلوباً قتالياً ، كلّ ما يمكن أن يشعر بإحكامه ، مثل إحاطة السّوار بالمعصم ، والجفون بالعيون ، والخاتم بالإصبع ، والشفاه بالثغر ، والنّطاق بالخصر ، والطوق بالعنق ، والعمامة بالرأس . ومن ذلك قول ابن العجميّ في رسالته بفتح الشقيف : "قد سيّرنا إليها العساكر الشاميّة تمسك منها بالخناق ، وتأخذ منها بمجامع الأطواق ، فحفّت بها كما حفّت الخواتم بالخناصر ، أو كما حفّت العيون بالأهداب ، ودارت حولها سوراً ما له من باب ، وأحدقت بثغرها إحداق الشفاه بالثغور ، وأطافت بها قبل إطافتنا كما يطوف البند قبل المنطقة بالخصور"(٧) .

وبالغوا في وصف إحكام الحصار ودقته ، فجعلوا سيطرة جيش المسلمين تمتد لتطول الهواء فتمنعه من الوصول إلى المحاصرين ، والشمس فحجبوا ظلّها عنهم .

---

(١) نوع من السفن الحربية شديدة البأس ، انظر السفن الإسلامية على حروف المعجم ، درويش النخيلي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م : ١٠٤ .
(٢) سفن حربية مخصصة لنقل المؤن والإمدادات (السفن الإسلامية : ١٢٠) .
(٣) سفن مخصصة لنقل الخيول (السفن الإسلامية : ٢) .
(٤) تطلق على سفينة القيادة ، وعلى مجموعة السفن (السفن الإسلامية : ٨٩) .
(٥) تذكرة التنبيه ٣ : ٢٨٩ .
(٦) التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٢٥ .
(٧) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ ، وانظر : ٣٧٥ ، ٤ : ٢٥٢ ، ٢٥٦ .

قال ابن العجمي" يصف حصار صفد : "زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنّطاق بخصره ، ودرنا به حتى عدّنا كالنشام بثغره ، وأمطرنا عليه من السهام وبلاً سحّت ذيول سحُبه المتراكمة ، وأجرينا حوله من الحديد بحراً غرقه أمواجه المتلاطمة ، وضايقناه حتى لو وفد النسيم وصولاً إليه لما تخلّص ، أو رام ظلّ الشمس أن يعود عليه فيئاً لعجز ؛ لأخذنا عليه أن يتقلّص"(١) .

كما اهتموا بوصف نقب الأسوار ، وهو أحد الأساليب القتالية المستخدمة في علاج الحصون في أثناء حصارها ، ويلجأ الجيش المحاصر له لمحاولة الدخول إلى داخل الحصن لفتح أبوابه ، ولمساعدة المجانيق في هدم الأسوار ، وعادة ما ينقب النقابون حفرة ثم يحشونها بالحطب ويوقدونه . وقد شبّه الكتّاب هذه النقوب بالمرض الذي يعتري سقامه الأسوار ، فهي تسري فيها سريان السقام من عضو لآخر ، حتى يخرّ السور مثل العليل انهارت قواه ، ومثل سريان الخمر في مفاصل شاربها فلا يقوى على الثبات ، وما يشعله النقابون من نيران في الأسوار شبّهوه بالحمى التي تأتي على قوى المريض ، ولهيب العشق الخفي" . قال الشهاب محمود يصف أثر النقوب في أسوار حصن المرقب : "والنقوب قد دبّت في باطنه دبيب السقام ، وتمشت في مفاصله كما تتمشى في مفاصل شاربها المدام ، وحشت أضالعه ناراً تشبه نار الهوى ، تحرق الأحشاء ولا يبدو لها ضرام"(٢) .

ويشبّه محيي الدين بن عبد الظاهر النقابين وأدواتهم بالجراحين ومباضعهم ، ويشبه الحصن بالمريض أعياه داؤه فلم يبقَ له سوى استئصال أعضائه التالفة . قال في بشارته بفتح حصن الأكراد : "وما برح النقابون حتى سروا في ضمائرها سريان الدم في مفاصل الإنسان ، وفصدوا بمباضع قطّاعاتهم عروق تلك الأبدان" حتى أصبحت النقوب "داءً معضلاً لا يجد العدو إليه من فتكاته دواءً مؤصلاً ، تنمو بتنقيص المواد أخلاطه ، ولا يُرجى ببحارٍ من الأمطار المرسلة انحطاطه ، حتى تحللت من الحصن المذكور قواه ، واحترقت حماةُ من النيران الموقدة بأحشاء حماه"(٣) .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ .
(٢) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ ، وانظر : ٣٨١ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٤٦-٤٤٧ .

أما ابن العطّار ، فقد شبه عمل النقّابين في الأسوار بعمل الخُلد في الأرض حتى انهارت . قال في رسالته بفتح المرقب : "والنقّابة تعمل من خوارجها في داخل بنيانها عمل الخلد في الأرض حتّى أخلدها الله إلى الأرض ، ونقضت النقوب نظام أساساتها فانحلّت ، وألقيت النار في أحشائها فألقت ما فيها وتخلّت"(١) .

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٥ ، وانظر ٢ : ٣٤١ .

بناء الرسالة

يسترعي النظر في رسائل هذا العصر اهتمام الكتاب فيها ببنائها على اغراض ومقاصد تنبع من الموضوعات التي عبروا عنها ، الأمر الذي يدل على أن كثيراً منها كان يحتاج عناءً في تدبيجه ، وحرصاً على ائتلاف أقسامه ، كما يدل على وحدة الموضوع في الرسالة .

ومن شروط الرسالة الجيدة براعة الاستهلال ، واتساقها مع المقصد الذي تبنى عليه الرسالة ، فعلى الناظم أو الناثر "أن يأتي في ابتداء كلامه ببينة أو قرينة تدل على مراده في القصيدة ، أو الرسالة ، أو الخطبة ، أو معظم مراده ، والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ؛ ليبني كلامه على نمق واحد دل عليه من اول وهلة ، عُلم بها مقصده ، إما في خطبة تقليد ، أو دعاء كتاب"(١) .

وكان من محاسن الافتتاحات في الرسائل أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ، أو بخبر من الأخبار النبوية ، أو ببيت من الشعر ، ثم يُبنى عليه الكتاب ، واشترطوا في هذه الافتتاحات أن تكون دالة على المعاني المقصودة ، "إن كان فتحاً ففتح ، وإن كان هناءً فهناء، أو كان عزاءً فعزاء"(٢) .

وذكر القلقشندي أن عادة الكتّاب جرت على أن تشتمل الرسالة على مقدمة يُفتتح بها الكلام ، وتكون "مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض"(٣) .

ويقف المطالع لرسائلهم على ما يحقق ما تقدم من آراء حول افتتاحات الرسائل بشكل عام ، وبخاصة في رسائل التولية والتعيين ، و الرسائل الإخوانية ، وبعض الرسائل الأدبية ، إذ تفتح رسائل التولية والتعيين بخطبة بحمد الله (٣) ، وعلى ذلك جرت العادة في المبايعات والعهود(٤) ، ومنه في تقليد بنيابة السلطنة

---

(١) حسن التوسل : ٢٥٠ - ٢٥١ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٣٤ .
(٢) المثل السائر ٣ : ٩٦ ، ١١٨، جوهر الكنز : ٢١٨ ، نصرة الثائر : ٨٧ ، ٣٥٥ .
(٣) صبح الأعشى ٦ : ٢٧٩ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٣٦ - ٣٣٧ .
(٣) التعريف بالمصطلح الشريف : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، صبح الأعشى ٩ : ٢٨٥-٢٨٧ ، ١١ : ٧٥ ، ١١٢-١١٣ ، ١٣ : ٢٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٧٥ .
(٤) التعريف : ١١٩ - ١٢٠ ، صبح الأعشى ١٠ : ٤٤ - ٤٥ .

بالكرك: "الحمد الله الذي جعل بنا الممالك محصنة الحصون ، محميّة بكل سيف يقطر من حده المنون ، مُمنّعة لاتتخطى إليه الظنون..."(١) .

ومن عهد بيبرس لابنه الملك السعيد الذي انشاه محيي الدين . قال في افتتاحه :"الحمدالله منمّي الغروس ، ومبهج النفوس ..."(٢).

أما عهود السلاطين عن الخلفاء فتفتتح بقول الكاتب "هذا عهد.."، ومن ذلك العهد الذي أنشاه علاءالدين بن عبدالظاهر عن الخليفة المستكفي بالله ابي الربيع سليمان للملك المظفر بيبرس عام ٧٠٨ هـ . قال في افتتاحه :"هذا عهد" شريف انتظمت به عقود مصالح المُلك والممالك ، وابتسمت الثغور ببيعته التي شهدت بصحتها الكرام الملائك.."(٣) ، وتجدر الإشارة إلى أن التحميد في هذه الرسائل يتكرر غير مرة(٤) ، فكثرته تدل على عظم النعمة(٥) ، وتسير على هذا النمط من الافتتاحات بعض رسائل البشارات(٦) .

أما الرسائل الإخوانية ، فقد تفتتح بأبيات من الشعر في معنى الرسالة ، ومنه قول الشهاب محمود مهنئاً أحد أصدقائه بالعيد(٧): (الطويل)

تهنّ فأيام السرور أواهل وكل مخوفٍ عن جنابك راحل .

وقد تفتتح الإخوانيات بالدعاء للمكاتب(٨) ، وذلك غالبٌ عليها، وعلى رسائل البشارات بالفتوح ووفاء النيل ، ومن ذلك قول ابن نباتة من رسالة تشوّق :"لازال الدهر يقضي خدمه ، ويمضي رأيه وسيفه وقلمه..."(٩) ، وقول الشهاب محمود في جواب عتاب :"زاد الله جنابه حنانا ، وأسبغ عليه إنعاماً وإحسانا.."(١٠) .

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ٢١٩ ، وانظر : ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ .
(٢) صبح الأعشى ١٠ : ١٦٧ ، وانظر : ١٧٠ ، ١٧٧ .
(٣) نفسه ١٠ : ٦٩ ، وانظر : ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٩ .
(٤) انظر الرسائل المتقدمة في التوثيق (٥) .
(٥) صبح الأعشى ١٠ : ٤٥ .
(٦) انظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ .
(٧) صبح الأعشى ٩ : ٤٧ .
(٨) الصناعتين : ٢٢٤ ،نصرة الثائر : ٥٣ ، صبح الأعشى ٦ : ٢٢٤ .
(٩) صبح الأعشى ٩ : ١٤٦ ، وانظر : ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ - ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٨٠ ، ١٨٢ .
(١٠) نفسه ٩ : ١٩٩ ، وانظر : ١٨ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٨٤ .

وافتتح ابن عبدالظاهر رسالته مبشراً بفتح أرسوف عام ٦٦٣ هـ ، بالدعاء لابن خلّكان قائلاً :" جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي ، وأسرّه بما أسمعه..."(١) ، وافتتح رسالته إلى ملك اليمن مبشراً بفتح صافيتا بقوله :"أعز الله نصرة المقام العالي المولوي السلطاني المظفري الشمسي ، وأشركه في كل بشرى"(٢).

وقد تفتتح الرسائل الإخوانية بتقبيل الأرض أو اليد(٣) ، ومنه قول ابن نُباتة من رسالة تعزية :"يُقبّل الأرض حتى بثغر الدمع ، ويسأل الله أن يحسن عن ذلك الفرد عز الجمع"(٤) .

وقد يقرن الكاتب في افتتاح الرسالة بين تقبيل اليد والدعاء ، مثل قول الشهاب في افتتاح رسالة تهنئة لصديق :"المملوك يُقبّل الباسطة العالية - بسط الله ظلها ، وشكر على الأولياء فضلها"(٥) .

وقد تفتتح رسالة البشرى ، و رسائل عهود الخلفاء للسلاطين بآية من القرآن الكريم تناسب الغرض ، وكذلك بعض الرسائل الإخوانية. ومن ذلك قول ابن العطار في افتتاح بشرى بفتح المرقب عام ٦٨٤ هـ :"نصر من الله وفتح قريب ، يسره الله بعزائم الجناب العالي لازالت عزائمه تسهل من النصر مراداً"(٦) ، ومنه في عهد المظفر بيبرس عن الخليفة أبي الربيع سليمان في المرة الثانية عام ٧٠٨ هـ . جاء في افتتاحه :"إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم"(٧)، وقول ابن مكانس في افتتاح رسالته الاعتذارية إلى ابن العجمي :"ليس على الأعمى حرج" . قال ابن حجّة في هذا الافتتاح : "إنه يستغني بهذه البراعة عن الرسالة"(٨) .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ ، وانظر : ٣٣٨ ، ٣٨٢ ، ٤ : ٢٢٤ .
(٢) صبح الأعشى ٧ : ٣٧٩ ، وانظر : ٣٨٦ ، ٣٩٢ ، تاريخ ابن الفرات ٧: ٢٢٣ ، نهاية الأرب : ١٥٦ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ .
(٣) المناعتين : ٢٢٥ ، نصرة الثائر : ٥٤ ، صبح الأعشى ٦ : ٢٧٦ .
(٤) مطلع الفوائد : ٤٨٠، وانظر : ٤٨٦ ، صبح الأعشى ٩ :١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٩٥ ، ديوان ابن الوردي : ٧٧ .
(٥) صبح الأعشى ٩ : ٧١ ، وانظر : ١٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٨٧ .
(٦) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٤ ، وانظر : ٩٥ وخزانة الأدب ١ : ٤٠-٤١ .
(٧) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٦٣ .
(٨) خزانة الأدب ١ : ٤٥ .

اما الرسائل الأدبية ، فإن افتتاحاتها تعتمد على كونها يكاتب بها أو لايكاتب ، وهي قريبة من افتتاحات الرسائل الديوانية والإخوانية . افتتح علاء الدين بن عبد الظاهر رسالة الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر بخطبة بداها بحمد الله قائلاً :"الحمدلله الذي أيد الدين المحمدي بناصره ، وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد..."(١) .

بينما افتتح محيي الدين بن عبدالظاهر رسالته في وصف غزوة الظاهر لقيسارية الروم بقوله :"يقبل الأرض بساحات الأبواب الشريفة السيّدية ... لازالت ركائب السيّر تحث إلى أرجائها السيئر"(٢) ، وهي تشبه افتتاحات الرسائل الإخوانية . ويكون حسن التخلص في الرسالة بذكر الفاظ تشعر بالانتقال من الافتتاح إلى الموضوع ، مثل اما بعد ، أو وبعد ، أو ولما كان فلان - وهي خاصة برسائل التولية والتعيين ، والمبايعات والعهود - أو كتبت ، أو وكتابنا ، أو هذه المكاتبة (٣) .

ومن ذلك قول الشهاب محمود بعد حمدالله والثناء عليه والصلاة على رسوله في تقليد بنيابة السلطنة :"اما بعد ، فإن أولى من فوضت إليه زعامة الجيوش بأسنى الممالك ..." ، ثم قال :"ولما كان الجناب العالي هو السيف الذي على عاتق الدولة نجاده..."(٤) .

ومنه قول محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالة البشرى بفتح أرسوف إلى ابن خلكان "جدد الله البشائر... . هذه المكاتبة تُبشر بنصر من الله وفتح قريب ، وهناء يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب"(٥).

ومنه قول ابن العطار من رسالة بشرى بفتح المرقب بعد الدعاء: "قد أحاط

---

(١) السلوك ١ : ١٠٢٧ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ١٨٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٥٨ .
(٣) إحكام صنعة الكلام ، الكلاعي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦م : ٧٨ .
(٤) صبح الأعشى ١٢ : ٢٠٣ ، وانظر : ٢٠٥-٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩-٢٢٠ ، ٢٢٢-٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ١٠ : ٥٣-٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٨-١٧٩ .
(٥) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ ، وانظر : ٣٣٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ - ٣٨٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤ : ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، صبح الأعشى ٧ : ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، نهاية الأرب ، ٥ : ١٥٧ ، السلوك ١ : ٥٩٤ ، ٩٧٢ .

العلم الكريم بالحركة المباركة والنزول على المرقب... ، وكتابنا هذا وقد علت على قلعتها أعلام الإيمان..."(١) .

وقد يكون حسن التخلص في الرسائل الإخوانية على هذا النمط ، فيذكر الكاتب بعد الدعاء أو "يقبل الأرض" بدء الخطاب ، مثل "صدرت هذه المكاتبة"(٢) ، ومنه قول الشهاب محمود في التعزية بولد بعد الدعاء :"صدرت هذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً يعز عليه أن يُتبع بالتعزية..."(٣) .

وقد يكون التخلص بالبعدية ، ومن ذلك قول الشهاب محمود من شفاعة لمسجون بعد الدعاء :"وبعد ، فإن كافة الأمة قد تحققت رحمة قلب المولى"(٤) . أما رسائل الردود فكان التخلص فيها برد الجواب نحو "ورد كتابك"(٥) .

وأكثر ما يكون تخلص الكاتب وانتقاله من الافتتاح إلى العرض في الرسائل الإخوانية بعبارة (وينهي) ،أو (والمملوك ينهي) ، ومنه قول الشهاب الحلبي من رسالة تعزية :"المملوك ينهي علمه بهذه النازلة التي فتّتت القلوب والأكباد ، وكادت أن تفرق بين الأرواح والأجساد"(٦) ، وقوله من رسالة شفاعة في معزول بعد تقبيل اليد : "وينهي ملازمته على شكر مواهبه ، ونشر فضائله الجسيمة ومناقبه"(٧) .

والحال في الرسائل الأدبية شبيهة بما تقدم ، فقد انتقل محيي الدين إلى عرض الموضوع بقوله :"ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد ،..، رأى أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح وآثار" ، وانتقل من ذلك قائلاً :"قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزمات الشريفة السلطانية..."(٨) ، في رسالته بفتح قيسارية الروم .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ١٥٧ ، وانظر : ٥٦ .
(٢) إحكام صنعة الكلام : ٧٩ .
(٣) صبح الأعشى ٩ : ٨٣-٨٤ ، وانظر: ٨٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ .
(٤) صبح الأعشى ٩ : ١٣٩ ، وانظر : ٨٦ .
(٥) انظر نفسه ٩ : ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤-١٢٣ .
(٦) نفسه ٩ : ٨٤ ، وانظر : ٨٦ ، ٨٧ .
(٧) نفسه ٩ : ١٣٨ ،وانظر :١٠ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ .
(٨) صبح الأعشى ١٤ : ١٥٨ - ١٥٩ .

وتخلّص علاء الدين من الخطبة إلى الموضوع بالبعديّة قائلاً: "وبعد فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق..." ، وانتقل إلى الموضوع قائلاً :"ولما كانت هذه الغزاة المبرورة ، والحسنات..."(١) ، في رسالته الروض الزاهر .

وتختتم رسائل المبايعات والعهود بالدعاء(٢) ، أما رسائل التولية والتعيين فتختتم بالأمر والدعاء(٣) ، وتجري على هذا النسق في الاختتام بالدعاء رسائل البشارات(٤) ، وكذلك الحال في معظم الرسائل الإخوانية(٥) ، بل قد تكون الرسالة كلها دعاء(٦) ، وقد جرت بعض الرسائل الأدبية على ذلك(٧) .

وفي بعض الأحيان كانت الرسالة تختتم بأبيات من الشعر المناسبة ، ومن ذلك رسالة ابن الوردي في التعزية بالقاضي ابن البارزي حيث ختمها بقصيدة طويلة في رثائه(٨) ، وقدمة البندق التي أنشاها ابن الصائغ حيث ختمها بقصيدة في مدح المكاتب والدعاء له(٩) ، ورسالة محيي الدين بن عبدالظاهر في غزوة بيبرس لقيسارية الروم(١٠) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل التي دارت بين المماليك والصليبيين والمغول لم يكن لها نمط واحد محدد ، بل كان بناء الرسالة معتمداً على الغرض منها ، وعلى كونها ابتداء أو رداً ، وقد كانت معظم رسائل الردود تنبني على الرسائل الواردة إلى السلطنة في افتتاحاتها ومادتها وخواتيمها ، ومن ذلك رسالة قلاوون إلى أحمد بن هولاكو رداً على رسالة الأخير ، إذ جاء افتتاحها على نسق افتتاح رسالة الملك المغولي ، ورد فيها قلاوون على الرسالة فقرة فقرة(١١) . وقد تفتتح

---

(١) السلوك ١ : ١٠٢٨ .
(٢) انظر صبح الأعشى ١٠ : ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٨١ .
(٣) انظر نفسه ١٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١١-٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨-٢١ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ .
(٤) انظر نفسه ٧ : ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، تشريف الأيام والعصور : ١٦ ، النجوم الزاهرة ٨: ١٤٦ ، تاريخ ابن الفرات ٧ : ١١٩ ، ٢٢٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٠ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ .
(٥) انظر صبح الأعشى ٩ : ١٠٨-١١١ ، ١١٣ ، ١١٦-١٢٣ ، ١٤٧-١٥١ .
(٦) انظر نفسه ٩ : ٤٧ - ٤٨ .
(٧) انظر السلوك ١ : ١٠٣٩ ، صبح الأعشى ١٤ : ١٩٥ ، ٣٢٧ .
(٨) ديوانه ١٠٤ - ١٠٧ ، وانظر : ٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٨ ، صبح الأعشى : ٦١ ، ١٤٠ .
(٩) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٧ .
(١٠) نفسه ١٤ : ١٨٧ - ١٨٨ .
(١١) تشريف الإيام والعصور :١٠-١٦ ، وانظر السلوك ١ :٩٧٧ ،صبح الأعشى ٧: ٢٦٥ .

الرسالة بعد البسملة بالموضوع دون مقدمات مثل رسالة بيبرس إلى بيمند وملك قبرص (١) ، ورسالة الناصر محمد إلى غازان بعد مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ(٢) .

---

(١) الروض الزاهر : ٣٠٩ ، السلوك ١ : ٥٩٤ ، ٩٦٦ ، ٩٧٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٢ .

الأسلوب

تضافرت عوامل عديدة في التوجيه إلى أسلوب محدد في كتابة الرسائل في عصر المماليك ، وهو أسلوب قوامه البديع ، والاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والأمثال والخطب والرسائل ، وأهم هذه العوامل ، فيما أرى ، هي : ديوان الإنشاء ، وثقافة الكاتب ، ومؤلفات تعليم صناعة الإنشاء ، وآراء النقاد في عصر المماليك وقبله بقليل .

يتمثل أهم أثر لديوان الإنشاء في فن الرسائل ، والكتابة الفنية بشكل عام ، في أنه كان مؤسسة تعليمية للكتّاب المتطلعين للعمل فيه كما رأى الدكتور أحمد أحمد بدوي (١) ، ويبدو أنه اضطلع بهذه المهمة في عصور أخرى متقدمة ، كالعصر الأموي(٢) ، العصرين الفاطمي ، والأيوبي(٣) . وعلى ذلك ، يكون هؤلاء "الخريجون" قد اكتسبوا أساليبهم وثقافاتهم الأساسية في أثناء تدريبهم في الديوان ، ولابد لما اكتسبوه أن يظل مؤثراً في كتاباتهم فيما بعد .

كما يتضح أثر الديوان من خلال ما كان لصاحبه من دور في تحديد ألقاب المكاتبين ، وافتتاحات الرسائل إليهم ، ومقادير الأدعية لهم ، وفي بناء كل رسالة حسب الوظيفة ، وحسب المكاتب(٤) ، ويذكر في هذا السياق أنه كان في الديوان سجل يحتفظ فيه بكل ذلك ، ويستعمله الكتّاب لتحقيق الدقة والضبط فيما ينشئونه (٥) ، وقد بلغ الأمر بهذه الاصطلاحات حداً لايمكن تجاوزه في أواخر عصر المماليك(٦) ، وكان بعض الأنواع من الرسائل الديوانية أصبحت مثل الطلبات أو النماذج الجاهزة التي نستعملها الآن في بعض المعاملات الرسمية .

وقد كان لرغبة الكتّاب في ترقي المناصب داخل الديوان أثر في أساليبهم ؛ إذ

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٣٤ ، ٣٤١ .
(٢) الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي : ٢١١ - ٢١٢ .
(٣) (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ، أبوشامة المقدسي ، دار الجيل ، بيروت (ب - ت) ١ : ١٩٢ ، الوشي المرقوم : ٥٥ ، وانظر تاريخ النقد الأدبي : ٥٨١ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٢٩٥ .
(٤) صبح الأعشى ١ : ١٤٧ .
(٥) نفسه ١ : ١٦٩ .
(٦) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، خليل بن شاهين الظاهري ، اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م : ١٠١ .

كان لزاماً عليهم أن يحذوا حذو رئيسهم صاحب الديوان ، فقلدوه فيما ينشئ لينالوا إعجابه ، وكذلك الحال في أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى العمل في الديوان ، ولايخرج من هؤلاء مجموعة الكتّاب المنتشرين في النيابات مصراً وشاماً ، فميلهم للعمل في الديوان المركزي بالقاهرة يقتضي إعجاب صاحب الديوان بكتاباتهم ، فاقتدوا به ، ونسجوا على منواله (١) . ويبدو أن ذلك كان سبباً لتنافس الكتاب ، ومجالاً فسيحاً لتطور الكتابة لو ترك أمر الاحتذاء جانباً .

ومن العوامل المهمة التي شاركت في رسم ملامح الأسلوب مؤلفات تعليم الإنشاء ، ويتفق هذا الأسلوب مع الظرف الذي تكتب فيه الرسالة . وأسوق رأياً لابن الصيرفي في الأسلوب الواجب اتباعه في مكاتبة غير العرب قال فيه :"وليس يحتاج في مكاتبات أهل اللغات المخالفة لغير المعاني السديدة ، البريئة من الاستعارات ، والكتابات المائلة لمواضع الحجج ، التي تبقي جزالتها ونضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة" ، وقال بأن الكاتب إلى من لايعرف العربية "لاينبغي له أن يلم بالألفاظ المسجوعة ، ولاضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات ، فإن ذلك إنما يستحسن ما دام مفهوماً في تلك اللغة ، وغير منقول إلى غيرها"(٢) . وقد أثر رأي ابن الصيرفي فيمن جاء بعده من الكتاب ، ومصداق ذلك أن نصوص المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والغزاة الصليبيين والمغول ، خلت من البديع والزخرفة اللفظية ، إذ كان القصد منها وضوح المعاني من أقرب سبيل(٣) ، كما رأى الدكتور أحمد أحمد بدوي .

وتعد ثقافة الكتّاب في عصر المماليك من أهم العوامل المحددة لأساليبهم ، والحديث عن أثر الثقافة في الرسائل أسلوبياً وموضوعياً لايلغي أثر البيئة فيها ، لكن المطالع الباحث يجد أن أثر الثقافة قد تجاوز أثر البيئة ، وبخاصة من حيث الأسلوب .

وقد أشار محمود رزق سليم إلى وجود عوامل أعاقت تمصير الأدب في هذا العصر ،

---

(١) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٩ .
(٢) قانون ديوان الرسائل ، ابن الصيرفي ، مطبعة الواعظ بمصر ، ١٩٠٥م : ١٢٩ .
(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٣٠ .

وأضعفت الإقليمية عن الظهور فيه ، وردها إلى اللغة المشتركة والدين المشترك ، كما نبّه إلى تشابه أساليب الكتّاب في عصر المماليك ممن تقدم أو تأخر(١) ، وأميل إلى رأيه هذا ، وأضيف إلى تلك العوامل العامل الثقافي ، الذي فرضته طبيعة المرحلة التي واجهت فيها الأمة أعداءً لهم عقائدهم وثقافاتهم ، فعادت إلى الأصول العربية الإسلامية (٢) ، فكان أن نشأ عن ذلك ثقافة موسوعية (٣) تستند إلى أصول دينيّة ولغوية وأدبية .

وللثقافة أثر مهم في ناحية أخرى من أساليب الكتاب وموضوعاتهم، وتلك هي مسألة الاتباع والتقليد ، وقد بينت في حديثي عن ثقافة الكاتب إلى أن إبداعه مرتبط بسعة ثقافته ، ولابد له لتحقيق ذلك من الاطلاع على ما ابدعه من تقدمه من الأدباء والكتّاب(٤) ، بل إن ابن خلدون اشترط على المترشّح للكتابة حفظ الأسجاع والتراسيل ليصبح كاتباً مجيداً (٥) .

فالاتباع ، إذن ، كان شيئاً طبيعياً بحكم تلك الثقافة ، لاشيئاً عارضاً بحكم نضب عقولهم من القدرة على الإبداع ، أو افتقارهم إلى المعاني ، أو عدم إحساسهم بواقع حياتهم كما قال بعض الباحثين(٦) ، بل إنهم رفضوا التقليد الأعمى(٧) ، ولذلك رفضوا أن يحفظ الكاتب رسائل من تقدمه من الكتّاب حتى لايقع في السرقة بغير قصد منه إلى ذلك(٨) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العوامل تضافرت مع عامل آخر لايقل عنها أهمية ، وهو الحركة النقدية في هذا العصر .

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
(٢) البحث الأدبي : ٥٤ .
(٣) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٨ ، ١١٠ .
(٤) الصناعتين : ٢٢٩ ، المثل السائر ٢ : ٦٣ ، صبح الأعشى ٢ : ٣٢١، ٣٢٣ ، وانظر ابن حجة الحموي : شاعراً وناقداً ، د. محمود الربداوي ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٢م : ٢١٧ .
(٥) انظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٩٦ ، ١٣٠٤ .
(٦) انظر الفن ومذاهبه : ٣٨٥ - ٣٨٦ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٣ ، الأدب من الانحدار إلى الازدهار : ١٤٣ ، تطور الأساليب النثرية : ٢١٦ .
(٧) صبح الأعشى ٢ : ٣٢٥ .
(٨) انظر الوشي المرقوم : ٥٠ ، ٥١ ، حسن التوسل : ٩٣ ، ٩٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

رشيق القيرواني (-٤٥٦ هـ) أصبح "مدرسياً" ، والتبس بالبلاغة ، وأنه أسلم إلى مسلمات أشبه شيء بقواعد البلاغة ، ونبّه إلى أثر ذلك بقوله :"في هذا السياق بلغنا الدور الذي أصبح فيه الناقد القادر على الابتكار غير موجود ، أو أصبح شخصية ثانوية لاقيمة لها في النشاط الأدبي ، أو في الركود الأدبي"(١) .

وأشار الدكتور محمد زغلول سلام إلى ظهور اتجاه بديعي في الأدب والنقد ، ومثل له بالحاتمي ، والعسكري ، وابن سنان الخفاجي ، وأسامة بن منقذ ، وضياء الدين بن الأثير ، والصفدي ، وابن حجّة الحموي ، ومن جرى على شاكلتهم ، وهؤلاء وجّهوا الأدباء إلى الأخذ "بجمال العبارة وإشراقها" ، وأولوا "الألفاظ وأصواتها وتركيبها وموسيقيّتها والأشكال المختلفة للصياغة" اهتماماً جماً(٢) ، وبذلك يكون تيار الاهتمام بالبديع قد نشأ قبل هذا العصر .

ونبّه الدكتور أنيس المقدسي إلى أن الترسل العربي أخذ منذ العصر العباسي "تضعف روحه لتحكم الصناعة فيه ،...، وانصرف الكتّاب ... إلى ابتكار المعاني البيانية ، والتنافس في نسخ الحُلل اللفظية" ، وذكر أن "صناعة السجع وصلت في العصر العباسي إلى حد عظيم من التأنق ، وأصبحت في ذلك العصر ، وفي العصور التي تلته الزي ، الإنشائي العام ، فسيطرت الأناقة البديعية على دواوين الإنشاء في الدول المختلفة ، وأصبحت المقياس الأعلى في حلقات الأدب"(٣) .

ومن الأسباب المهمة في شيوع البديع في الكتابة أن النقاد في هذا العصر كانوا كبار الكتّاب فيه(٤) ، مما أدى إلى ترسيخ الاتجاه التقريري في النقد(٥)، إذ كانت آراؤهم النقدية في مجملها مستمدة من كتاباتهم ، وغير خافٍ أن في ذلك من الخطر على النقد والأدب ما فيه ، إذ يفتقد الناقد هنا أهم خصائصه وهي الموضوعية ، وقد أشار ابن خلدون إلى أن الجمع بين ملكتين ، والابداع فيهما

---

(١) تاريخ النقد الأدبي : ٢٤ .
(٢) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريين ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر (بـت) : ٣٩ ، الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٣ .
(٣) تطور الأساليب النثرية : ٢١٣ ، ٢١٦ .
(٤) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٢٩٥ .
(٥) ابن حجّة الحموي : شاعراً وناقداً : ٢٢٩ .

جميعاً ، أمر بعيد الحصول ، إذ تظل الملكة المكتسبة أولاً غالبة على غيرها قوة وتأثيراً (١) .

- الصنعة الفنية

برزت ظاهرة التأنق والصنعة في رسائل هذا العصر (٢) ، بيد أن هذه الظاهرة كانت بارزة في رسائل الكتّاب من قبل (٣) ، ومن وجه الإنصاف أن ننظر في دوافع سيادة هذا الذوق القائم على اعتبار الصنعة ، والبديع خاصة ، أساساً يقوم به نتاج الكاتب .

رد محمود رزق سليم ذلك إلى عناية الأدباء والنقاد "حينذاك بدراسة أساليب القرآن ، وطريقة نظمه" ، فاندفعوا بدافع الإعجاب بنظمه الفريد إلى اصطناع البديع (٤) ، وفي ذلك شيء من الصواب ، على الرغم من أن الدراسات لأسلوب القرآن الكريم ونظمه متقدمة على عصر المماليك ، كما رده إلى تأثر الكتّاب بطريقة القاضي الفاضل (٥) ، وعلى ذلك أكثر الباحثين المحدثين (٦) .

وربط الدكتور عمر باشا سيادة الذوق البديعي بنضج العلوم البلاغية في عصر الأيوبيين والمماليك ، وأعاد بروز الصنعة في الرسائل إلى عاطفة الكاتب . قال : "ويلاحظ من طرفٍ آخر أن العاطفة كانت تحاول أن تبرز من خلال هذه الرسائل ، إلا أن التصنع والتكلف كانا يحجبانها عنا قليلاً ، فيحاول الكاتب من خلال هذا الجهد الفني الذي كان يبذله أن يصعّدها" (٧) ، وغير خافٍ أن فيما ذهب

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٨٨ .

(٢) انظر عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٣ ، ٤١ ، الأدب في بلاد الشام : ٧٨٩ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٢ ، الفن ومذاهبه : ٣٧٣ .

(٣) تطور الأساليب النثرية : ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٣٤٢ ، الأدب في العصر الأيوبي د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م : ١٦٨ ، ١٧٩ ، تاريخ النقد العربي : ٣٠ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٨٣ .

(٤) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٥٨ ، وانظر الفن ومذاهبه : ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٥) نفسه ٦ : ٣٦٠ .

(٦) الفن ومذاهبه : ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٢٤-٣٢٥ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٥ ، تطور الأساليب النثرية : ٣٤٢ ، الأدب من الانحدار إلى الازدهار : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٧) الأدب في بلاد الشام : ٧٥١ ، ٧٨٩ .

إليه لوناً من التناقض ، إذ كيف يكون التصنع ساتراً للعاطفة ، ثم يكون دافعاً لبروزها ، وسبباً فيه ؟ .

وعلل الدكتور محمد الفقي شغف الكتّاب بالصنعة بأن "المقصد الذي كان يقصده الأدباء من أدبهم هو الملوك والأمراء . وهؤلاء إنما تُقدم لهم في الماديات الطُّرَف الجميلة الصنع ، المزخرفة والمزركشة باللآلئ ، فكان لزاماً أن يكون الأدب على هذا النحو"(١) ، وهو تعليل تنقصه الدقة ، حيث كان المماليك ممن لايعرفون الفصحى غالباً ، بل توجه الرسائل إلى دواوينهم ويقوم الكتّاب بنقل مضمونها إليهم(٢) . كما رد الصنعة إلى ضعف ملكات الكتاب ، وتخاذل سلائقهم ، وذهب إلى أن ثقافتهم كانت ضئيلة محدودة . قال :" على أن حظ هؤلاء من المعاني قليل ، ومن الأفكار محدود ضئيل ، وما اطلعوا عليه من التراث السابق كان هيّناً ... ، فهم لذلك مضطرون أن يُلقوا بستارٍ من الصناعة على هذا الفراغ العميق"(٣) ، وهو أمرٌ يرده ما تقدم من حديث عن ثقافة الكاتب .

ورأى الدكتور محمد زغلول سلاّم أن البديع والتنميق عندهم كان القصد منه "ليس الإفهام ، بقدر ما يُقصد به الإمتاع ، وبث اللذة من خلال الكلمة صوتاً ودلالة"(٤) ، وهو حكم لايخلو من التعميم ، غير أن ما قاله فيه شيء من الصواب .

وعزا الدكتور جودت الركابي عنايتهم بتنميق رسائلهم ، واهتمامهم بالكتابة أكثر من الشعر إلى عُجمة المماليك ، وضعف تذوقهم للشعر ، وميلهم إلى "النثر لسهولته"(٥) ، وهو أمر يرده كون الكتابة بلغت درجة تفوق الشعر من حيث الجهد الفني المبذول فيه(٦) ، كما يرى الدكتور عبد اللطيف حمزة .

إن مجمل الآراء التي ازرت بالصنعة ، وبالكتاب الذين اتخذوها نهجاً في عصر

---

(١) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٣ .
(٢) انظر معيد النعم : ٣٠ ، صبح الأعشى ١ : ١٤ .
(٣) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٤) الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٣ .
(٥) الأدب من الانحدار إلى الازدهار : ١٤٤ .
(٦) أدب الحروب الصليبية ، د. عبد اللطيف حمزة ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٢ : ١٧٥ ، وانظر الأدب في العصر الأيوبي : ١٧٩ .

المماليك ، قد استقاها الدارسون من هجوم ابن خلدون على الكتّاب المشارقة (١) ، إذ نعتهم باستيلاء العُجمة على ألسنتهم ، والقصور عن إعطاء الكلام حقه ، والعجز عن الكلام المرسل لبلاغته ، واتهمهم بأنهم استخدموا المحسنات البديعية لإخفاء عيوبهم ، وتزيين كلامهم الفارغ من المضمون(٢) ، ويبدو أن ابن خلدون هاجم الصنعة في الكتابة ، وعد دخولها فيها مفسدة بسبب إيمانه العميق بالفكرة (٣) ، وقد نبهت في الحديث عن أثر الحركة النقدية في فن الرسائل إلى أن في تهجّم ابن خلدون على أساليب الكتاب البديعية شيئاً من المبالغة ، إذ وجه من يترشح للكتابة إلى حفظ الأسجاع والتراسيل(٤) ، فكيف يرفض أثراً ينجم عما يوجه إليه ؟

وقد أدت عوامل كثيرة إلى سيادة الذوق البديعي ، والصنعة الفنية في رسائل هذا العصر ، وقد تقدم الحديث عن بعض العوامل المؤثرة في فن الرسائل بعامّة ، ومن الإنصاف لهذا العصر وكتّابه وأدبه أن نستقصي العوامل التي ساعدت على طبع أدبه بهذا الطابع .

أشار الدكتور زكي مبارك إلى أن العناية بالبديع ارتبطت بالأدب العربي في مراحل تطوره ، وأنها قبل بروزها في العصر العباسي مرت بمراحل تنسامت فيها منذ العصر الجاهلي ، على أنها كانت قبل عصر العباسيين تلقائية في الأغلب الأعم ، ثم تزايد الاهتمام بالصنعة على يد بعض شعراء القرن الثاني من أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي تمام(٥) ، واستمر الأمر على ذلك في القرن الثالث ، حتى أصبح البديع نهجاً للكتّاب في القرن الرابع ، وبرزت الصنعة في نثره (٦) . ووافقه في ذلك أحمد موسى في بحثه حول عن البديع في اللغة العربية (٧) ، وهو رأي مقبول إلى حد كبير .

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ .
(٣) تاريخ النقد الأدبي : ٦١٧ .
(٤) انظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٣٠٤ .
(٥) انظر النثر الفني في القرن الرابع ، د. زكي مبارك ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤م ١ : ٤٨ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٣ .
(٦) انظر المرجع نفسه ١ : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ .
(٧) انظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩م : ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٨ .

وما إشارة القدماء إلى أن شعراء القرن الثاني آنفي الذكر لم يسبقوا إلى البديع ، وإنما كثر في شعرهم (١) إلا دليل على أن البديع طابع أصيل في اللغة العربية (٢) كما يرى الدكتور زكي مبارك ، وما استشهادهم على بعض فنونه بما في آيات القرآن الكريم ونصوص الحديث الشريف إلا دليل آخر على ذلك .

وقد استمرت العناية بالبديع في الأدب العربي إلى أن أصبح السجع وما يصاحبه من فنون البديع زياً إنشائياً للكتابة وجّه النقاد إليه ، وبلغ في القرن السادس درجة عظيمة من الاهتمام على يد القاضي الفاضل الذي قيل في طريقته : إنها شريعة جديدة نسخت الشرائع القديمة في الكتابة حتى قيل : الطريقة الفاضليّة (٣) ، وتأثر الكتّاب بعد القاضي الفاضل بطريقته إلى أن "أصبحت شائعة في المشرق الإسلامي ، وفي مغربه" (٤) .

وفي هذا السياق يمكن القول بأن تحكم الصنعة الفنية في أدب الرسائل في عصر المماليك يمثل الذروة التي بلغها تيار البديع في الأدب العربي ، وأذكر في السياق ذاته قولاً للقاضي الفاضل وصف فيه الكتابة في العصر الفاطمي بأن فنّها كان غضاً طرياً (٥) ، ووصفها ابن شيث في مطلع القرن السابع بأنها " سقطت تاؤها وطمست أنباؤها" (٦) ، مما يدل على أن اكتمال نهج القاضي الفاضل كان على يد كتّاب العصر المملوكي الأول الذين احتذوا حذوه .

ومن العوامل المهمة في سيادة الذوق الفني القائم على البديع في عصر المماليك ، جمهور فن الرسائل ، أو جمهور الكاتب الذي يوجه إليه رسائله ، حيث

---

(١) انظر البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨م ، ١ : ٥٩ ، البديع ، ابن المعتز ، طبعة كراتشكوفسكي ، لندن ١٩٣٥م : ١ ، ٣ ، الموازنة بين الطائيين ، الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر (ب - ت) : ٦ ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي ط ٣ ، : ٢٥ ، ٣٨ ، وانظر الصبغ البديعي : ٥٦ - ٦١ .
(٢) النثر الفني ١ : ٤٧ .
(٣) ثمرات الأوراق : ٢٢٣ ، وانظر : الصبغ البديعي : ٣٥٢ ، عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٦ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٢ ، ١٢٥ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٣٨٥ ، تطور الأساليب النثرية : ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية :٣٢٤-٣٢٥ ، الأدب من الانحدار إلى الازدهار :١٤٤ .
(٤) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٨٤ .
(٥) انظر الروضتين ١ : ١٩٢ ، الوشي المرقوم : ٥٤ .
(٦) معالم الكتابة : ٢٣ .

يجد المطالع للرسائل أنها وجهت في الأغلب الأعم إلى كتّاب أو قضاة ، أو علماء ، وليس الأمر مقصوراً على الرسائل الإخوانية التي كانوا يتبادلونها ، بل إن كثيراً من الرسائل الديوانية كانت توجه إلى أمثال أولئك(١) ، ومثلها كثير من الرسائل الأدبية (٢) ، ولما كان الكاتب والمكاتَب يؤمنان بأن الأسلوب البديعي هو الأمثل ، فقد زاد ذلك من عنايتهم بالتأنق ، بل وتسابقوا إلى بلوغ أقصى غاياته .

ومن الجدير بالذكر أن بعض فنون البديع كانت مما يستدعيه المعنى ، بل يفرضه ، وينبع من القصد الذي تنبني عليه الرسالة ، وأن منها ما فرضته حالة الصراع مع الغزاة ، وأشير هنا إلى فنّي الطباق والمقابلة ، وبخاصة في رسائل المفاخرات والمناظرات ، والرسائل الجهادية ، وهما من الرسائل التي لايمكن أن تخلو من هذين الفنّين ؛ إذ هما مرتبطان بمضمون الرسالة والقصد منها في الحالين .

وإذن ، فإن لذوق العصر المملوكي مسوغات كثيرة ، وليس لنا أن نحاكم عصراً فننزله قسراً على مقاييس عصر آخر ، وإذا أجزنا ذلك لأنفسنا ، فليس لنا أن نحاكم العصر كله بمقياس واحد ، أو نأخذ كاتباً بجريرة آخر . ذكر القلقشندي أنه دخل في عداد كتاب الديوان من ليس أهلاً لذلك ، وبخاصة في أواخر هذا العصر ، وأصبح هؤلاء لايأبهون سوى بالإغارة على ما أنشأه غيرهم ، أو تقليده تقليداً أعمى(٣) ، فكيف نتحامل على كتّاب العصر كلهم بسبب أمثال هؤلاء (٤)؟ وهل يصح أن ننعت أمثال محيي الدين بن عبد الظاهر ، والشهاب الحلبي، وابن فضل الله العمري ، وابن نباتة المصري ، وصلاح الدين الصفدي بالأعاجم والغفل(٥) كما تساءل محمود رزق سليم ؟ إنه وصف يفتقر إلى الدقة والموضوعية .

---

(١) انظر رسائل من ذلك في ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ .
(٢) انظر رسائل من ذلك في صبح الأعشى ١٤ : ١٥٨ ، ٢٧٤ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ .
(٣) انظر صبح الأعشى ١ : ١٧٢ - ١٧٣ .
(٤) الترسل وابن عبد الظاهر : ٢٧ - ٢٨ .
(٥) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٣٠ - ٢٣٢ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٠٨ .

- السجع

وهو "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد"(١) ، ومن السمات الأسلوبية التي لم تخلُ بها سوى رسائل المطالعات بالأخبار إلى السلطان(٢) ، والمعاهدات بين المماليك والغزاة(٣) .

وللنقاد وعلماء البلاغة مواقف مختلفة من استعمال السجع في الكتابة ، فمنهم الذي عارضه ، وذم استعماله بكثرة(٤) ، ومنهم من حث عليه ، ورأى فيه جمالاً وإن كان متكلفاً(٥) ، ومنهم من اشترط لحسنه أن يكون المعنى هو الذي استدعاه بغير تكلف(٦) ، وشرط ابن الأثير أن تضيف الفقرة الثانية معنىً إلى الأولى ، فلا يكون الكلام مكروراً(٧) ، وعد ابن شيث انصراف الكاتب المتمكن من البلاغة عن السجع "تنزلاً ، وطلباً للاختصار" ، وذكر أنه لايفرق في السجع بين رسالة الأعلى إلى الأدنى أو العكس ، وخصّ من الرسائل بالسجع المناشير التي يصدرها السلطان(٨) . وعلق على ذلك القلقشندي بقوله : "... لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابة بالسجع نقص في حق المكتوب إليه ، وقضيته أنه لايكتب به إلا من الأعلى للأدنى" ، كما ذكر أن "الكتب التي تبنى على سجعة واحدة تأتي مرتبتها متأخرة بين المكاتبات"(٩) . وأعتقد أن رأيه هذا ليس مستمداً من رتبة الرسالة فنياً ، وإنما اعتمد فيه على مراتب الوظائف ، والرتب السياسية ، وعلى قوله المتقدم من أن المكاتبة بالسجع نقص في حق المكتوب إليه .

وتجدر الإشارة إلى أن في عصر المماليك من انتقد السجع ، وأزرى به ، ومن أولئك

---

(١) المثل السائر ١ : ١٩٣ ، تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، تحقيق د. حفني محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ : ٣٠٠ .
(٢) انظر صبح الأعشى ٨ : ٥٦ - ٦٢ .
(٣) انظر نفسه ١٤ : ١٨ - ٨٢ .
(٤) انظر البرهان في وجوه البيان ، إسحاق بن وهب الكاتب ، تحقيق د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي ، بغداد ١٩٧٤م : ٢٠٦ ، وانظر المثل السائر ١ : ١٩٣ .
(٥) انظر إحكام صنعة الكلام : ٢٣٦ .
(٦) انظر أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق هـ . ريتر ، استانبول ١٩٥٤م : ١٠ ، سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي ، مطبعة محمد صبيح ، القاهرة ١٩٥٣م : ٢٠١، صبح الأعشى ٢ : ٣١٣ ، ٣٥٣ .
(٧) المثل السائر ١ : ٢٣٨ ، خزانة الأدب ٢ : ٤١٢ ، صبح الأعشى ٢ : ٣١٣ .
(٨) معالم الكتابة : ٧٣ ، ٩٧ .
(٩) صبح الأعشى ٦ : ٣٠٧ ، ٨ : ١٨٥ .

تاج الدين السبكي الذي انتقده بطرفة رواها(١) ، وذكر القلقشندي أن بعض الكتاب في العصر المملوكي كانوا يرون في التزام السجع في خطب رسائل التولية تكلفاً وعسر تلفيق و"تصنعاً سمجاً"(٢) .

وأشدهم انتقاداً للسجع ابن خلدون . قال في الكتّاب الذين يلتزمونه في مكاتباتهم :"وولعوا بهذا المسجّع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالسجع والألقاب البديعية"(٣) .

وعلى الرغم من انتقاد بعض النقاد والأدباء لاستعمال السجع ، فإن الأسلوب المسجّع أصبح في هذا العصر مقياساً لجودة الكتابة ، وتمسّك به كثير من الكتاب ، ودافعوا عنه ، واتهموا من لم يأت به بالعجز والقصور(٤) .

وقد أشار القلقشندي إلى ضرورة التزام السجع في خطب رسائل التولية والتعيين(٥) ، وتحقيقاً لقوله كان الغالب في هذه الخطب أن تبنى على سجعة واحدة ، ومن ذلك في تقليد بالوزارة أنشاه محيي الدين بن عبد الظاهر : "الحمدالله الذي وهب لهذه الدولة القاهرة من لدنه ولياً ، وجعل مكان سرها وشد أزرها عليّاً ، ورضي لها من لم يزل عند ربه مرضياً . نحمده على لطفه الذي أمسى بنا حفياً ، ونشكره على أن جعل دولتنا جنة أورث تدبيرها من عباده من كان تقياً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نسبّح بها بكرةً وعشيا ، ونصلي على سيدنا محمد الذي آتاه الكتاب وجعله نبيا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نتّبع بها صراطاً سويا"(٦) .

ومن خطب رسائل التولية ما كان على رويّيْن أو ثلاثة ، ومن ذلك قول الشهاب الحلبي في تقليد بالوزارة :"الحمدالله مكمل شرف الوزارة بطلعة تاجها ، ومشرف

---

(١) انظر معيد النعم : ١٠١ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ٢٨٦ .
(٣) المقدمة ٤ :١٢٨٧ ، وانظر : ١٢٨٦ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٣ .
(٤) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، الأدب في العصر المملوكي ٢: ٤٢ .
(٥) صبح الأعشى ٩ : ٢٨٦ .
(٦) نفسه ١١ : ٢٦٥ ، وانظر ١٠ : ١٧٧ ، ١٢ : ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ١٣ : ١٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

قدرها بمن تشرق عليها أشعة سعده إشراق الكواكب على ابراجها ، ورافع لواء مجدها بمن تلقّته بعد الجفاء في حُلل سرورها وحلي ابتهاجها ، وتحلت بعد العطل من جواهر مفاخره بما تتزين عقود السعد بازدواجها ، وترفل من انتسابها إلى ابهة بهائه بما يود ذهب الاصيل لو امتزج بسلوك انتساجها ، الذي شيد قواعد هذه المرتبة السنية في أيامنا وجددها ، وبعث لها على فترة من الانكفاء من حسم الادواء فكان مسيحها ، وشرع المعدلة فكان محمدها ، وردها بمحكم الاستحقاق إلى من لايختلف في أنه صاحبها ، ورجعها إلى من خطبته لنفسها بعد أن أحجم لشرف قدرها خاطبها" (١) .

ولم اجد من الرسائل التي بنيت على سجعة واحدة سوى منشور واحد (٢) ، وقد تقدم قول ابن شيث من أن السجع فيها يُستحسن ، وقد خولف في بعضها عن روي السجع إلى غيره (٣) .

وأكثر الوان السجع دوراناً في رسائلهم ما تكون من فقرتين متفقتين في روي واحد ، يتلوهما فقرتان تتفقان في غيره ، دون مراعاة لعدد الالفاظ في الفقرتين أو أوزانها (٤) ، ومنه في رسالة عتاب :"لمولانا لدى المملوك عوارف لايهتدي إلى معرفتها فيوفّيها كُنْه المراد ، وأياد لا يبلغ ما تستحقّه من الإحماد ، أجلّها في نفسه خطراً ، وأحسنها عليه أثراً ، ما يفرضه له من بره وإكرامه ، وتعهده واهتمامه ، وقد غير مولانا عادته ، ونقض شيمته ، وبدل المملوك من الانعطاف بالإعراض ، ومن الانبساط بالانقباض ، وحمّله من ذلك ما أوهى قوى صبره ، وأظلم بصائر فكره ، فإن يكن ذلك لخطأ واقعه المملوك ساهياً ، وجرم اجترمه لاهياً ، فمثل مولانا لايطالب إلا بالقصد ، ولايعاقب إلا على العمد" (٥) .

---

(١) صبح الاعشى ١١ : ٢٦٩-٢٧٠ ، وانظر ١٠ : ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٢ : ٩٥ ، ١٣٠ : ١٧٧ .
(٢) انظر نفسه ١٣ : ١٧٨ - ١٧٩ .
(٣) انظر نفسه ١٣ : ١٧٢ - ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٨٣ .
(٤) ويُسمى بالسجع الحالي ، ومنه الترصيع والمطرف والمتوازي . قال القلقشندي : وعليه عمل أكثر الكتاب من زمن القاضي الفاضل وهلم جراً إلى زماننا (صبح الاعشى ٢ : ٣٠٤) .
(٥) صبح الاعشى ٩ : ١٧٩ ، وانظر ٩ : ١٨٣ ، ١٩٥ - ١٩٩ ، ١٢ : ٢٠٣ - ٢٠٧ ، الروض الزاهر : ٣١٠ - ٣١٢ ، نهاية الارب ٥ : ١٦٢-١٦٤ .

وتقف في بعض الرسائل على لون آخر من السجع أشار إليه القلقشندي في حديثه عن مواضع حسن السجع وقبحه في الكلام ، فذكر أن من مواضع حسنه "أن يقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعاً في سجع"(١) ، وهو ليس كثيراً إذا ما قيس بما تقدم من ألوان السجع .

ومن ذلك ما جاء في منشور أنشاه محيي الدين بن عبد الظاهر . قال فيه :" إن الهواتف أبين ما تشدو ، إذا حفت الرياض بها من كل جانب ، والسماء أحسن ما تبدو ، إذا تزينت بالكواكب السيارة والشهب الثواقب ، والسعادة أحمد ما تحدو ، إذا خصصت بمن إليه ، وإلا ما تشد الركائب ، وعليه ، وإلا ما تثني الحقائق والحقائب"(٢) .

ومن السجع الترصيع ، وهو اتفاق ألفاظ الفقرتين من السجع في العدد والوزن والروي ، وقد عده ابن الأثير من محاسن النثر ومثالب الشعر(٣) ، وخصه بعض البلاغيين بالشعر(٤) . وقد يجمع إلى الترصيع الجناس فيكون أرفع وأجمل(٥) . قال فيه القلقشندي :" وهو احسن أنواع السجع وأعلاها"(٦) .

وإذا كان الترصيع مما يزيد الكتابة حسناً ورونقاً ، فإنه ينم عن عناية زائدة بالألفاظ ، وتكلف لايخفى ، ومن أمثلته في رسائلهم ما جاء في قدمة بندق أنشاها ابن الصائغ الحنفي ، إذ وصف الصيد بأنه من أفضل الرياضات ، "وأفخرها قيمة ، وأغزرها ديمة ،...، يحصل عند متعاطيه نشاطها ، ويزيده انبساطها ، ويشرح خاطره ، ويسرح ناظره ، ويملأ عينيه قرة ، وقلبه مسرة ، يشجع الجبان ، ويثبّت الجبان ، ويقوي الشهوة ، ويسوي الخطوة ، ويسوق الظفر ، ويشوق النظر ، ويروق فيه الورد والصدر ، ويفوق فيه الخُبر على الخبَر"(٧) .

---

(١) صبح الأعشى ٢ : ٣١٤ .
(٢) نفسه ١٣ : ١٧٢ - ١٧٣ ، وانظر ١٢ : ٢٢٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ١٣ : ٢٩، ١٧٩ ، الروض الزاهر : ٣٠٩ .
(٣) المثل السائر ١ : ٢٦٤ ،وانظر سر الفصاحة : ٢٢٣ ، جوهر الكنز : ٢٥٤ ، حسن التوسل : ٢٠٧ ، خزانة الأدب ٢ : ٤٠٩ .
(٤) انظر كتاب الصناعتين : ٣٧٥ ، تحرير التحبير : ٣٠٢ .
(٥) حدائق السحر في دقائق الشعر ، رشيد الدين محمد العمري المعروف بالوطواط ، تحقيق د. إبراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٤٥ م : ٩٢ .
(٦) صبح الأعشى ١٣ : ١٧٦ .
(٧) نفسه ١٤ : ٣٢٢ ، وانظر ١٢ : ١١٩ ، ١٤ : ٣٢٩ .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المقاييس الشكلية المتعلقة بترتيب الرسائل كانت ذات أثر سلبي في الكتابة ؛ ومن ذلك حصر طول السجعة التي في افتتاحات رسائل التولية بحيث لايتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة "ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب" . قال القلقشندي :" وعلى هذا فيختلف القصر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض"(١) . وما من شك في أن ربط ما يكتب بقياس الورق فيه تضييق على الكاتب ، بحيث يتوجب عليه ترتيب معانيه ، ثم يختار لها من الألفاظ لاعلى قدرها ، بل بحسب ما هو مخصص لها من مساحة في الرسالة .

- الجناس

اعتمد الكتّاب بمصر والشام في عصر المماليك على فن الجناس لتزيين رسائلهم وتبدو عنايتهم به واضحة ؛ حيث لم تكد رسالة تخلو منه ، ويمكن القول بأنه "أضحى إحدى دعائم الأسلوب في عصر المماليك"(٢) ، كما يقول محمود رزق سليم .

وقد أزرى عدد من النقاد وعلماء البلاغة بهذا الفن ، فعده ابن رشيق "من أنواع الفراغ ، وقلة الفائدة ، ومما لاشك في تكلفه" ، وأخذ على من أكثر منه بقوله :"وقد كثّر منه هؤلاء الساقة المتعقّبون له في نظمهم ونثرهم حتى برد ورك""(٣) ، ومفهوم كلامه أنه إن جاء بغير تكلف كان مستحسناً(٤) . وقال ابن حجة :"أما الجناس ، فإنه غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإن كلا منها يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة" ، وأضاف :"ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصّرت همّته عن اختراع المعاني" . وساق شاهداً على قوله انتقاد ابن نباتة للصفدي عندما ألف الأخير كتاب جنان الجناس(٥) .

ومن صور الجناس التي استعملوها الجناس التام ، وهو ما تم الاتفاق فيه بين

---

(١) صبح الأعشى ٢ : ٣١٠ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٩٧ .
(٣) العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ١ : ٢٥٣ .
(٤) وهو رأي الشهاب الحلبي ، انظر حسن التوسل : ١٨٣ .
(٥) خزانة الأدب ١ : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

اللفظين مبنى واختلفا معنى(١) ، ومنه قول ابن عبدالظاهر في رسالة بيبرس إلى بيمند :"ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من مغانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويديّة بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك"(٢) .

ومنه قول ابن نباتة في توقيع بشد الدواوين بغزة :"... والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من سلّمت عليه الألسنة وصلّت ، وسُلّت به سيوف النصر وصلّت"(٣) ، وغير خاف أن ابن نباتة الذي نقل عنه ابن حجّة سخريته بالجناس ، كما تقدم ، قد سيطرت عليه حروف الصفير هنا مع مجانسته بين صلّت من الصلاة وصلّت من الصليل .

كما استعملوا من صور الجناس المركب ، وفيه تكون إحدى لفظتي الجناس ، أو كلاهما ، مركبة من لفظتين(٤) ، وقد يكون في تركيبين ، والجناس المركب دال على التكلف ، ومنه في مرسوم بالنهي عن التشيع في وصف الشيعة :"وافتروا على الله كذبا فذمّهم وأباح دمهم ، وقال لسان حال أمرهم : أرى قدمهم أراق دمهم ، وهان دمهم فها ندمهم"(٥) .

ومنه قول ابن نباتة في توقيع بشدّ الجوالي(٦) :"رُسم ... أن يُرتب فلان في شدّ الجوالي ... لما ظهر من نجاتبه ،...، وعزائمه التي تجلو صدأ الهم بالجوالي ، وإذا قيل لحاسده : له ولأبيه إمرة الخيل ، قال : والجوى لي"(٧) .

وأكثر صور الجناس التي يقف عليها المطالع لرسائلهم الجناس الناقص ، ويكون باختلاف حرف في الكلمتين ، أو زيادة حرف في إحداهما عن الأخرى(٨) ، وهو

(١) جوهر الكنز : ٩١ ، ٩٢ ، حدائق السحر : ٩٤ ، حسن التوسل : ١٨٣، وسمّاه قدامة : المطابق (نقد الشعر : ١٨٥ - ١٨٦) ، وسمّاه ابن الأثير : الحقيقي (المثل السائر ١ : ٢٤٦) .
(٢) الروض الزاهر : ٣١٢ ، وانظر صبح الأعشى ١٢ : ٢١٥ .
(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٣٢٠ ، وانظر ١٢ : ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٠٦ ، ١٣ : ١٨٢ ، ١٤ : ٣٢٢ .
(٤) انظر سر الفصاحة :٢٣٢ ، البديع في نقد الشعر : ٣٣ ، تحرير التحبير : ١٠٩ ، جوهر الكنز : ٩٧ ، حسن التوسل : ١٨٨ .
(٥) صبح الأعشى ١٣ : ١٨ .
(٦) وظيفة من يقوم بتحصيل الجزية من أهل الذمة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى : ٩٤) .
(٧) انظر صبح الأعشى ١٢ : ٣٠٦ ، وانظر ١٣ : ١٧٢ ، ١٧٨ .
(٨) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخرالدين الرازي ، القاهرة ١٣١٧ هـ :٢٨ ، تحرير التحبير : ١٠٧ - ١٠٨ ، جوهر الكنز : ٩٥ .

أقل مدعاة للتكلف من التام .

قال ابن عبد الظاهر من تقليد بالوزارة في فضل المقلَّد :"...وكم آثار في البلاد والعباد أثَّرت وأثّرت ، وكم وافت ووفّت ، وكم كفت وكفّت ، وكم أعفت وعفّت" ، وفي منزلته :"فمنزلته لا تتسامى ولا تسام ، ومكانته لا تترامى ولا ترام"(١) . وفي قوله هذا كثير من المجانسات .

ومنه قول الشهاب محمود من تقليد بنيابة غزة :"الحمد لله رافع علم الدين ...، وقامع أعدائه الكافرين ، بتفويض تقدمة الجيوش بأوامرنا إلى كل ولي يُجتنى النصر ويُجتلى من أفنان عزَمَاته ووجاهة زعامته"(٢) .

وقد استعملوا في رسائلهم الجناس المعكوس ، ومنه ما يكون باختلاف ترتيب الألفاظ في التركيب(٣) ، ومنه قول الشهاب في توقيع: "اقتضى حسن الرأي الشريف ... أن نجيب وسائل من وقف في هذا القصد وقفة سائل، لينال بذلك كل إحسان ، وإحسان كل نائل" ، وقوله في المولّى: "ابتسمت أسرة الحمد بشكر أوصافه ووصف شكره ، واختالت مواد الثناء بحسن خلاله ، واختارت كواكب السناء إقبال طوالعه بطوالع إقباله"(٤) .

ومنه في رسالة ابن الوردي في ذم القاضي الرياحي قوله:"لا شرف له ذكر ولا ذكر له شرف ، يوقع العظيمة ويُعظم الوقيعة ، ويشارع الخليفة ويخالف الشريعة ، يدع الإيثار ويؤثر الدعة ، ويختار المرابع المتذهّبة على المذاهب الأربعة"(٥) .

وأقل ألوان الجناس في رسائل كتاب عصر المماليك ، جناس التصحيف ، أو

---

(١) صبح الأعشى ١١: ٢٦٦ ، ٢٦٩ ،وانظر ١٢ : ٢٠٥ ، ١٤ : ٣٢٢ ، ٣٢٨ .
(٢) صبح الأعشى نفسه ١٢ : ٢٠٩ ، وانظر ١٨٣:٩ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٢ : ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ١٣ : ١٥ ، ١٨ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ديوان ابن الوردي : ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٥١ ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، السيوطي ، مكتبة مصطفى فهمي الكتبي، القاهرة١٩٠٣م ، ٢ : ١٨٩ .
(٣) البديع في نقد الشعر : ٣٠ ، المثل السائر ١: ٢٦١ ، جوهر الكنز : ٩٦ ، حسن التوسل : ١٩٧ .
(٤) صبح الأعشى ١٢ : ٢٧٠ ، ٢٧١ ، وانظر ١٢ : ٢١٢ .
(٥) ديوان ابن الوردي : ١٧٤ .

الخطي ، وهو الذي تتفق فيه اللفظتان خطاً لا لفظاً(١) ، ولصفي الدين الحلي رسالة أنشأها على هذا النهج ، سمّاها التوأمية ، ومنها قوله يخاطب ممدوحه : "قبّل قبل يراك ثراك ، عبد" عند رخاك رجاك ، أبي" أبى سؤال سواك ، آمل" أمّك رجاء رخاء ، فألفى فألقى جِدة جدّه بأعتابك ، باغياً شرفاً سرفاً ، لاذ بك لأذبك ، مقدماً مقدّماً أمل آمل ، يُزجيه ترجّيه ، يبشّره بيُسره ، وَجودك وُجودك ، ..."(٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب كانوا ينساقون وراء الجرس الذي تحدثه الأصوات المتقاربة ، فاستخدموا الخواص الصوتية للعبارات ، فتراهم يكررون أصوات الصفير مثلا ، وقد عدّ ابن رشيق وابن الأثير ذلك من المعاظلة اللفظية(٣) ، وعلق القلقشندي على ذلك بأن تكرار الحروف لايوجب المعاظلة ، والتنافر ، بل يكون بحسب التركيب(٤) .

والكاتب ، نتيجة سعيه وراء الجرس الموسيقي الذي ينجم عن تعاقب كلمات يتكرر فيها حرف واحد ، أو حروف متقاربة ، قد يقع في ربقة الأسر لألفاظه ، "وفي هذا أحياناً من الخطر ما فيه ؛ إذ تصبح الكلمة هي التي تولّد الفكرة ، بدلاً من أن تستدعي الفكرة الكلمة ، أو الكلمات المعبرة عنها ، المحددة لها"(٥) ، كما رأى الدكتور محمود إبراهيم .

ومنه قول محيي الدين بن عبدالظاهر في تقليد بالوزارة في المقلّد :" وهذا الممدوح بأكثر من هذه الممادح والمحامد من ربه ممدوح وممنوح"(٦) ، وقوله في عهد قلاوون لابنه الأشرف خليل : "... ويُقسم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرئب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح ، ويتفتق اشتقاق النعوت

---

(١) البديع في نقد الشعر : ١٧ ، نهاية الإيجاز : ٢٩ ، تحرير التحبير : ١٠٥ ، جوهر الكنز : ٩٤ ، حسن التوسل : ١٩٢ .
(٢) ذكر محمود رزق سليم أن هذه الرسالة مطبوعة مع ديوانه طبعة بيروت : ٤٨١ ، غير أنني لم أقف على نسخة من تلك الطبعة (عصر سلاطين المماليك ٥ : ٣٩٩) .
(٣) العمدة ٢ : ٢٩٤ ، المثل السائر ١ : ٢٩٤ .
(٤) صبح الأعشى ٢ : ٢٩٤ .
(٥) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني . د. محمود ابراهيم ، مكتبة الأقصى ، عمان ١٩٧١م : ٢٠٢ .
(٦) صبح الأعشى ١١ : ٢٦٧ .

فيقول التسلي للتملّي : سواء الصالح و الصّلاح ، والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقّله وتنقّله أتم حنين ، فسمّت ووَسمت باسمه أكابر الملوك والسلاطين"(١) .

- الطباق والمقابلة

يعد الطباق والمقابلة من اهم فنون البديع التي استخدمها الكتّاب في عنايتهم بالمعاني ووسائل التعبير عنها(٢) كما رأى محمود رزق سليم . وقد اجمع علماء البلاغة على أن الطباق اصطلاحا هو الجمع بين معنيين متضادين في الكلام(٣) ، على عكس معناه اللغوي(٤) . وإذا عد الطباق من محسّنات المعاني ، فهو يقود بالضرورة إلى تحسين الالفاظ ، إذ إن ارتباط المعنى باللفظ الدال عليه يقتضي تضاد الالفاظ لتضاد المعاني . كما ان التضاد قد يكون بإثبات المعنى ونفيه مثل : يحب ، ولايحب ، فإذا كان اللفظ من الاضداد(٥) نفسها : كالمطابقة لغة واصطلاحاً ، فيجب تكراره بمعنييه ليكون طباقاً ، وإلا كان تورية إن احتمل المعنيين ولم يتكرر ، وفي هذه الحالة يكون الطباق من حالات الجناس .

أما المقابلة فهي "التنظير بين شيئين فأكثر" ، وتكون كالطباق بين ما يخالف ، وتكون بين ما يوافق(٦) ، فهي اعم من الطباق ؛ ذلك لأن التنظير بين غير الاضداد ليس بمطابقة ، وهي أقدر من الطباق على التعبير عن المعاني ؛ لأنها تقوم على التركيب لاعلى الكلمة .

ويبدو أن الطباق يؤدي وظيفة أخرى إضافة إلى تحسين المعاني والالفاظ ، وتلك

---

(١) صبح الاعشى ١٠ : ١٧٢ ، وانظر ١٠: ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٢ : ١٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ١٣ : ١٨٢ ، ١٤ : ٣٢٣ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٢ .
(٣) كتاب الصناعتين : ٣٠٧ ، سر الفصاحة : ٢٣٤ ، المثل السائر ٢ : ٢٧٩ ، تحرير التحبير : ١١ ، ١١٤ ، حسن التوسل : ١٩٩ ، خزانة الادب ٢ : ١٥٦ . ١٥٧ .
(٤) انظر تعليل ابن الاثير لذلك في المثل السائر ٢ : ٢٨٠ .
(٥) جوهر الكنز : ٨٤ .
(٦) جواهر الالفاظ ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٢م : ٥ ، الصناعتين : ٣٣٧ ، نهاية الإيجاز : ١١١ ، تحرير التحبير : ١٧٩ ، منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦م : ٥٢ ، حسن التوسل : ٢٠٣ ، خزانة الادب ١ : ١٢٩ .

هي وظيفة الاستقصاء والشمول والدقة ، ولذلك تراهم يكثرون منه في المهادنات في تعداد الأماكن التي تنطبق عليها (١) .

ويؤدي الطباق هذه الوظيفة في العهود والمبايعات ، وبعض رسائل التولية والتعيين ، فمن بيعة للخليفة أحمد بن المستكفي جاء أنه لم يبق أحدٌ يرفض بيعته " لاضارب بسيف ولاكاتب بقلم ،..., ولامن يجتهد برأيه فيخطئ أو يصيب ، ولامتحدث بحديث ، ولامتكلم بقديم وحديث ، ولاساع على قدم ،...، ولاجمع قلة ولاكثرة ،...، ولابادٍ ولاحاضر ، ولامقيم ولاسائر ، ولا أوّل ولا آخر" (٢) .

وقد يؤدي الطباق وظيفة المبالغة والتهويل ، ومن ذلك قول ابن عبدالظاهر في رسالة بيبرس إلى بيمند بعد فتح أنطاكية ، يصف ما استولى عليه المسلمون فيها من غنائم :"استغنى الفقير ، وتأهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي" ، وذلك بعد تنبيه بيمند إلى ما خسره بقوله :"نُهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي" (٣) .

وتكثر المقابلة في رسائل المفاخرات ، وبخاصة بين السيف والقلم ، وهو أمرٌ مسوغ فيما أرى ؛ ذلك لأن المفاخرة قائمة على المفاضلة بين طرفين قد يصلان إلى درجة التضاد ، فالمقابلة في هذا النمط من الرسائل تخدم غرض الكاتب في ذكر محاسن الطرفين وعيوبهما ، ومن ذلك ما أجراه ابن نباتة على لسان القلم مخاطباً السيف : "أتفاخرني ، وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضرب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمّر وأنت المدمر ، وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد ، وأنت العابث وأنا المجود ،...، أنا لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح ، والساهر وقد مُهّد لك في الغمد مضجع ، والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره" (٤) .

كما تكثر المقابلة في رسائل الصراع مع الصليبيين والمغول ، كالمقابلة بين

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٤:٣٤ ، وانظر: ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٦ .
(٢) نفسه ٩ : ٣٣٢ ، وانظر : ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ١٠ : ٧٢ - ٧٣ .
(٣) الروض الزاهر : ٣٩ .
(٤) خزانة الأدب ١ : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، وانظر ١ : ٢٣٦-٢٣٧ ، وانظر ديوان ابن الوردي: ٨٠-٨٥ .

حال الإسلام وبين حال الكفر قبل المعركة وبعدها(١) ، وحال الحصون قبل الفتح وبعده(٢) ، والمقابلة بين مجانيق المسلمين ومجانيق أعدائهم(٣) ، وفي وصف أفعال الصليبيين(٤) ، وما آل إليه أمر الأعداء بعد المعركة(٥) ، "ولعل ذلك راجع إلى التعبير عن الصراع والتضاد والتنافر بين المسلمين وأعدائهم ، وهذا أمر يعمل على تنمية تشكيل معالم الصورة الأدبية التي يهدف الكاتب إلى تصويرها"(٦) ، كما رأى الدكتور عبد الجليل عبد المهدي .

وترى المقابلة في الرسائل الوصفية ، مثل وصف ابن البارنباري يوما مطيرا(٧) ، ووصف ابن نباتة وفاء النيل وفيضانه(٨) ، ووصف الشهاب الحلبي بعض الطيور(٩) .

كما أدت المقابلة وظيفة الاستقصاء والشمول ، فاستخدمها الكتّاب في المبايعات والعهود ، ففي بيعة أحمد بن المستكفي جاء أنه لم يبق "لامخالط للناس ولاقاعد في عزلة ،...، ولامسر في باطن ولامعلن في ظاهر ؛ ولامن تطلع عليه شمس النهار ونجوم الليل ،.. حتى آمن بهذه البيعة وأمّن عليها"(١٠) .

وقد تكون المقابلة بتغيير ترتيب الألفاظ نفسها ، فمن توقيع لمحتسب من إنشاء أحمد بن فضل الله قال يوصي المولى :".. وأمر بالمعروف وانْه عن المنكر ، فمنك المنكر لايُعرف ، والمعروف منك لايُنكر"(١١) . .

ومن المقابلات الطريفة التي جُمع إليها الجناس والسجع والترصيع ، قول ابن الوردي على لسان القلم مفاخرا السيف :"إن كنت أعلى فأنا أعلم ، أو كنت أحلى

---

(١) انظر صبح الأعشى ٨ : ٣٨٧ ، ٣٩٥ .
(٢) انظر ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ .
(٣) انظر نفسه ٤ : ٢٥٥ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ .
(٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢٣٩ .
(٥) نهاية الأرب ٥ : ١٦١ ، ١٦٢ .
(٦) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٩٥ .
(٧) الوافي بالوفيات ١ : ٢٥٧ .
(٨) صبح الأعشى ٨ : ٣٣٤ ، وانظر ١٤ : ٢٦٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٩) نفسه ١٤ : ٣٣٣ ، ٣٣٥ .
(١٠) نفسه ٩ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وانظر : ٣٣٧ ، ١٠ : ٧٢ - ٧٣ .
(١١) نفسه ١٣ : ٣٤٠ .

فأنا أحلم ، أو كنت أقوى فأنا أقوم ، أو كنت ألوى فأنا ألوم ، أو كنت أطرى فأنا أطرب ، أو كنت أغلى فأنا أغلب ، أو كنت أعتي فأنا أعتب ، أو كنت أقضي فأنا أقضب"(١) .

- التورية

وهي من محسّنات المعاني ، بحيث تكون الكلمة تحتمل معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ، ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله(٢) ، وعدها الشهاب الحلبي من التخييل(٣) ، ويفهم مما ذكره ابن حجّة أن القدماء لم يكونوا يُعنون بهذا الفن كثيراً ، ولكن المتأخرين شغفوا به ، وأضاف :"إن التورية من أغلى فنون الأدب ، وأعلاها رتبة" . ونقل عن الصفدي قوله :"ومن البديع ما هو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام ، فإنه تقف الأفهام حسرى دون غايته"(٤) .

كما ذهب ابن حجّة إلى أن الفاضل "هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره ،...، وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها" ، وذكر عدداً من أدباء مصر والشام ممن عُني بالتورية ، وأخذ برأي الصفدي في أن أدباء مصر والشام يستوون في استعمالها(٥) .

ويبدو أن التورية ارتبطت بالدراسات القرآنية(٦) ، وبخاصة تأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم . أطلق السكاكي على التورية الإيهام ، وقال بعد تعريفه وسوق مثال عليه :"وأكثر المتشابهات من هذا القبيل"(٧) ، ونقل ابن حجّة عن الزمخشري قوله :" ولا نرى باباً في البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع

---

(١) ديوان ابن الوردي : ٨٣ .
(٢) معالم الكتابة : ١٧ ، تحرير التحبير ، ٢٦٨ ، جوهر الكنز :١١١، خزانة الأدب ٢ : ٣٩ .
(٣) حسن التوسل : ٢٥٠ .
(٤) خزانة الأدب ٢ : ٤٠ ، وانظر : ٤١ ، ٤٢ ، ١ : ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٥) نفسه ١ : ١٢٣ ، ٢ : ٤٣ ، ٤٤ ، ١٣٥ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٦) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٤ .
(٧) مفتاح العلوم ، السكاكي ، ضبط وشرح نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م : ٤٢٧ .

و لا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله"(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض أدباء عصر المماليك اهتموا بالتأليف في التورية، فألف الصفدي كتاب "فض الختام عن التورية والاستخدام"، غير أنه قصر أمثلته على الشعر دون النثر ، وألف بعده ابن حجة كتاب "كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام" ، وقد تابع الصفدي في الاهتمام بالشعر،كما فعل في باب التورية في خزانة الأدب(٢) .

وقد أشار ابن حجة إلى أن بعض الكتاب في عصر المماليك لم يهتموا بها ، ومنهم الشهاب الحلبي الذي لم يتخذها مذهباً ، ووقعت في نظمه ونثره بنُدرة ، وذكر من بينهم أحمد بن فضل الله العمري ، الذي تمذهب بها غير أنه لم يستطع بلوغ غايتها فجانبها ، ومنهم ابن حبيب الحلبي ، وصفي الدين الحلي . وجعل ابن حجّة التفوق فيما بعد القاضي الفاضل لابن نباتة (٣) .

ومن شواهدها في رسائلهم ما كتب به ابن عبدالظاهر في بشارة بزواج الملك السعيد بركة بن بيبرس من بنت قلاوون . قال :"ويختار لها أبرك طالعٍ ، وكيف لاتكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد"(٤) .

وجاء في منشور بخروج أمير اسمه جمال الدين من السجن : "الحمدلله مفرّج القلوب ،...، الذي أعاد إلى المخلصين في طاعتنا النعمة ...، وألقى على الأوّل منهم جمالاً لايسع الأذهان أن تتصف بإنكار حقوقه"(٥) .

وفي توقيع بنظر الدواوين لمن اسمه تاج الدين ، جاء أنه وُلّي بسبب "عفةٍ رفعته من الرتب الديوانية إلى مفارقها ، ولارتبة للتاج إلا ذلك"(٦) . وتجدر الإشارة إلى أن التورية عن أسماء من تصدر بحقهم رسائل التولية، لاتكاد رسالة

---

(١) خزانة الأدب ٢ : ٤٠ .
(٢) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٩ - ٣٩٢ .
(٣) خزانة الأدب ٢ : ٢٣٧ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٨ - ٣٩٠ .
(٤) صبح الأعشى ١٤ : ٣٤٣ .
(٥) نفسه ١٣ : ١٨٦ .
(٦) نفسه ١١ : ٣٢١ .

من تلك الرسائل تخلومنها(١) .

ومن ذلك في رسالة ابن الوردي بوصف زلزال سنة ٧٤٤ هـ قوله : "نستعيذ بالله ونستعين ، من سم هذه السنة فهي أم أربعة وأربعين"(٢) ، وقوله من رسالة "النبأ عن وصف الوبا" يصف تنقل الطاعون :"واستشهد بالقدس وزكى ، فلحق من الهاربين الأقصى بقلب في الصخرة ، ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة"(٣) ، وقوله من رسالة المفاخرة بين السيف والقلم ، يصف القلم :"وجمّل الورق بغصنه كما جمّل غصنه بالورق"(٤) . والتورية هنا داخل فيها الجناس .

ومن التوريات اللطيفة قول ابن نباتة في مفاخرته بين السيف والقلم : "...وصلى الله على سيدنا محمد ....، وعلى آله وصحبه ذوي المجد البين ، وكل مجدٍ بائن ، صلاحة واضحة السطور ، فاتحةً أدراج الصدور ، ما نقلت عن صحائف البحار غواديها ، وكتبت أقلام النور على مهارق الرياض حكمة باريها"(٥) .

وقد أجروا التورية في بعض ألفاظ الآيات القرآنية . قال ابن العجمي معلقاً على قصيدة :"فيا له من قصيد رد عيون أعيان هذه الصناعة من الحياة مطرقة ، تاليةً على من قاسها بامرئ القيس: (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة)"(٦) .

ومن لطائف التورية قول ابن مكانس في اعتذاره لأبي بكر بن العجمي : "والمسؤول من إحسانه أمران ، أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر رد الفاسق عن الباب العالي ، فإن أبابكر أول من تصلب في الردة"(٧) .

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٠: ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١١: ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ١٢ : ٢٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٥ .
(٢) ديوانه : ١٤٩ .
(٣) نفسه : ٨٧ - ٨٨ .
(٤) نفسه : ٧٨ - ٧٠ .
(٥) خزانة الأدب ٢ : ٤٦٤ .
(٦) نفسه ٢ :٤٦٦ ، والآية من سورة النساء : ١٢٩ .
(٧) نفسه ٢ : ٤٦٨ ، وانظر : ٤٦٧ ، صبح الأعشى ١٤ : ٣٤٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ديوان ابن الوردي : ١٨١ ، ٤٤٠ .

- ظواهر لغوية أخرى

يسترعي النظر في رسائل هذا العصر بعض الظواهر اللغوية التي تكاد تكون فريدة ، وقد يكون لها مسيس علاقة بثقافة الكتّاب والصنعة الفنية التي اتخذوها سبيلاً .

يبدو من خلال بعض الرسائل أن محفوظ بعض الكتّاب صرفهم عن الاسترسال في الكتابة أحياناً ، بحيث كان الكاتب يقحم شيئاً من محفوظه في رسالته ؛ مما يؤدي به إلى تكلف العبارة وضعفها ؛ ذلك لأن ما أقحمه يحتاج إلى ربطٍ بالفكرة موضع الكتابة ، مما استدعى حرصهم على تهذيب رسائلهم كما قال ابن حجّة (١) .

ومن شواهد ذلك ، قول الشهاب الحلبي في وصف طائر أبيض :"نقي اللباس ، مشتعل شيب الرأس ، كأنه في عرانين شيْبه ، لا وبله ، كبير أناس"(٢) ، حيث خرج قول امرئ القيس بآية كريمة ، ولما أراد الانسجام بينهما اضطر إلى إخراج البيت الشعري عن سياقه الأول ، فقال : لا وبله ، وهي قلقة في مكانها .

وقد يكون القصد إلى السجع سبباً آخر ينضاف إلى التوفيق بين المحفوظ والفكرة ، ويظهر أثرهما في العبارات واضحاً كما في قول ابن البارنباري بأن الملك الناصر أعد للصيد " كل هيكل قيد الأوابد ، قد عُقد الخير بناصيته ، فأصبح حسن المعاقد"(٣) ، حيث مزج قول امرئ القيس في الحصان بالحديث الشريف في الخيل ، ثم اضطره السجع إلى موافقة ما حلّه من بيت امرئ القيس ، فأضاف : فأصبح حسن المعاقد .

ومن الأمثلة الطريفة على محاولة الكاتب الإفادة من محفوظة ، وإن كلفه ذلك وضوح التكلف ، وعناء الفكر قول ابن نباتة بوصول هدية من الطيور :"وصلت تلك التمسّات واضحة الأنوار ، لائحةً كبياض النوار ، تامة تمام ميقات موسى عليه

---

(١) خزانة الأدب ٢: ٣١ ، وانظر البديع في نقد الشعر : ٢٩٥ ، جوهر الكنز :٢٩٥ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٣ .
(٣) نفسه ١٤ : ١٩٢ ، وانظر ١٣ : ٣٣٩ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٣ .

السلام ، إلا أنها لبياضها كأربعين نهار"(١) ، وغير خاف أن اسم الطيور وعددها قد حسّنا للكاتب حل قوله تعالى :(فتم ميقات ربه أربعين ليلة)(٢) ، فكان أن الآية فيها حديث عن الليل ، وهذه الطيور بيضاء ، فاقتضى منه ذلك أن يتابع موضحاً : إلا أنها لبياضها كأربعين نهار .

وتجدر الإشارة إلى أن النقاد جعلوا ذلك من قبيل التوليد اللفظي القائم على تلفيق كلامين لتوليد كلام ثالث(٣) ، وقد عده ابن حجّة من قبيل السرقة ، وفضل عليه التوليد من المعاني(٤) .

ومن الظواهر اللغوية البارزة في الرسائل الحذف أو الاكتفاء ، وقد علل الدكتور شوقي ضيف شيوعه عند الكتاب بكثرة متابعتهم للأسلوب القرآني ، فتأثروا به ، وأشار إلى أنه لم يكن بدعة العصر المملوكي ؛ إذ عرفه الكتاب في العصر الأيوبي ولكن على نطاق ضيق(٥) .

والناظر في العبارات التي ورد فيها أسلوب الاكتفاء يجد أن السجع ومراعاة رويّه سبب واضح وراءه ، حيث توجب القرينة الأولى من السجع على الكاتب أن يحذف شيئاً من آخر القرينة الثانية ، ومن امثلة ذلك قول محيي الدين بن عبدالظاهر ، "... ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تهدي إلى صراط الذين"(٦) .

وقد تكون العبارة التي ورد فيها الحذف أولى القرينتين ، ثم يأتي الكاتب بالقرينة الثانية مضطراً إلى موافقة روي القرينة الأولى ، مما يسلمه إلى التكلف والتعقيد ، ومن ذلك قول ابن نباتة في توقيع في حق المولّى :"ولازم طريقة مشايخه فما ، وشكر الحال فجعل في منبت كل شعرة لساناً للشكر وفما"(٧) .

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ١١٧ ، والتمّ: طائر كالأوز أبيض ، أحمر المنقار (صبح الأعشى ٢ : ٦٤) .
(٢) سورة الأعراف : ١٤٢ .
(٣) انظر البديع في نقد الشعر : ٢٨٤ ، تحرير التحبير : ٤٩٤ ، جوهر الكنز : ٢٢٤ .
(٤) خزانة الأدب ٢ : ٢٦ .
(٥) الفن ومذاهبه في النثر : ٣٨٠ .
(٦) صبح الأعشى ١١ : ٢٢٨ ، وانظر ١٢ : ٤٤ ، ٣٧٩ .
(٧) نفسه ١٢ : ٤١٨ .

ولم تكن الحال في أسلوب الحذف دائماً واحدة ، إذ نجد أنه قد يؤدي وظيفةً تتصل بالغرض من الرسالة ، فتنهض عبارته بالمعنى ولا تكون عبثاً عليه ، ومن ذلك في مرسوم قول كاتبه في مدح المولّى : "ولما كان المجلس السامي ...هو المراد بهذا القول الحسن ، والحقيق من الإحسان بكلما والخير بأن ، والخصيص من سوالف الخدم بما والمفضل على سائر النظراء ، ولو قيس بمن"(١) ، فكاتب المرسوم يريد من خلال أسلوب الحذف هنا تعميم فضل المولّى ، ورفع شأنه .

وتجدر الإشارة إلى أن النقاد القدامى لم يهتموا بالحذف كثيرا ، وقد ذكر ابن حجّة أنه لم يره في كتب البديع(٢) ، لكن ابن رشيق ذكره في باب الإشارة(٣).

وعلى الرغم من توجيه النقاد إلى ضرورة الاطلاع على الألفاظ الكتابية ، وحفظ جانب منها ، فإنها كانت قليلة الظهور في الرسائل، ولعل تصرف الكاتب فيما يأخذه منها يطمس بروزه في سياق الكلام .

ومن ذلك قول ابن الوردي على لسان السيف مخاطبا القلم في المفاخرة بينهما : "فأدنى ضربة مني تروم أرومتك ، فتستأصل أصلك ، وتجتث جرثومتك"(٤) .

ومنه في مرسوم بالمسامحة على لسان السلطان :"نتتبع كل أمر فنسد خَلَّته ، ونثقّف ميله ، ونقيم أوده"(٥) .

ومن الظواهر اللغوية الواضحة في الرسائل شيوع توجيه المصطلحات والأسماء(٦) ، ويبدو أن بروز هذه الظاهرة في رسائلهم له ما يبرره ؛ إذ "يرجع سبب ولوع بعضهم به إلى أنهم كانوا علماء فقهاء في الدين، أو مبرزين في النحو

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٢٨٢ .
(٢) انظر العمدة ١ : ٣١٠ .
(٣) انظر الألفاظ الكتابية ، الهمذاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٠م : ٧-٨ ، الصناعتين : ١٦٤ ، العمدة ١ : ١٠٧ ، معالم الكتابة : ١١٩ ، حسن التوسل : ٨١ .
(٤) ديوانه : ٨٣ ، وانظر مطلع الفوائد : ٤٧٢ و ٤٧٦ ، وانظر هذه الألفاظ في الألفاظ الكتابية : ٢٥٧ - ٢٥٨ ، جواهر الألفاظ : ٥٤ - ٥٥ .
(٥) صبح الأعشى ١٣ : ٧٩ ، وانظر : ٣٢ ، وانظر هذه الألفاظ في الألفاظ الكتابية : ١ ، جواهر الألفاظ : ٨ .
(٦) انظر الفن ومذاهبه : ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، وانظر النقد الأدبي في العصر المملوكي ، د. عبده عبد العزيز قلقيله ، مكتبة الأنجلو-مصرية ، القاهرة ١٩٧٢م : ٢٩٠ .

أو غيره"(١) ، كما يرى محمود رزق سليم ، كما كان لثقافتهم الموسوعية دور في ذلك . ويبدو واضحاً أن الكتابة لم تكن تعاني مشكلة لغوية مثل تلك التي عانى منها الشعر بسبب تلك المصطلحات والأسماء التي وجهوها(٢) . وقد يعود السبب في ذلك إلى خلو الكتابة من قيود الوزن التي تحكم الشعر ، وإلى مناسبة تلك الاصطلاحات والأسماء لموضوعات الرسائل ووظائف من تصدر بحقهم .

وقد استعمل الكتاب في رسائلهم اصطلاحات فقهية ، وأخرى من علم الحديث ، واصطلاحات نحوية ، وعروضيه ، وبلاغية ، ووجهوا اصطلاحات المتكلمين ، والمتصوفة ، والفلك ، كما استعملوا أسماء الأعلام من العلماء والساسة والقراء ، وأسماء الأماكن . وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة التوجيه كانت بارزة في الرسائل الديوانية والأدبية على نحو أوضح منه في الرسائل الإخوانية ، وكانت أوضح ما يكون في رسائل التولية والتعيين .

فمن توجيهاتهم إلى اصطلاحات الفقهاء قول محيي الدين بن عبدالظاهر في تقليد بالوزارة يصف المقلّد :"فهو حجتنا على من سميناه خصوصاً ومن يدخل في ذلك بطريق العموم ، فليعملوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم"(٣) .

ومنه قول ابن نباتة في توقيع بشد متحصّل كنيسة القيامة بأن المولّى أسندت إليه الوظيفة "استناداً إلى صحيح خبره في الكفاءة وعلوّ سنده ، وارتياداً لهممه التي إن رواها مسلمٌ عن طوعه ، رواها نصرانيٌ عن تجلده"(٤) ، وقد جمع إلى التوجيه التورية في مسلم ، والمقابلة بين حال المسلم والنصرانيّ .

كما استعملوا اصطلاحات المتكلمين ، ومن ذلك في توقيع أنشاه والشهاب الحلبي قوله :"وخصّنا منه بمن تمسك بجوهره الأعلى فلم يتعرض من هذا الأدنى إلى عرض"(٥) ، وهنّئ الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بعد شفائه من مرض

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٤٠١ .
(٢) انظر ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ، د. عبدالعزيز الأهواني ، مكتبة الأنجلو-مصرية ، ١٩٦٢م : ٣٣ .
(٣) صبح الأعشى ١١ : ٢٦٩ .
(٤) نفسه ١٢ : ٣٣٣ ، وانظر ٩ : ١٣٨ ، ١١ : ٣٢٤ .
(٥) نفسه ١١ : ٣٢٤ .

"بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك العرض"(١) .

ودخلت في رسائلهم بعض اصطلاحات المتصوفة ، وبخاصة في تلك الرسائل الديوانية التي كانت تصدر بتولية أحدهم ، فمن توقيع لشيخ المتصوفة في الخانقاه الصلاحية ، قال ابن فضل الله ، شهاب الدين يصفهم :"وأثقل تكرار الذكرى قلوبهم... ، وقربت لهم المحبة(٢) في ذات الله كل متباعد ، والتفت أشتاتهم فاختلفت الأسماء والمعنى واحد" ، وقال في الخانقاه :"هي قطب نجومهم السائرة ، ومراكز أفلاكهم الدائرة ،..., وفيها مواضع خلواتهم ، ومطالع جلواتهم(٣)، ومنهاج طريقتهم(٤) ، ومعراج حقيقتهم"(٥) .

وكان لاصطلاحات الفلك في رسائلهم حضور ، غير أنها قليلة إذا ماقيست بغيرها ، ومن ذلك قول ابن نباتة من جواب بوصول هدية طيور جارحة :"... و لازال من أجنحة نصره حتى السماك الرامح ، ومن جنود سعده للأولياء سعد السعود ، وفي الأعداء سعد الذابح"(٦) .

واكثر ما دار في رسائلهم من توجيهات ، كان توجيه اصطلاحات العلوم اللغوية ، وبخاصة اصطلاحات : النحو ، والعروض ، والبلاغة ، ويبدو أن شيوع هذه الاصطلاحات أكثر من غيرها عائد" إلى أن هذه العلوم كانت أساسية لمن يترشح للكتابة(٧) ، كما كان أكثر الكتاب شعراء ، وبذلك علقت هذه الاصطلاحات في أذهانهم ، وترى في توجيهاتهم لها أنها جاءت في أماكنها غير قلقة ، وإن كانت دالة على مبلغ

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٦٦ ، وانظر ١١ : ٣٧٥ .
(٢) المحبة عند المتصوفة هي محبة الذات عينها لذاتها ، لإباعتبار أمر زائد ، وكل محبة بين اثنين هي إما لمناسبة في ذاتيهما ، أو لاتحاد في وصف حال أو رتبة أو فعل (انظر اصطلاحات الصوفية ، الكاشاني ، تحقيق عبد اللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٧م : ٧٨) .
(٣) الجلوة عند المتصوفة هي ظهور الذات المقدسة لذاتها في ذاتها ، والاستجلاء هو ظهورها لذاتها في تعيّناتها (اصطلاحات الصوفية : ٣٩) .
(٤) الطريقة عندهم هي السّير بالسيّر المختصة بالسالكين إلى الله ، من قطع المنازل والترقي في المقامات (اصطلاحات الصوفية : ٦٥) . وحقيقة الحقائق عندهم هي الذات الأحدية الجامعة لجميع الحقائق ، وتسمى حضرة الوجود ، والحقائق هي جواهر الوجود التي لاتتأتى معرفتها إلا بالكشف (اصطلاحات الصوفية : ٥٩) .
(٥) صبح الأعشى ١١ : ٣٦٧ ، وانظر ١٢ : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ - ٤١٥ .
(٦) نفسه ٩ : ٨٣ ، وانظر ١٢ : ٨٧ ، ٤١٣ ، وانظر ما أورده من اصطلاحات في
(٧) نفسه ٥ : ٣٧٩ - ٣٨٠ .

عنايتهم بالصنعة (١) .

وقد سمي ابن إياس توجيه اصطلاحات النحو معنى النحو ، وذلك حين يستخدمها الكاتب بمعناها اللغوي لا الاصطلاحي(٢) .

كتب محيي الدين بن عبد الظاهر رسالة مبنية على اصطلاحات النحاة واللغويين ، ومنها قوله :"حرس الله نعمة مولاي ! ولازال كليم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلِف ، ومُنادى جوده لايُرخّم وأحمد عيشه لاينصرف ، ولاعدم مستوصل الرزق من براعته التي لاتقف ، ... ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولاخاطبت الأيام مُلتمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود..."(٣) .

ومن توجيهاتهم إلى اصطلاحات العروض قول ابن نباتة في توقيع يذكر سبب تولية الموقّع له ، أنه ولي لكون "مكانته من بيت السيادة الرفيع عماده ، البديع سنده ، المنيع سناده ، المديد من تلقاء المجرة طنبه ، الثابتة من حيّز النجوم أوتاده "(٤) .

أما اصطلاحات البلاغة فقد حث القلقشندي على معرفتها ، وجعلها مما يحتاج إليه الكاتب للتوجيه أو التورية بها في تفاصيل كلامه (٥) ، ومن أمثلة ذلك ما كتب به أبوبكر بن العجمي على قصيدة . قال :"وبعد ، فقد وقفت على هذه المعجزة التي أحيا بها عيسى ميت البديع ، ولم يدع للحلّي في بهجتها محلا ، وأحسن التذييل والترشيح والتهكّم عليه ، من غير التفات لما أهمله ولم يتعرض إليه ، ودخل جنان الجناس فاجتنى من قطوفها الدانية ما راق ، واطّردت أنهارها له فاستطرد منها في أعلى الطباق ، وقابل وجوه حورها أحسن المقابلة ، آمناً فيها من الاشتراك والمماثلة ، وأوضح الفروق بين التورية والإبهام ، والتوجيه

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٢١٢ - ٢١٣ .
(٢) بدائع الزهور ١ : ٢٩١ .
(٣) صبح الأعشى ١ : ٢١٥ ، وانظر ٧ : ٤٣٢ ، ١١ : ٢٦٨ ، ١٢ : ٣٥٥ ، ٣٧١ ، ١٣ : ٥٢ ، ١٤ : ٣٣١ ، ٣٥٩ .
(٤) نفسه ١٢ : ٣٩٩ ، وانظر ٨ : ٣٦٥ ، ١٢ : ٣٩٠ .
(٥) نفسه ١ : ٢٢٦ .

والاستخدام"(١) .

ومن توجيهاتهم إلى أسماء الأعلام ما جاء في تقليد بكتابة السر بالشام لابن فضل الله العمري ، قال منشئه :"وكم له ... من تقدمات اقتضت تكريمه ،... ، وكتابةٍ حُلل المهارق بوشيها مرقومة ، فلو قابله الفاضل عبد الرحيم لبادر إلى فضله إقراره وتسليمه ، أو عبد الحميد لكانت مناهجه الحميدة بالنسبة إلى مذاهبه ذميمة ،... ، أو أدركه قدامة لعرف تقديمه"(٢) .

كما وجهوا أسماء الكتب والمصنّفات ، ومن ذلك في توقيع بكتابة السر بالشام أنشأه الصفدي ، قوله يصف المولّى :"فلو عاصره صاحب الكشّاف لغطى رأسه من تقصيره ،... ، أو النووي ، رحمه الله ، لاستعاد منه زهرات روضه اليانعة ، أو الآمدي لما امتدت له معه في أصوله خطوة ،... ، أو ابن مالك لأمسى تسهيله تعقيداً"(٣) .

ووجه ابن الوردي بعض أسماء الأماكن في رسالته الحرقة للخرقة . قال يذم القاضي الرياحي :"كم دُعي إلى بابلّي فما ارتاح إلى الباب ، وتراه حيران لعدم الرقّة ، فإذا قيل له فلان" كفر طاب ، وهو في الغيبة جسر الحديد"(٤) .

وقد تباينت مواقف النقاد من إدراج اصطلاحات العلوم والفنون في المنظوم والمنثور . فقد دعا أبوهلال العسكري إلى نبذ ألفاظ المتكلمين: مثل الجسم ، والعرض ، والجوهر في الكتابة ، وعد استخدامها هجنة(٥) ، ويبدو من حديث ابن رشيق أنه يرفضها في الشعر ، غير أنه لم يوضح موقفه منها في النثر(٦) ، وذهب

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٢٢٦ - ٢٢٧ وفي النص توريات كثيرة مؤشر عليها . وانظر ١٢ : ٣٤٣ .

(٢) نفسه ١٢ : ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، وانظر ١١ : ٦ ، ١٤٥ ، ٣٠٠، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ١٢ : ٧٧ ، ٣١٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٤١٣ ، ١٤ : ٢٧٩ .

(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٣٤٩ - ٣٥٠ ، والمصنفات المذكورة هي الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري (-٥٣٨هـ) ، وروضة الطالبين للنووي (-٦٧٦ هـ) ، والإحكام في أصول الأحكام لعلي بن محمد الآمدي (-٦٣١ هـ) ، وتسهيل الفوائد لابن مالك (-٦٧٢ هـ) . وانظر ٩ : ١٠ ، ١٢ : ٩٠ ، ٣٥٥ ، ١٤ : ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) ديوانه : ١٦٩ ، وانظر في أسماء هذه الأماكن على الترتيب (معجم البلدان ١ : ٣٠٩ ، ٣٠٣ ، ٢ : ٢٣٥ ، ٣ : ٥٨ ، ٤ : ٤٧٠ ، ٣: ٢١٥، ١ : ٣٢٨) وهي أماكن قريبة من حلب ، وكانت تابعة لها .

(٥) كتاب الصناعتين : ١٣٥ .

(٦) العمدة ١ : ١٠٧ .

ابن سنان الخفاجي إلى مثل ذلك ، إلا إذا تكلم الأديب في تلك المهن والعلوم(١)، وتابعه في رأيه حازم القرطاجني(٢) .

أما المتأخرون ، فقد شغفوا بهذا اللون . قال ابن الأثير بأن على الكاتب إذا أخذ "في صوغ معنى من المعاني ، وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي ،... ، فليس له أن يتركه ويحيد عنه ؛ لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده "(٣) ، وترى في خزانة الأدب شواهد كثيرة له من النظم والنثر(٤) .

كما استخدم الكتاب في بعض رسائلهم ألفاظاً مستمدة من غير العربية ، وبخاصة مما شاع استخدامه عند النصارى ، وهو أمر طبيعي بحكم أن الصراع بين المسلمين والصليبيين "صراع عسكري ، وصراع في العقيدة "(٥) ، كما رأى الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، وبحكم أن بعض الرسائل كانت موجهة إلى الصليبيين .

ومن هذه الألفاظ : الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، المكنّى بها عن الأب والابن والروح القدس ، والصليب المكرم الحال في النّاسوت ، وأناجيل متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا ، والتلامذة الإثنا عشر ، والسيدة ماريّة ، ويوحنا المعمودي" (٦) .

ومن ذلك ما جاء في رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر إلى بيمند ملك طرابلس بعد فتح الظاهر بيبرس انطاكية ، حيث قال :"قد علم القومص الجليل... ، فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، بيمند المنتقلة مخاطبته ، بأخذ انطاكية منه ، من البرنسيّة إلى القومصيّة" ، وقوله منها :"ففي بعض ساعة مر شان المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء

---

(١) سر الفصاحة : ١٩٥ .
(٢) منهاج البلغاء : ١٨٨ - ١٩٠ .
(٣) المثل السائر ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ ، وانظر جوهر الكنز : ١١١ .
(٤) خزانة الأدب ١ : ٣٠٢ - ٣١٩ .
(٥) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٥٤ ، وانظر الأدب في بلاد الشام : ٧٩١ .
(٦) انظر تشريف الأيام والعصور : ٣٤ ، صبح الأعشى ١٣ : ٢٩٢ - ٢٩٤ ، ٣١٣ - ٣١٧ .

القسطلان" ، وقوله : "وأسر من بينهم كنداصطبل"(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن أثر الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين في الألفاظ المستخدمة في الرسائل التي اطلعت عليها ، كان أوضح من أثر الاحتكاك مع المغول؛ إذ كانت الألفاظ المغولية المستخدمة في الرسائل قليلة جداً .

وكما هي الحال في استخدام ألفاظ النصارى في الرسائل المتبادلة معهم ، فقد استخدمت الألفاظ المغولية في الرسائل المتبادلة مع المغول ، ومنها : القان ، والتوامين أو التّومانات ، وفَرمان ، وقراغول(٢) .

ولقد خلت الرسائل في هذا العصر ، مما اطلعت عليه ، من الألفاظ العاميّة ، وغير صحيح "أن العلاقات التجارية بين المسلمين وغيرهم، والحروب أدت إلى نوع من التمازج الثقافي واللغوي" ، بحيث "كان لها أثر كبير في انتشار شيء من الألفاظ ... العاميّة في النثر"(٣)، بل كانت تلك الحروب سبباً رئيسياً في تمسك المسلمين بثقافتهم ، بل وتعصبهم لها وللغتهم في مواجهة الغزاة .

- أثر القرآن الكريم

ويتمثل الأثر القرآني في رسائل هذا العصر في جانبين : أولهما اقتباس الآية بنصها ، أو جزء منها ، والآخر حلها مع بقاء شيء من لفظها . وعلى الرغم من حث النقاد وعلماء الأدب الأدباءَ على الإفادة من القرآن فيما ينشئونه من رسائل ، فإن ذلك كان مثاراً للجدل .

أشار ابن الأثير الحلبي إلى ذلك ، فذكر أن من النقاد من يمنع ذلك مطلقاً ، ومنهم من يجيزه ، ومنهم من سكت عن ذلك ولم يُحر جواباً(٤) ، ويذكر ابن حجّة أن

---

(١) الروض الزاهر : ٣٠٩ - ٣١١ ، وهذه الألفاظ معربة (قومص : Count) , (البرنسيّة أصلها : Prince) , (المرشان : Marshal) , (القسطلان : مأخوذة من Castle) , (كنداصطبل : Constable) .
(٢) انظر تشريف الأيام والعصور :٦ ، ٦٩ ، السلوك ١ : ٧٨٦ ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٣٨ ، وهي تعني على الترتيب : الملك ، ومقدم عشرة آلاف ، وكلام أو رسالة ، وحارس الحدود .
(٣) الأدب في بلاد الشام : ٧٩٢ ، وانظر الأدب في العصر المملوكي ٢ : ٤١ .
(٤) جوهر الكنز : ٦٠٩ - ٦١٥ .

الاقتباس على ثلاثة أقسام : مباح ومقبول ومردود ، فالأول ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي عليه السلام ، والثاني ما كان في الغزل والرسائل والقصص ، والثالث ما ينسب الكاتب فيه إلى نفسه شيئاً مما نسبه الله لذاته ، أو تضمين آية كريمة في معنى هزل ساقط(١) ، ومن أمثلة الأخير رسالة استدعاء أنشأها محيي الدين بن عبدالظاهر ، وصف فيها غلمان حمّام ، وقال يغري صاحباً له بالحضور :"الذي -أبهجك الله- غصون قد هزها الحسن طرباً ،...، وبدور أسدلت من الذوائب غيهبا ، قد جعلت بين الخصور والروادف من المآزر برزخاً لايبغيان ، وعلمنا بهم أننا في جنة تجري من تحتها الأنهار وتطوف علينا بها الولدان"(٢) . ويبدو أن الرأي السائد كان جواز الحل والاقتباس من القرآن(٣) .

وقد أشار ابن حجّة إلى أن الاقتباس يكون في النثر فقط ، أما في الشعر فهو عقد (٤) ، وشرط ابن الأثير في الحل من القرآن" أن يحافظ على ألفاظه ، لعدم القدرة على مماثلتها" . وقصد بالحل "أن يؤخذ بعض الآية فيجعل أولاً لكلام أو آخراً ، أو أن يؤخذ معناها"(٥) ، بينما أشار ابن الأثير الحلبي إلى أن أخذ الآية - كلها أو بعضها - وتضمينه في الكلام ، مع الإبقاء على سياقه هو الاستشهاد (٦) .

وقد اهتم الكتّاب في عصر المماليك بالقرآن الكريم اهتماماً بالغاً ، وانعكس ذلك الاهتمام على رسائلهم ، فلاتكاد رسالة تخلو من اقتباس أو حل لبعض الآيات(٧) ، وبرز ذلك الأثر في بعض الموضوعات مثل الرسائل الجهادية (٨) ،

---

(١) خزانة الأدب ٢ : ٤٥٥ ، ٤٥٦ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ١٨٤ .
(٣) المثل السائر ١ : ٧٧ ، ١١٤ ، الوشي المرقوم : ١٧٤ ، ١٧٥ ، حسن التوسل : ٧٩ ، ٣٢٥ ، خزانة الأدب ٢ : ٤٥٧ ، صبح الأعشى ١ : ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ .
(٤) خزانة الأدب ٢ : ٤٥٩ ، قارن الوشي المرقوم : ١٧٥ ، والعقد هو ضد الحل ، إذ يقوم الشاعر بأخذ شيء من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو قولٍ مأثور فينظمه بلفظه ومعناه ، أو معظم اللفظ فيزيد فيه وينقص منه ليدخل في وزن الشعر (خزانة الأدب ٢ : ٤٨٩) .
(٥) الوشي المرقوم : ١٧٤ ، وانظر حسن التوسل : ٧٩ .
(٦) جوهر الكنز : ٦٠٩ ، قارن صبح الأعشى ١ : ٢٣٤ ، ٢٤٨ .
(٧) انظر عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٤ ، الفن ومذاهبه : ٣٨٥ .
(٨) انظر ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٢ - ٢٥٦ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٦ - ١٦٢ .

ومراسيم الأمر والنهي(١) ، والمبايعات والعهود(٢) ، وهي من الموضوعات التي تستند على أسس دينية ظاهرة ، وبعضها يخاطب في الناس عواطفهم الدينية تجاه الإسلام وتجاه أعدائه .

ومن اقتباسات محيي الدين بن عبدالظاهر ، قوله من رسالة بيبرس إلى أحد الأمراء بعد فتح بلاد النوبة :"صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تثني على عزائمه التي دلت على كل أمر رشيد ،...، وحكمت بعد السيوف في كل عبد سوءٍ (وما ربك بظلام للعبيد)"(٣) .

ومن اقتباسات ابن الوردي ما كتب به عنه وعن أخيه يوسف إلى أحد أرباب الوظائف يسأله وظيفة لأخيه :"وإذا عثني الصاحب بالأخ رفقاً وإحساناً ، تلونا : (هذه بضاعتنا رُدت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا)(٤) ، والله يُعليا بعثلوك... ، حتى يقول أولاد الصاحب عنا: ليوسف وأخوه أحب إلي أبينا منا)"(٥) .

ومن اقتباسات ابن نباتة في مفاخرته بين السيف القلم ، قوله في تصوير الأخير :"... فرقي الأنامل على أعواده ، وقام خطيباً بمحاسنه في خلعة سواده ، والتفت إلى السيف فقال : بسم الله الرحمن الرحيم (ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون)(٦)"، وقوله يصور السيف بعد أن أثاره القلم :"...نهض السيف عجلاً ، وتلمظ لسانه للقول مرتجلاً وقال : بسم الله الرحمن الرحيم (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوي عزيز"(٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الآيات المقتبسة ، أو أجزائها ، كان يُدرج في الرسائل فقرات للسجع ، ومن ذلك في نسخة مرسوم بشد الدواوين بدمشق في وصف

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٣ : ١٤ - ٢٣ ، ٣٧٩ - ٣٨٧ .
(٢) انظر نفسه ١٠ : ٤٤ - ٧٤ .
(٣) خزانة الأدب ٢ : ٤٦٣ ، والآية من سورة فصلت : ٤٦ .
(٤) سورة يوسف : ٦٥ .
(٥) ديوانه : ١٨١، خزانة الأدب ٢ : ٤٦٦ ، والآية من سورة يوسف :٧ .
(٦) سورة القلم : ٢٥١ .
(٧) خزانة الأدب ٢ : ٤٦٤ ، والآية من سورة الحديد : ٢٥ .

المولى ، أن فيه معرفةً "تعم البلاد بين الرغبة والرهبة ، وتجعل مثل ما يودع فيها بالبركة والنماء مثل (حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة)"(١) .

والناظر فيما تقدم من أمثلة الاقتباس في رسائلهم يرى توافقاً بين الاية المقتبسة والموضوع ، وهو أمر طبيعي الصدور عن كتّاب يقع القرآن الكريم في مقدمة أسس ثقافتهم ، كما تحقق الأمثلة الثلاثة الأولى المتقدمة تناسقاً وتنامياً في الرسائل التي أخذت منها ، وتوحي للقارئ بشيء من التورية الناتجة عن التوافق بين بعض لفظ الايات المقتبسة وسياق الرسالة ، مثل : العبيد ، والصاحب ، ومجنون . كما تضيف الآيات في فقرات السجع بعداً جديداً إلى التلاؤم، وهو تنامي الإيقاع في الرسالة .

ويمكن القول بأن الاقتباس ، على كثرته وشيوعه في الرسائل ، لم يبلغ مبلغ حل الايات القرآنية ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة تدرب الكتاب على حل ما يحفظونه من القرآن ، ويبدو أنهم كانوا يرون فيه إبداعاً اكثر ، ومجالاً لإبراز القدرة والموهبة ، وقد يكون إقبالهم على الحل بسبب القيود التي يفرضها الاقتباس على الكاتب من ضرورة التمهيد للسياق الذي ستدمج فيه الاية ، فالحل يعطي الكاتب قدرة على التصرف في المعنى في مواضع مختلفة ، وقد أشار ابن الأثير إلى أن الحل يكسب ملكةً إنشائية متميزة(٢) .

ويقف المطالع في رسائلهم على أمثلة تنم عن قدرتهم وعنايتهم بما يكتبون ، ومنها قول ابن نباتة من توقيع بنيابة القدس لمن اسمه موسى ، أنه وليّها " لاتّقاد ذهنه وشجاعته اللذين آنس بهما من جانب الطور ناراً ، وكيف لا ؟ وقد قالت همّته : يا موسى أقبل ولاتخف ، وأخرج يدك البيضاء في النيابة ، تكن أحق من اعترف بها الإحسان واعترف"(٣) . وهو ينظر في ذلك إلى الايات الكريمة : (آنس

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ٣٣ ، والاية من سورة البقرة : ٢٦١ ، وانظر اقتباسات أخرى في صبح الأعشى ٩ : ١١٦ ، ١١٩ ، ١١ : ٨٨ ، ٢٧٠ ، ١٢ : ٢٢٢ ، ١٣ : ٥٢ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٢ .
(٢) الوشي المرقوم : ٥٣ ، ١٧٤ ، المثل السائر ١: ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٣٦، وانظر صبح الأعشى ٢ : ٣٤٢ .
(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٣٢١ .

من جانب الطور ناراً)(١) ، (قال :خذها ولاتخف)(٢) ، (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)(٣) ، وهي في حق موسى عليه السلام، مع مناسبة اسم المولّى لذلك ، ومناسبتها لجبل الطور المرتبط بالقدس .

ومن ذلك قوله في توقيع بمشيخة الحرم الإبراهيمي في الخليل: "فليعد إلى مباشرة وظائفه ...، بشتاء يتلقى أضياف أبي الأضياف ، بأليف أحوال الداخلين إليه شتاءً وصيفاً وإن لم تكن رحلة إيلاف"(٤) . وهو يشير إلى اسم إبراهيم عليه السلام بالآية : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين)(٥) ، وينظر إلى قوله تعالى : (لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف)(٦) وكأنه يوصيه بتلقي الداخلين إلى الحرم بالترحيب والتكريم ؛ لأن تتمة الآيات في حديث ضيف إبراهيم: (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) ، وتتمة آيات قريش :(الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

وترى في رسائلهم دمجاً لآيات محلولة من سور مختلفة ، يحشدها الكاتب معاً ، مع موافقتها لموضوع الرسالة . أنشأ ابن فضل الله العمري توقيعاً لمحتسب قال فيه يوصيه :"وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر ،...، وأقم الموازين بالقسط حتى لاتتمكن كفّاتها أن تتحامل أو تتحمل ، ولايستطيع قلبها أن يميل مع من يتموّل ، ولايقدر لسانها أن يكتم الشهادة بالحق وإن كان مثقال حبة من خردل ، واجعل لك على أهل المبايعات حفظةً تظل أعمالهم لك تنسخ"(٧) . ولعله ينظر في ذلك إلى قوله تعالى :(يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر)(٨) ، وقوله تعالى : (وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان)(٩) ، وقوله :(فلاتميلوا كل

---

(١) سورة القصص : ٢٩ .
(٢) سورة طه : ٢١ .
(٣) سورة النمل : ١٢ .
(٤) صبح الأعشى ١٢ : ٤٢٠ .
(٥) سورة الذاريات : ٢٤ .
(٦) سورة قريش : ١-٢ .
(٧) صبح الأعشى ١٢ : ٦٢ ، وانظر أمثلة أخرى ٨ : ٣٣٥ ، ٩ : ١٠٨ ، ١١٢ - ١١٣ ، ٣٣٩ ، ١٢ : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ١٤ : ٣٣٣ ، ٣٤١ .
(٨) سورة لقمان : ١٧ .
(٩) سورة الرحمن : ٩ .

الميل)(١) ، و: (يريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً)(٢) ، و: (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله)(٣) ، وقوله :(وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)(٤) ، وقوله :(وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين)(٥) . والايات كلها مما يتوافق مع وظيفة المحتسب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمحافظة على صحة التعامل في السلع ، ومراقبة الصناع والتجار وأرباب الحرف.

وقد يعكس المنشئ ترتيب ألفاظ الاية الكريمة عندما يحلها ، ومنه قول الشهاب محمود ، في شفاعة لمسجون ، يمدح سلطانه بأن الأمة "تيقنت إحسانه ومروءته ، وأنه لايمسك إلا بالإحسان ولايسرح إلا بالمعروف"(٦) وقد أخذه من قوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)(٧) .

- اثر الحديث الشريف

واثر الحديث الشريف في الرسائل لايختلف كثيراً عن اثر القرآن ، وإن كان القرآن أوسع أثراً وأوضح . وقد راى أكثر النقاد في حل الأحاديث أن لاتغير ألفاظها ، فابن الأثير الحلبي يوصي بأن لايؤخذ المعنى مجرداً عن اللفظ(٨) ، وقال الشهاب الحلبي :"وإذا كانت القاعدة عند أهل هذه الصناعة أن الأمثال لاتغير ألفاظها لاشتهارها بذلك اللفظ ،...، فالحديث أحق وأولى"(٩) . وذهب ابن الأثير إلى أن الأحاديث قد يؤخذ لفظها أو بعضه ، أو يؤخذ معناها و"يتصرف فيه بوجوه التصرفات"(١٠) .

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر الأحاديث دوراناً في استعمال الكتّاب في

---

(١) سوة النساء : ١٢٩ .
(٢) نفسها : ٢٧ .
(٣) سورة البقرة : ١٤٠ .
(٤) سورة الأنبياء : ٤٧ .
(٥) سورة الانفطار : ١٠ .
(٦) صبح الأعشى ٩ : ١٣٩ .
(٧) سورة البقرة : ٢٢٩ .
(٨) جوهر الكنز : ٦٠٩ .
(٩) حسن التوسل : ٨٠ ، ٣٢٥ .
(١٠) الوشي المرقوم : ١٩٦ ، المثل السائر ١ : ١٢٧ .

رسائلهم كانت مما يتصل بالجهاد وفضائل الصحابة ، وعلة ذلك واضحة فيما يتعلق بأحاديث الجهاد ؛ إذ كان العصر عصر جهاد ، أما أحاديث فضائل الصحابة ؛ فيعود أكثرها إلى أن الكتّاب كانوا يذكرون أربعة الخلفاء بعد الصلاة على الرسول الكريم في افتتاحات أكثر الرسائل الديوانية .

ويمكن القول بأن الرسائل الديوانية كانت أكثر حظاً من غيرها من الرسائل في اقتباس الأحاديث وحلها ، كما أن حل الأحاديث أكثر شيوعاً في رسائلهم من اقتباسها أو الاستشهاد بها .

قال الشهاب الحلبي من رسالة يصف المجاهدين :"وعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يزحزحهم عن ظلّها الركونُ إلى الدنيا الساخرة"(١) . وهو ينظر إلى قوله عليه السلام :"واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"(٢) .

ومنه قوله في تقليد يمدح المقلّد ، ويذكر أنه وُلّي لما فيه "من شجاعة تبيت منها أعداء الدين على وجل ، ومهابة تسري إلى قلوب من بَعُد من أهل الكفر سُرى ما قرب من الأجل"(٣) ، وهذا مستمد من الحديث الشريف :"نُصرت بالرعب"(٤) .

وفي رسالة لابن نباتة صحبة هدية سلطانية من الخيل ، وصفها بأن ما منها إلا "من عُقد بناصيته كل الخير ، وعقد له لواء الفخار على كل الخيل"(٥) ، وهو حل لقوله عليه السلام :"الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة"(٦) .

ومما جاء في فضائل الصحابة في تقليد بعودة شهاب الدين بن فضل الله إلى كتابة السر بمصر . قال منشئه بعد حمد الله والشهادة بوحدانيته والصلاة على

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ١٢٢ ، وانظر ٨ : ٣٦٩ ، ١٢ : ١١ ، ١٧ ، ١٨ .
(٢) صحيح البخاري بشرح الكرماني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨١م ، ١٢ : ١١٨ .
(٣) صبح الأعشى ١٢ : ١٢٠ ، وانظر ١٢ : ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٢٣ .
(٤) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (ب.ت) ٦ : ٣ ، ٤ .
(٥) صبح الأعشى ٩ : ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وانظر ١١ : ١٣٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ١٢: ٤١٢ ، ١٣ : ١٥ ، ٣٨٠ .
(٦) الموطّأ ، مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ٢ : ٤٦٧ .

رسوله :"صلى الله عليه وعلى آله أغصان الشجرة الزهراء التي هي بضعة منه ، ونبعة من أصله ، ورضي الله عن أصحابه الذين أجلهم من أجله ، خصوصا من بادر إلى الإيمان فخص من السبق بخصله ، ومن أيد به الدين وفر الشيطان من ظله ، ومن جهز جيش العسرة حتى غزا العدا بخيله ورجله ، ومن كان باب مدينة العلم ومانح جزله وفاتح قفله"(١) . وفي هذا النص عدة أحاديث شريفة وأخبار هي :

- قوله عليه السلام :"إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها"(٢).
- قوله :"اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين"(٣) وقوله لعمر :"ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا ، إلا سلك فجا غير فجك"(٤) .
- قوله في علي :"أنا مدينة العلم وعلي بابها"(٥) .
- الخبر بأن أبا بكر كان أول من أسلم من الرجال .
- خبر تجهيز عثمان جيش العسرة .

ومن حل الأحاديث قول الشهاب الحلبي في شفاعة لرجل بولاية بيت لحم : "ومولانا أولى من رحم منه ضعفا ،... وكف يد التعرض إليه في أيام عدله ، فإنها أيام لاضرر فيها ولاضرار"(٦) ، وقد نقل الحديث الشريف :"لاضرر ولاضرار"(٧) ، من سياقه إلى سياق آخر لموافقة نص الرسالة ومعناها .

ومن المواطن التي نقلت فيها الأحاديث بالحل من سياقها إلى سياق آخر، ما جاء في مرسوم عن السلطان لأمير قال كاتبه :"وما كنا لنسمح ببعده عن أبوابنا الشريفة ، ولانجيبه لمفارقة ما بيده من وظيفة ، لأنه ما يدرك أحد من أبناء عصره مده ولانصيفه"(٨) . وهو مأخوذ من قوله عليه السلام يذكر فضل الصحابة :

---

(١) صبح الأعشى ٩ : ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وانظر ١١ : ١٣٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ١٢ : ٤١٢ ، ١٣ : ١٥ ، ٣٨٠ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٢٩م ، ١٦ : ٢ - ٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٢ : ٩٥ .
(٤) صحيح مسلم ١٥ : ١٦٥ .
(٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ ، ٦ : ٢٠٤ .
(٦) صبح الأعشى ٩ : ١٤١ .
(٧) سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة العلمية ، بيروت (ب-ت) ، ٢ : ٧٨٤ .
(٨) صبح الأعشى ١٣ : ٥٧ .

"لو أنّ أَحدَكمِ أنفق مثل أُحُد ذهباً ما أدرك مُدّ أحدِهم و لانصيفه"(١) .

وفي تقليد بإمرة مكة أنشأه ابن البارنباري ، قال في حقها :"وحرمها الله فلا يُنفّر صيدها ، ولايُعتضّد شجرها ، ولاتحل لُقطتها إلا لمنشد"(٢) . وهو مأخوذ من قوله عليه السلام :"إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو محرّم بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنّه لم يَحلّ فيه القتال لأحد قبلي ، ولم يحِلّ لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرْمة الله إلى يوم القيامة ، لايُعضّد شوكه ، و لايُنَفّر صيده" ، وفي رواية أخرى :"ولاتحِلّ ساقِطتُها إلا لمُنْشِد"(٣) .

- أثر الشعر

عد النقاد التضمين إجادة من الكاتب لصنعته . قال الكلاعي :"كان المجيد كثيراً ما يضمن رسائله أشعاره وأشعار غيره"(٤) ، وذهب ابن شيث إلى مثل ذلك ، مبيناً أنه لابد للكاتب المجيد من النظر في أشعار المتقدمين لأنها استغرقت المعاني(٥) .

وأكثر ما تبرز ظاهرة التضمين في الرسائل الإخوانية(٦) والأدبية(٧) ، أما الرسائل الديوانية ، فكان التضمين فيها نادرا ، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك بقوله :"أما مكاتبات الملوك الآن فقلّ أن تستعمل فيها الأشعار ، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور"(٨) .

وأشار القلقشندي إلى أن الرسائل قد تكون كلها ، أو جُلّها شعراً ، "وقد

---

(١) صحيح مسلم ١٦ : ٩٢ - ٩٣ .
(٢) صبح الأعشى ١٢ : ٢٢٩ ، وانظر في أحاديث أخرى ١١ : ٢٧٤ ، ٣٢١ ، ١٢ : ٢٤٢ ، ٣٦٤ ، ديوان ابن الوردي : ١٥٤ .
(٣) صحيح مسلم ٩ : ١٢٣ - ١٢٩ .
(٤) إحكام صنعة الكلام : ٧١ .
(٥) معالم الكتابة : ٩٦ وانظر الصناعتين : ١٩٦ - ١٩٧ ، الوشي المرقوم : ١٥٢ ، المثل السائر ١ : ١٣٧ ، ٤ : ٧ ، ٩ .
(٦) انظر صبح الأعشى ٩ : ٤٦ - ٤٨ ، ٦٨ - ٦٩ ، ٨٥ - ٨٦ ، ١٤٩ - ١٥٢ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ .
(٧) انظر نفسه ١٤ : ١٥٧ - ١٨٨ ، ٣٢٦ - ٣٢٧ ، ٣٢٨ - ٣٤٠ .
(٨) نفسه ١ : ٣٢٣ .

يكون صدر المكاتبة شعراً وذيلها نثراً ، وبالعكس ، وقد يكون طرفاها نثراً وأوسطها شعراً ، وعكس ذلك بحسب ما يقتضيه الترتيب"(١) . وتنم بعض الرسائل عن تكلّف شديد ، حيث يمزج الكاتب أحياناً الشعر بالنثر ، ويمهّد لأعجاز أبيات من الشعر بكلام منثور ، من ذلك ما كتب به الشيخ ضياء الدين القرطبي(٢) للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد جواباً عن رسالة منه ، قال فيه (٣) :

"وينهي ورود عذرائه التي ... لها الشمس خِدْن والنجوم ولائد

وحسنائه التي ... لها الدر لفظ والدراري قلائد

ومشرفته التي ... لها من براهين البيان شواهد

وكريمته التي ... لها الفضل ورد والمعاني موارد

وآيتها الكبرى التي دل فضلها ... على أن من لم يشهد الفضل جاحد

وأنك سيف سلّه الله للهدى ... وليس لسيفٍ سلّه الله غامد"

أما حل المنظوم ، فقد ازداد الاهتمام به تدريجيا ، وقد عده ابن الصيرفي من أعلى رتب البلاغة (٤) ، وقال ابن شيث :"قال الحذاق من أهل هذه الصناعة : إن الكتابة هي حل المنظوم من الشعر"(٥) ، وقسمه ابن الأثير أقساماً ثلاثة ، جعل أعلاها رتبة أخذ المعنى من البيت وصوغه بألفاظ غير ألفاظه (٦) ، واشترط الشهاب الحلبي في الحل أن يكون الكاتب واسع الحيلة ، فيزيد على البيت المحلول نوعاً من البديع ، وأن لايظهر فيه تكلّف ، ولايفسد المعنى أو يحط رتبته ، وأن تكون الألفاظ الجديدة مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها ، وإلا عُدّ الحل عيباً ، ونبّه إلى أن الكاتب لاينبغي له أن يعتمد على الحل دائماً ؛ لأن ذلك مما يذهب برونق الطبع والانسجام(٧) .

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٣٢٣ .

(٢) أحمد بن عمر بن يوسف القرطبي ، كاتب مترسل ، أورد النويري نماذج من رسائله في خمسين صفحة (نهاية الأرب ٨ : ٥١ - ١٠١) ، توفي عام ٦٧٢ هـ (الطالع السعيد : ٥٤) .

(٣) نهاية الأرب ٨ : ٥٢ ، صبح الأعشى ١ : ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٤) الأفضليات ، تحقيق د. وليد قصاب و د. عبدالعزيز المانع ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢م : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٥) معالم الكتابة : ٩٦ ، وانظر الصناعتين : ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٦) الوشي المرقوم : ٥٨ ، ١٠٢ ، ١٥٢ ، المثل السائر ١ : ٧٨ (والآخران حلّه بلفظه أو ببعض لفظه) .

(٧) حسن التوسل : ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، وانظر تحرير التحبير : ٤٣٩ - ٤٤٢ ، جوهر الكنز : ١٩٥ ، ٦٠٧ - ٦٠٨ .

وقد أشار ابن الأثير إلى نوع من الحل سمّاه : توليد المعاني ، وهو الذي "يبدل صور الأعيان ، ويبرزها في عدة من الألوان... ، وهذا هو أشرف الدرجات في حل المنظوم ، ولايكاد يُتفطّن لمكان الأخذ منه"(١) .

ومن هذا القبيل أن الشهاب محموداً حل بيتاً لابن الرومي ،ووظّفه في وصف السيوف والبلاغة والكتابة والرمّاح، بحيث لايُتفطن لموضع تأثره به ، وبيت ابن الرومي هو(٢) : (الكامل)

وحديثها السحر الحلال لوَ انّه   لم يجْنِ قتل المسلم المتحرّز

فقال يصف السيوف :"وكفى السيوف فخراً أنها للجنّة ظلال ، وإلى النصر مآل ، وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان حديثها عمّن كلمته هو السحر الحلال" .

وقال يصف البلاغة :"البلاغة تسحر الألباب حتى تحيل العرَض جوهراً ، وتحيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته في الذوق نهرا ، لكنه سحرٌ لم يجن قتل المسلم المتحرز فيُتأول في حِلّه" .

وقال في وصف الكتابة :"خطّه شرك العقول ، وفتنةٌ تشغل المطمئن بملاحة المرئي المكتوب عن فصاحة المسموع المقول ، ولو لم يكن البيان سحراً لما تجسّدت منه في طِرسه هذه الدرر ، ولو لم يكن بعض السحر حلالاً ، لما انجلى ظلام النفس عما يُهتدى به من هذه الأوضاع الغرر" .

وقال في الرماح :"حسب ألسنة الأسنّة شرفاً أن كشف خبايا القلوب يُذمّ إلا منها ، وأن بث أسرار الضمائر تُكره روايته إلا عنها ، فمكرر حديثها في ذلك لايُفضي إلى ملال ، وإذا لم يكن حُسن حديثها الذي يَسحر الألباب مما يَحِلّ ، فليس في الحديث سحرٌ حلال"(٣) .

والملاحظ في النماذج الأربعة التي حل فيها الشهاب بيت ابن الرومي ، أن

---

(١) الوشي المرقوم : ١٦٦ .
(٢) ديوانه ، تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ١٩٧٤م : ٤٠٩ .
(٣) حسن التوسل : ٣٢٨ ، صبح الأعشى ١ : ٣٣٦ .

معنى البيت انسجم إلى حدّ كبير مع المعنى الذي قصد إليه الشهاب ، وقد أضاف إليه في وصف السيوف حديثاً شريفاً ، ومال بالمعنى في وصف البلاغة نحو الفقه ، وفي وصف الكتابة ضم إليه ما أثر عن الرسول الكريم من قوله :"إن من البيان لسحرا" .

ويتضح من خلال اقتباسهم لأشعار المتقدمين وحلها ، أنهم تأثروا بمشاهير الشعراء العرب ، أو بقصائد مشهورات بأعيانها ، كما يلاحظ تأثرهم ببعض الشعراء في أغراض اشتهروا بها ، فقد تأثروا بامرىء القيس في وصف الخيل ، وبأبي تمام والمتنبي في وصف الحروب والفتوح .

وإن دراسة تأثرهم ، فيما وصل إلينا من رسائلهم ، يكشف عن موقف لهؤلاء الكتّاب من الشعراء المتقدمين وشعرهم ، وهو موقف نقدي أحسّوا فيه بتفوق هؤلاء وجودة أشعارهم في موضوعات محددةٍ ، لكنهم لم يكونوا بدعةً في ذلك ، فقد ظهر التأثر بالشعر في الرسائل قبل العصر المملوكي .

ويبدو أثر الشعراء الجاهليين في رسائل هذا العصر جلياً ، وتجدر الإشارة إلى أن ما وقفت عليه من تأثر بالشعر الجاهلي في كتاباتهم يدل على إعجابهم بهذا الشعر ، وتقديرهم له ، وقد تنوع الشعراء الذين تأثروا بهم ، وتعددت الموضوعات التي تأثروا بها ، غير أن أوضح أثر للشعر الجاهلي كان لأبيات امرئ القيس في معلّقته ، وبخاصة في وصف الخيل ، وأبياته في وصف الوحوش كذلك ، ووصفه ووصف النابغة لليل .

قال الشهاب الحلبي يصف حصاناً :"يُقبل كالليل ، ويمر كجلمود صخر حطّه السيل "(١) ، وقال ابن البارنباري في وصف الخيل :"ومن أدهم مدرك كالليل ، منصبٍ كالسيل"(٢) ، وهما في ذلك متأثران بقول النابغة (٣) : (الطويل)

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خِلت أن المنتأى عنك واسعُ

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٨٨ ، وانظر : ٣٨٩ ، ٩ : ١١٨ ، ١٤ : ١٩٢ .
(٢) نفسه ١٤ : ١٩٣ ، وانظر : ١٩٤ .
(٣) ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٢ : ٣٨ .

وقول امرئ القيس(١) : (الطويل)

مكر مفر مقبل مدبر معاً   كجلمود صخر حطّه السيل من علِ

كما تأثروا بامرىء القيس في وصف الليل . قال الشهاب الحلبي :"كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطا مسك وصندل ، وكأن ثريّاه لامتداده معلّقة بأمراس الكتّان إلى صمّ جندل"(٢) ، وهو من قوله(٣) : (الطويل)

كأن الثريا علّقت في مَصامِها   بأمراس كتّان إلى صم جندلِ

وقد ظهر في هذه الرسائل تأثر واضح ببعض القصائد والأبيات المشهورة في العصر الجاهلي ، أبدع قائلوها فيها حتى أصبحت ذائعةً كالأمثال ، ومن ذلك تأثرهم بقوم مُهلهِل(٤) : (البسيط)

يُبكى علينا ولانبكي على أحدٍ   لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

فأخذه محيي الدين بن عبدالظاهر في التعبير عن الصبر على المصيبة . قال في جواب قلاوون إلى ملك اليمن الذي عزاه بابنه الصالح :"وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لايُبالي بالصدمات كثرت أو قلت"(٥) .

ونثر ابن نباتة قول دريد بن الصمّة في قومه(٦) : (الطويل)

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغدِ

وضمّنه رسالة له في وصف النيل قال فيها :"حدث عن البحر ولاحرج ، وانعرج على البقاع يلوي معصمه ، فللّه ذلك التّلوى والمنعرج"(٧) .

ويُلاحظ التوافق بين الأبيات المنثورة وبين بعض متعلّقات الرسالة التي تحل

---

(١) ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٤ : ١٩ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٤ ، وانظر في التأثر به ١٤ : ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
(٣) ديوانه : ١٩ .
(٤) المهلهل بن ربيعة : حياته وشعره ، رسال جامعية مخطوطة بالجامعة الأردنية ، أعدها نافع بن منجل بن شاهين الراجحي بكلية الآداب بالجامعة المستنصرية ١٩٨٦م : ٣٠٠ .
(٥) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٣ .
(٦) الأصمعيات ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، بيروت ، لبنان ط ٥ : ١٠٧ .
(٧) صبح الأعشى ٨ : ٣٦٨ ، وانظر ١٢ : ٢٠٧ .

فيها . جاء في تقليد بإمرة عرب زبيد بالشام :"وزبيد من أفخرها قبيلة ، وأكثرها فوارس ، فأما أحسابها فكريمة ، وأما وجوهها فجميلة،... كم فيهم بمواقع الطعان فطن ذو كتيّس ،...،منهم صاحب الصمصامة بقي مثل السيف فرداً ، وكم قُتل من أقرانه الشجعان من أخ صالح وبوّأه في العجاج بيديه لحداً"(١) ، وكاتب التقليد ينظر في ذلك إلى قول حسان يمدح الغساسنة(٢) : (الكامل)

بيض الوجوه كريمة أحسابهم　　　شمّ الأنوف من الطراز الأول

والأبيات الشهيرة لعمرو بن معديكرب الزبيدي(٣) : (مجزوء الكامل)

كم من أخٍ لي صالحٍ　　　بوّأته بيَدَيّ لحدا

ذهب الذين أحبهم　　　وبقيت مثل السيف فردا

وظهرت أبيات الخنساء في تعداد مناقب صخر ، وبخاصة بيتها المشهور(٤) : (البسيط)

وإن صخراً لتأتم الهداة به　　　كأنه علم في رأسه نارُ

حيث استخدمه الكتّاب في رفع شأن الموظفين ، وإبراز قدراتهم ، ومنه قول شهاب الدين بن فضل الله العمري في توقيع :"فليباشر هذه الوظيفة... مشبهاً أباه في عدله ،...، وتوقد رأيه لدى طود حلم وعلم ، فيا لك من نارٍ على علم"(٥) .

ويبدو أن شهرة "بانت سعاد" دفعت بعض الكتّاب إلى التأثر بما قاله كعب فيها . قال ابن نباتة من توقيع بنظر حسبة بعلبك يوصي المحتسب بمباشرة وظيفته : "حاملاً على الحال المستقيم كل حي لديه ، وكل من هو على آله حدباء محمول"(٦) ، وهو من قول كعب(٧) : (البسيط)

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته　　　يوماً على آلةٍ حدباء محمول

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ٨٣ ، وانظر ١١ : ١٦١ .
(٢) ديوانه ، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٧٨م :٣٦٦ .
(٣) ديوانه ، تحقيق هاشم الطعان ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد (ب - ت) : ٦٩ .
(٤) ديوانها ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م : ٤٩ .
(٥) صبح الأعشى ١٢ : ٣٩١ ، وانظر ١٢ : ٢٧١ .
(٦) نفسه ١٢ : ٣٩٧ ، وانظر ٨ : ٣١٦ ، ٩ : ١٢١ .
(٧) ديوانه بشرح السكري ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ١٩٦٥م: ١٩ .

أما فيما يتصل بتأثرهم بشعراء العصر الإسلامي ، فلم أقف على أي أثر لشعر صدر الإسلام في الرسائل ، إلا إذا اعتبرنا "بانت سعاد" أثراً شعرياً من هذا العصر ، وأميل إلى عدها أثراً يقع في دائرة الشعر الجاهلي(١) . وأما الشعر الأموي فله حضورٌ طفيف في هذه الرسائل ، وبخاصة شعر المديح ، وأعتقد أن لما ساد من ضعف الشعر في صدر الإسلام أثراً في ضعف تأثرهم به ، ويبدو أن غلبة شعر المديح على شعر العصر الأموي كان من الأسباب التي دفعت كتّاب عصر المماليك إلى التأثر به .

وقد شاعت الأبيات الشهيرة في مدح عرابة بن أوس الحارثي في الرسائل في العصر المملوكي ، وبخاصة في مدح أرباب الوظائف من خلال رسائل التولية والتعيين. قال الشهاب الحلبي يمدح موظفاً في توقيع له على لسان السلطان :"... وأنه ما رفعت بين أيدينا راية جهادٍ إلا تلقاها عرابة عزمه بيمينه(٢) وهو حل البيت(٣) : (الوافر)

إذا ما راية رُفعت لمجدٍ تلقّاها عَرابة باليمين

واستخدم الشهاب الحلبي بيت الفرزدق(٤) : (الطويل)

ورثتم قناة المُلك لاعن كلالة عن ابني مناف : عبدشمس وهاشم

فنثر البيت وضمّنه فقرة عبر فيها عن رأي المماليك في الحكم ، وهو يتوافق في ذلك مع تعبير الفرزدق عن رأي الأمويين في الحكم . قال في تقليد بنيابة السلطنة على لسان الناصر محمد بن قلاوون :"من حين أورثنا الله مُلك الإسلام لا عن كلالة "(٥) .

ونثر ابن عبد الظاهر قول نُصيب يمدح عبد الملك(٦) : (الطويل)

---

(١) انظر : معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة ، د. هاشم ياغي ، الفجر للطباعة والنشر ، ١٩٩٠م : ٢٣ ، ٢٦ .
(٢) صبح الأعشى ١٢ : ١٢٢ ، وانظر ٩ : ١٣٩ ، ١١ : ١٣٤ ، ١٢ : ٨٧ ، ٩٣ ، ٣٩٣ ، ١٣ : ٤٧ .
(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الألوسي ، القاهرة ١٩٢٤م ، ٢ : ٨٨ .
(٤) ديوانه ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م ، ٢ : ٣٠٩ .
(٥) صبح الأعشى ١١ : ١٣٤ .
(٦) قطوف الأغاني ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت (ب-ت): ٣١ .

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وجعله في مضمار وصفه لأحد انتصارات قلاوون في رسالة بشرى إلى ملك اليمن . قال فيها :"وكتابنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هنّئ بهذا الفتح الذي تثني على كتاب بشائره الحقائب"(١) .

وكان لأبيات كثيّر عزة المعروفة في وصف الانشاء من منئ بروز ، وبخاصة في الرسائل التي ذكرت فيها مكة ، ففي تقليد بإمرة مكة قال ابن البارنباري : "وإليها أعنقت الركاب ففي كل أبطح للمطي مسير ومسيل"(٢) ، وهو حل لقول كثيّر(٣) : (الطويل)

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطحُ

وقد حظي شعراء العصر العباسي باهتمام وافر من كتّاب عصر المماليك ، فبرز أثر شعرهم في الرسائل بجلاء ، ويبدو أن لشيوع ظاهرة البديع في الشعر العباسي أثراً في إعجابهم به ، على أن ذلك الأثر كان ظاهراً في الرسائل قبل عصر المماليك(٤) ، ويمكن القول بأن أكثر شعراء العصر العباسي تأثيراً في رسائل عصر المماليك المتنبي وأبوتمام ، ومرد ذلك إلى إبداع هذين الشاعرين في التعبير عن الصراع مع الروم أولاً ، إلى جانب كونهما من كبار شعراء العرب ثانياً ؛ ولذلك اكبّ الأدباء في عصر الحروب الصليبية على ديوانيهما ، وأوصى النقاد بضرورة إقبال من يترشّح للكتابة على أشعارهما ليمتلك الملكة ، وتحمل عنده المقدرة(٥) .

قال علاء الدين بن عبد الظاهر يصف ثبات الناصر في مرج الصفّر عام ٧٠٢ هـ : "ورأى الأبطال من أوليائه جرحى في سبيل الله ، والأعداء مهزومة ، والوجه منه وضّاح والثغر باسم"(٦)، وهو ينظر في ذلك إلى قول المتنبي يمدح سيف الدولة ،

---

(١) صبح الأعشى ١٧ : ٣٨٢ ، وانظر ١٣ : ١٧٣ .
(٢) نفسه ١٢ : ٢٣٠ ، وانظر : ٢٢٦ .
(٣) ديوانه ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١م : ٥٢٥ .
(٤) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٧٢ - ٣٧٨ .
(٥) انظر الوشي المرقوم : ٥٦، ٥٧ . نصرة الثائر على المثل السائر: ٦٤ ، ٦٥ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٧٣ .
(٦) السلوك ١ : ١٠٣١ .

ويصف ثباته في معركة الحدث(١) : (الطويل)

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمُ

وجمع الشهاب الحلبي في وصف ثبات من هُزم هو وجيشه أمام أعدائه بين أبيات لأبي تمام وأخرى للمتنبي . قال الشهاب يصفه بأنه "أثبت في مستنقع الموت رجله ، ووقف وما في الموت شكٌ لواقف يحمي خيله ورَجله ، وهذا هو الموقف الذي قام له مقام النصر إذ فاته النصراء وفاته النصر"(٢) ، وهو مأخوذ من قول أبي تمام يرثي محمداً بن حُميد(٣) : (الطويل)

فتىً مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فأثبت في مستنقع الموت رجْلَه وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

وقول المتنبي من قصيدته المتقدمة الذكر(٤) : (الطويل)

وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

كما أفاد الشهاب من وصف أبي تمام فتح عمورية ، رافعاً من شأن المعتصم فاتحها . قال في البشارة بفتح المرقب :"وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن هذا الحصن طالما شحت الأحلام أن تخيّل فتحه لمن سلف من الأنام ، فما حدّثت الملوك انفسها بقصده إلا وثناها الخجل"(٥)، وكأنّه ينظر في ذلك إلى قول أبي تمام في عمورية(٦) : (البسيط)

بكرٌ فما افترعتها كف حادثةٍ ولا ترقّت إليها همة النّوبِ

كما تأثروا بأشعارهما في رسائلهم الوصفية ، ومن ذلك قول ابن نباتة في رسالة شكر عن هدية من لحم غزال :" لازالت تقتنص المحامد بعطاياه المكررة ،...، ولابرحت نفحات مكارمه تشهد أن المسك بعض دم الغزال"(٧) ، وهو ينظر إلى قول أبي الطيب(٨) : (الوافر)

---

(١) ديوانه : ٣٨٧ .
(٢) صبح الأعشى ٨ : ٣٠١ .
(٣) ديوانه ٤ : ٨٠ ، ٨٤ .
(٤) ديوانه ٣ : ٣٨٦ .
(٥) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ ، وانظر : ٣٠١ ، السلوك ١ : ١٠٣٢ .
(٦) ديوانه ١ : ٤٨ .
(٧) صبح الأعشى ٩ : ١١٨ .
(٨) ديوانه ٣ : ٢٠ ، وانظر في التأثر به ٨ : ٣٠١ ، ١١ : ٢٣٠ .

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

وقال الشهاب الحلبي يصف نسراً :"قد شابت نواصي الليل وهو لم يشب ، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب"(١) ، وهو منقول من وصف أبي تمام لمنعة عمورية إذ يقول (٢) : (البسيط)

من عهد اسكندرٍ أو قبل ذلك قد   شابت نواصي الليالي وهي لم تشبِ

من بعد ما أشبّوها واثقين بها   والله مفتاح باب المعقل الأشبِ

وتأثروا بأبي نواس في شعره الماجن ، ومن ذلك قول بدرالدين بن الصاحب يصف الخمرة : "طعم الحياة في ريقها ، وضيق الموت في مُباينتها وتطليقها ، لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولايعرف التعب من مصافح راحتها"(٣) ، وفيه حلٌ لقول أبي نواس(٤) : (البسيط)

صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها   لو مسّها حجر مسّته سراءُ

وكان لشعر بشار حضور طفيف في رسائلهم ، ومن ذلك قول ابن نباتة في مدح موظف اسمه عمر في توقيع له :"كم صدق برق بديهته الأفكار حين شامت ، وكم نبّهت عند ليالي المشكلات عمر ثم نامت"(٥) ، وهو ينظر إلى قول بشار يمدح عمر بن العلاء(٦) : (المتقارب)

إذا أيقظتك حروب العدا   فنبّه لها عمراً ثم نمْ

فتى لاينام على ثاره   ولايشرب الماء إلا بدمْ

وتجدر الإشارة إلى أن أثر الشعر العربي الأندلسي نادرٌ جداً في رسائلهم في حدود ما وقفت عليه منها ، وفي حدود تنبهي لموطن التأثر به ، ولست أملك تعليلاً لذلك سوى أن المشارقة رأوا في أدب المغاربة ونقدهم سعياً لتقليدهم(٧) ، وهو

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٧ .
(٢) ديوانه ١ : ٤٨ ، ٦٠ .
(٣) مطالع البدور ١ : ١٥٣ .
(٤) ديوانه ، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٢م : ٦ .
(٥) صبح الأعشى ١٢ : ٣٧٦ .
(٦) ديوانه ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية ، والشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ١٩٧٦م ٤ : ١٨٢ .
(٧) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٤٧٠ - ٤٧١ ، ٤٧٣ - ٤٧٥ .

لاشك مؤثر" في تقويمهم لذلك الأدب . ومما وقفت عليه من ذلك قول ابن فضل الله العمري من نسخة إطلاق للعمرين يعطى بموجبه المقيمون منهم بالحرمين الشريفين مالاً ، إذ أضاف قائلا :"ومن خاف على نفسه في المقام فيهما ممن كان في أحدهما ثم فارقه على عزم العود إلى مكانه ، وأقام وله حنين إلى أوطانه ، ولم يلهه استبدال أرض بأرض ، وجيران بجيران ، عن أرضه وجيرانه"(١) ، وكأني به وقف على أبيات ابن حمديس الصقلي يخاطب قومه(٢) : (الطويل)

فإن بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارها والخلم كالجار والخلم

أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم وكم خالةٍ جداء لم تغن عن أم"

ويتضح مما تقدم أن كتّاب عصر المماليك تأثروا تأثراً واضحاً بالشعر العربي في عصوره بدرجات متفاوتة ، بقدر ما أسعفت الذاكرة على التنبه لمواطن الأخذ ، فبينما كاد يختفي التأثر بالشعر الأندلسي" ، وانعدم فيما يتصل بشعر صدر الإسلام ، رأيناه يبلغ درجة عالية من التأثر بشعر العصر العباسي، يليه الجاهلي ثم الأموي . كما ظهر تركيزهم واهتمامهم بشعراء معينين : كالمتنبي وأبي تمام وامرئ القيس ، وبرز التأثر بالشعراء في موضوعات اشتهروا بها ، الأمر الذي يحقق ما تقدم في الحديث عن ثقافة هؤلاء الكتّاب .

- أثر الأمثال

وكانت الأمثال في عداد ما اهتم به الكتّاب في رسائلهم : تضميناً وحلاً ، وقد برزت هذه الظاهرة عند ابن شيث الذي قال : "والتمثل بالمثل السائر في موضعه من أحسن أنواع الكتابة وأعظم فنونها" ، وأورد مجموعة من الأمثال التي يحتاج إليها الكاتب فيما ينشئه(٣) .

وتحدث ابن الأثير عن كيفية حلها ، قال :"اعلم أن أمثال العرب لاتغير ألفاظها" ، وأجاز في حلها تقديم بعض الألفاظ أو تأخيرها ، وحذف بعضها على

---

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٤٥ .
(٢) ديوانه ، تصحيح وتقديم د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (ب-ت) : ٤١٧ .
(٣) معالم الكتابة : ١٣٨ - ١٧٣ .

شريطة ألا يذهب من معنى المثل شيء ، واشترط في حل الأمثال الشعرية الانسجام بين ألفاظها وبين ما يضم إليها من ألفاظ(١) . وإلى مثل ذلك ذهب الشهاب محمود(٢) . بينما لم يجز القدماء التلاعب بألفاظ الأمثال بالتغيير أو الحذف . قال الرازي : "الأمثال كلها حكايات لاتغيّر"(٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن ما وقفت عليه من استعمالاتهم للأمثال يشير إلى اهتمامهم بالنثرية منها أكثر من الأمثال الشعرية ، فإذا ما ضمن الكاتب المثل بنصه ، فإنه ينقله إلى سياق جديد أو يضيف إليه صنفاً من البديع .

وممن حل الأمثال الشعرية ابن فضل الله العمري . قال في وصية لمحتسب : "وثم من لايستقيم حتى يؤدب ، ومن لايلم على شعثٍ وأي الرجال المهذب"(٤) ، وهو مأخوذ من قول النابغة(٥) : (الطويل)

ولست بمستبقٍ أخاً لاتلمّه على شعثٍ ،أي الرجال المهذبُ ؟

ومن قبيل نقل المثل إلى سياق جديد ، قول ابن الوردي في مفاخرته بين السيف والقلم على لسان السيف ، بعد أن أذعن القلم خوفاً من التهديد :"أمكراً ودعوى عفّة ، لأمرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه"(٦) .

ومن المواطن التي استخدم فيها المثل بنصه مع إضافة فن آخر إليه ، قول ابن نباتة في توقيع لمن اسمه شهاب الدين أحمد ، إنه ولّي لكفاءته "التي قضت لاسمه بالعوْد ، فإن العود أحمد"(٧) إذ أضاف إلى قولهم :"إن العود أحمد"(٨) ،التورية عن اسم المولّى .

---

(١) الوشي المرقوم : ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ .
(٢) انظر حسن التوسل : ٨٠ ، ٣٢٥ .
(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٨١ .
(٤) صبح الأعشى ١٢ : ٦٣ ، وانظر : ٣٧٦ .
(٥) ديوانه : ٧٤، وانظر مجمع الأمثال، الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار القلم ، بيروت (ب-ت) ١ : ٢٣ .
(٦) ديوانه : ١٨٤ ، والمثل في أمثال العرب ، المفضل الضبي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ : ١٤٦ .
(٧) صبح الأعشى ١٢ : ٣٣٢ ، وانظر : ٣٤٩ .
(٨) مجمع الأمثال ٢ : ٣٨ .

والغالب في استخدام الأمثال حلّها بإضافات يقتضيها السياق الذي يدخلها الكاتب فيه ، ومن ذلك قول ابن عبد الظاهر في توقيع بالتدريس في الجامع الأموي: "الحمد لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها"(١) ، وهو مأخوذ من قولهم :"أعط القوس باريها"(٢) .

ومنه قول ابنه فتح الدين من أمان للتجار يصف مصر :"إذ أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العذل"(٣) ، وهو من قول العرب : "سبق السيف العذل"(٤) .

ومن شفاعة أنشأها الشهاب محمود قال يمدح السلطان :"ودرات مكارمه عن الأولياء نوب الزمان ، وعلا على حاتم فلو تشبه بكرمه قلنا : مرعى ولا كالسعدان"(٥) .

وقال في توقيع لطبيب في قصر السلطان بأنه " هو الذي بلغ من العلم غاية مراده ...، قد حلب هذا العلم أشطره"(٦) ، وهو تصرّف حسن في قولهم : "حلبَ الدهرَ أشطرَه"(٧) .

ويبدو أن ابن نباتة كان أكثر الكتّاب ولعاً بالأمثال وحلها . قال في توقيع بالإفتاء في الجامع الأموي يدعو للمولى :"نفع الله ببقائه ، ورفع عيون الأنجم لدرجات ارتقائه ، لفوائده التي شملت الورى ، وعلت الذرا ، وحمدت الأفهام عند صباحها السرى"(٨) ، وقد تصرف بالحذف والتقديم والتأخير في قولهم : "عند الصباح يحمد القوم السُرى"(٩) .

---

(١) صبح الأعشى ١١ : ٢٣٠ .
(٢) جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري ، تحقيق أحمد عبدالسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨م ، ١ : ٦٦ .
(٣) صبح الأعشى ١٣ : ٣٣٩ ، وانظر ٨ : ٣٩٨ ، ١٢ : ٩ .
(٤) المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢ :١١٥ ، وانظر مجمع الأمثال ١ : ٣٢٨ ، جمهرة الأمثال ١ : ٣٧٧ .
(٥) صبح الأعشى ٩ : ١٣٩ ، والمثل في مجمع الأمثال ٢ : ٢٧٥ ، جمهرة الأمثال ٢ : ٢٤١ ، أمثال العرب ٧٣ ، المستقصى ٢ : ٣٤٤ .
(٦) صبح الأعشى ١١ : ٣٧٣ ، وانظر ٧ : ٣٧٣ .
(٧) مجمع الأمثال ١ : ١٩٥ ، جمهرة الأمثال ١ : ٢٨٠ .
(٨) صبح الأعشى ١٢ : ٣٧١ ، وانظر ٩ : ١١ ، ١٢ .
(٩) مجمع الأمثال ٢ : ٣ ،جمهرة الأمثال ٢ : ٤٢ ،المستقصى ٢ :١٦٨ .

وقال موصياً المحتسب ببعلبك :"ومن حكم في صناعة الطب بما لم يسغ في المسائل فليصرفه منها بخفّي حنين"(١) ، وقد ضمّن المثل "عاد بخفّي حنين"(٢) حاذفاً بعض لفظه .

وأكثر الأمثال المأخوذة من الشعر أو النثر تكراراً في رسائلهم ، كان شطر بيت سُحيم بن وثيل الرياحي (-٦٠هـ) : (الوافر)
"أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا"(٣) . ومن ذلك قول ابن نباتة من بشارة بجلوس الملك الصالح إسماعيل عام ٧٤٣ هـ :"وينهي أن خير البشائر ما خص أولياء الدولة الشريفة وعمّ الرعايا ، وسما إلى ثغور الإسلام خبره الجلي ، فقال : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا"(٤).

- أثر الرسائل والخطب

أعجب كتّاب عصر المماليك بالقاضي الفاضل ، وبلغ من إعجابهم به أن ابن عبدالظاهر اختار مجموعاً من رسائله سمّاه "الدرّ النظيم من ترسّل عبدالرحيم" ، واختار له ابن نباتة مجموعة من النصوص في كتابه "مطلع الفوائد"(٥) ، وجعل من عهده مقياساً أدبياً لمن تقدم عنه ومن تأخر(٦) . وقال ابن مكانس في رسالته التي وصف فيها فيضان النيل :"فمن ذلك ما ذكره مولانا القاضي الفاضل ، وما هو ، رحمه الله ، إلا بحرٌ طفح دره"(٧) ، وأشاد ابن حجّة بما اخترعه الفاضل من المعاني(٨) ، وبأسلوبه(٩) .

ويظهر أثره في رسائلهم واضحاً من خلال معارضاتهم لما كتب ، يذكر محمود رزق سليم أن محيي الدين بن عبدالظاهر عارض رسالة للفاضل كتب بها إلى ديوان الخلافة

---

(١) صبح الأعشى ١٢ : ٢٧٩ ، وانظر النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٦ .
(٢) مجمع الأمثال١ : ٢٥٦ ، جمهرة الأمثال ١: ٤٣٣ ، المستقصى ١٠٥:١ .
(٣) مجمع الأمثال ١ : ٣١ .
(٤) صبح الأعشى ٨ : ٣٦٤ ، وانظر ٧ : ٤٢٠ ، ١٢ : ١٣٥ ، ٢٤١ ، ٣٧٣ .
(٥) مطلع الفوائد : ٤١٤ - ٤٥٠ .
(٦) نفسه : ٨ ، ٣٨٥ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٧٠ .
(٧) انظر صبح الأعشى ١٤ : ٣٠٩ .
(٨) انظر ثمرات الأوراق : ٢٢٣ - ٢٢٥ .
(٩) خزانة الأدب ٢ : ٤٣ .

ببغداد(١) ، وكان مما عارضه به رسالة" في وصف حمام الرسائل ، قال محيي الدين في مطلعها: "أردت أن أجرب الخاطر ، فأنشأت وأنا غير مخاطب أحداً بل مخاطر ، وأين الثرى من الثريا ،...، وما كل والد يدرك شأن الوليد ، ولا كل كاتب عبد الرحيم ولا عبد الحميد"(٢) .

ويبدو أنهم تأثروا بما أنشأه الفاضل في وصف النيل ، ويدل على ذلك قول ابن مكانس المتقدم آنفاً . كما يتضح أثره فيما كتبه كتّاب عصر المماليك في وصف القلاع والحصون ، وما من شكٍ في أنهم وقفوا على ماكتبه الفاضل في وصف قلعة نجم(٣) ، وقد تقدم بعض ما كتبوه في وصف القلاع في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

كما يبدو تأثرهم برسالة القاضي الفاضل إلى ديوان الخلافة في بغداد بعد فتح بيت المقدس واضحاً . قال ابن عبد الظاهر في وصف حصن: "واكتنفه من جهة الغرب نهر آخر استدار عليه كالسور وانعطف كالسوار ، وحوله من الأودية خنادق لايعرف فيها الهلال إلا بوصفه ، ولا الشهر إلا بنصفه"(٤) ، وهو ينظر في ذلك إلى قول الفاضل يصف بيت المقدس وسورها :"فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار"(٥) .

وقال محيي الدين يصف المنجنيقات وفعلها في الأسوار :"وتقدم إليها المنجنيق فكأن بين ثنايا الشرفات سواكها ، وامتدت حباله فكأنه لصيد القلاع أشراكها:(٦). وهو مأخوذ من قول الفاضل في رسالته المتقدمة :"وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عِصيّها وحبالها ، وأوتر لهم قسيّها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولايفارق سهامها نِصالها ، فصافحت السور بأكنافه ، فإذا سهمها في

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٦١ .
(٢) حسن المحاضرة ٢ : ١٨٩ .
(٣) قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل ، وعندها جسر يُعبر عليه (معجم البلدان ٤ : ٣٩١) ، وتقع الآن في شمالي سوريا على الشاطئ الغربي للفرات ، قريبة من مَنْبج ، وبعض آثارها موجودة .
(٤) مطلع الفوائد : ٤٧٣ .
(٥) صبح الأعشى ٨ : ٢٨٦ .
(٦) مطلع الفوائد : ٤٧٧ .

ثنايا شرفاتها سواك"(١) .

وقد تأثر ابن نباتة بالقول المتقدم للفاضل فقال في وصف أثر المنجنيقات في حصن :"فنصبنا عليها كل طويلة طائلة ،...، مزيلة بنكرها الجبال ، ساحرة - مع أنها من المؤمنين - حصون الكفر بالعصي والحبال"(٢) .

وتجدر الإشارة إلى اهتمامهم برسالتي ابن زيدون : الجديّة ، والهزلية ، فقد كتب شافع بن علي رسالة يناظره فيهما(٣) ، وعارضه محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته الهزلية(٤) ، وشرحهما ابن نباتة في كتابه "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" ، وتابعه في ذلك الصفدي في شرحه المسمّى "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" ، وكتب الأديب الشاعر الحسن بن علي بن أحمد رسالة سمّاها "قريض القرين"، عارض فيها رسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي ، وهي تشتمل مثلها على نظم ونثر(٥) .

كما تأثر الكتّاب بما كتبه أمثالهم من أدباء عصر المماليك ، ومن ذلك أن الصفدي أنشأ مقامة سمّاها "رشف الرحيق في وصف الحريق"، عارض بها مقامة ابن الوردي "صفو الرحيق في وصف الحريق" الذي وقع في دمشق عام ٧٤٠ هـ(٦) .

وقد تأثر الصفدي بما قاله محيي الدين بن عبدالظاهر في فيضان النيل . قال : "والمرجو من الله أن يزيل أذاه ، ويعيد علينا منه ما عهدناه ، فإن له الآيات الكبَر ، وفيه العجائب والعبر ، منها وجود الوفاء ، عند عدم الصفاء ، وبلوغ الهرم ، إذا احتد واضطرم ، وأمّن كل فريق ، إذا قطع الطريق ، وفسح قطّان الأوطان ، إذا كسر وهو كما يقال : سلطان"(٧) ، إذ أخذه الصفدي فقال من بشارة

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٢٨٧ .
(٢) مطلع الفوائد : ٤٩١ .
(٣) سبط محيي الدين بن عبدالظاهر ، وُلد سنة ٦٤٩ هـ ، وعمل في ديوان الإنشاء ، بمصر حتى كف بصره ، وكانت وفاته عام ٧٣٠ هـ (نكت الهميان في نكت العميان ، صلاح الدين الصفدي ، وقف على طبعه الأستاذ أحمد زكي ، المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ : ١٦٣ - ١٦٥) .
(٤) انظر تمام المتون : ٤٠٤ .
(٥) انظر الدرر الكامنة ٢ : ٢٢ .
(٦) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ٣٧٩ ، ٤٠٧ .
(٧) صبح الأعشى ١٤ : ٣١١ .

بوفائه: "والنيل له الآيات الكبر ، وفيه العجائب والعبر ، منها وجود الوفا ، عند عدم الصفا ، وبلوغ الهرم ، إذا احتد واضطرم ، وأمّن كل فريق ، إذا قطع الطريق ، وفرح قطّان الأوطان ، إذا كسر وهو كما يقال : سلطان ، وهو أكرم وأعذب مجتنى ، وأعظم مُجتدى"(١) .

ويقف المطالع لرسائلهم على شيء من التأثر برسائل قديمة ، ومن ذلك في رسالة الناصر بن قلاوون إلى غازان بعد هزيمة المماليك عام ٦٩٩ هـ . قال مخاطباً غازان: "... بل يسأل كبراء دولته ، أمراء عساكره عن وقائع جيوشنا ، ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده ، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم"(٢) ، والكاتب ينظر في ذلك إلى قول علي - عليه السلام - في رسالة إلى معاوية :"وأنا مُرقلٌ نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم.. ، قد صحبتهم ذريّة بدريّة ، وسيوف هاشميّة ، قد علمت مواقع نصالها في أخيك وخالك ، وجدك وأهلك"(٣) .

ومن تأثرهم بأقوال الإمام علي - عليه السلام - ما جاء في رسالة للشهاب الحلبي في معرض حديثه عن الصحابة بعد الصلاة على الرسول الكريم . قال: "ومنهم من طلع لامع نور الإيمان من أفقه...، وطلّق الدنيا تورعاً عنها"(٤) ، وهو من قول الإمام :"هيهات ! غري غيري ، لاحاجة لي فيك ، قد طلقتك ثلاثاً لارجعة فيها"(٥) .

ومن تقليد بكفالة السلطنة بالشام قال الشهاب محمود يصف المقلّد :"وعجمْنا عوده فكان ليّناً على الأولياء ، فظاً على الأعداء"(٦) ، وقال الصفدي في توقيع في حق المولّى :"فما أردناك إلا لأنك سهمٌ خرج من كنانة"(٧) ، وهما ينظران في ذلك إلى قول الحجّاج في خطبته المشهورة :"إن أمير المؤمنين عبد الملك نثر

---

(١) حسن المحاضرة ٢ : ٢١٧ - ٢١٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٤ .
(٣) صبح الأعشى ١ : ٢٧٧ .
(٤) صبح الأعشى ١١ : ٢٧٤ ، وانظر ١٣ : ٣٨٠ .
(٥) نهج البلاغة بشرح محمد عبده ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣م ، ٤ :٥٧٧ .
(٦) صبح الأعشى ١٢ : ٩ ، وانظر : ١٦ .
(٧) نفسه ١٢ : ٨٨ .

كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها عوداً عوداً ، فوجدني أمرّها عوداً ، وأشدها مكسراً "(١) .

ويدل تأثرهم بهؤلاء الكتّاب والخطباء على إعجابهم بهم ، وببلاغتهم فيما كتبوه أو قالوه ، وهو ينسجم مع مانعرفه عن انتشار الطريقة الفاضليّة في الكتابة ، وينسق مع ماقيل في بلاغة الإمام عليه السلام ، وروعة خطبة الحجاج .

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

الصورة الفنية في الرسالة

يعد التخييل من أبرز الوسائل التي يلجأ إليها الأدباء لتكوين صور فنية معبّرة(١) ، وهو " من أهم الفنون البلاغية ؛ لأنه يتصل بالإبداع والخلق الفني"(٢) كما رأى الدكتور أحمد مطلوب ، وقد تكون الصورة الكلامية الفنية أجمل من تلك التي تبدعها ريشة المصوّر ؛ إذ إن لم مكوناتها ، وتمثيلها أمام عين البصيرة ماثلة بأشكالها وألوانها ، وحركة عناصرها ، وعبقها ، وظلالها تضفي عليها طابعاً مميزاً ، يحتاج ذوقاً رفيعاً ، وقدرة على الربط بين المتفرقات ، وإعمالاً للفكر لطيفاً للتوصل إلى جماليّتها .

وتجدر الإشارة إلى أن العناية في الرسائل بالتصوير والتخييل تقربها من القصائد الشعرية ؛ إذ تتقارب الأساليب في القصيدة والرسالة بسبب انحراف اللغة في كليهما عن أداء وظيفة الإدراك والمعرفة ، وهي وظيفة عادية ، إلى وظيفة التأثر والتأثير الانفعالية(٣) ، كما يرى الدكتور صبحي البستاني ؛ إذ يخرج تركيب الصورة عن المنطق اللغوي المعجميّ ، أو لنقل : إن لها منطقها اللغوي الخاص .

وقد ورد مصطلح الصورة عند البلاغيين العرب ، مما يدل على أصالة هذا الفن في الادب العربي ، فهي عند قدامة الشكل المحسوس الذي يلجأ إليه الأديب لتجسيد الأفكار المجردة الحاصلة في الذهن(٤) ، وأكد أبوهلال العسكري دورها في تجميل المعنى أو تهجينه بغض النظر عن قيمته ، ولتوضيح دورها في الكتابة الأدبية الجميلة ، طلب من الكاتب إذا ما ابتكر معنى أن " لايتّكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه ، ولايغره ابتداعه له ، فيساهل نفسه في تهجين صورته ، فيذهبَ حسنَه ، ويطمسَ نورَه "(٥) .

---

(١) الأسلوب ، د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م : ١٩٥-١٩٧ .
(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحد مطلوب ، منشورات المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦م ، ٢ : ١١٧ .
(٣) الصورة الشعرية في الكتابة الفنية ، د. صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ١٩٨٦م : ٣٢ .
(٤) نقد الشعر : ١٤ .
(٥) الصناعتين : ٧٥ ، وانظر : ٦٣ ، ١٤٤ ، ٢٤٦ .

وقد أولى عبدالقاهر الجرجاني هذا الفن عناية كبيرة ، واستعمل مصطلح الصورة للدلالة على ما قاله قدامة ، ودل على أن العرب استخدمته في كلامها ، قال : "لسنا أول من اخترع وبدأ باستعمال لفظة صورة ، فقد كانت معروفة في كلام العلماء"(١) ، وهو يشير إلى رأي الجاحظ بأن الشعر صياغة ، وضرب من التصوير(٢).

كما تحدث عبدالقاهر عن أثر التمثيل في الكتابة الأدبية ، ويقترن التمثيل في ذهنه بالتعبير بالصورة ، فيقر بدوره "السحري في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب" ، ولعل تلك القدرة السحرية ناتجة عن كونه "يريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين"(٣) .

وقد عد عبدالقاهر "الصورة الأدبية أساساً للحسن ، وهي التي يتوافر فيها حسن النظم" ، وجعلها مقياساً لجودة العمل الأدبي ، إذ إن حسنها يدل على استكمال نظم الألفاظ في موقعها(٤) ، وقد ربط بينها وبين فنون البيان العربي ، فذهب إلى أن التشبيه والتمثيل والاستعارة "أصول كثيرة كان جل محاسن الكلام ، وإن لم نقل كلها ، متفرعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في تصرفاتها"(٥) .

ويبدو أن النقاد بعد عبدالقاهر درجوا على هذا الربط ، لكن الاهتمام بالصورة أخذ في التنامي حتى أصبح التصوير هدفاً من أهداف الأدباء(٦) ، ويمكن القول بأن النقاد بدأوا يميلون إلى الصور الغريبة ، ولا أعتقد أن الغرابة التي رغبوا فيها سوى الجدة والاختراع ، والزيادة على صور القدماء . ترى ذلك في

---

(١) دلائل الإعجاز : ٣٣٠ .
(٢) (كتاب) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٤م ، ٣ : ١٣٢ ، وانظر دلائل الإعجاز : ٣٣٠ .
(٣) أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٨م، ٨٣ - ٨٤ .
(٤) دلائل الإعجاز : ١٦٧ - ١٦٩ ، انظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣م، ٢٨٢ ؛ بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١١ .
(٥) أسرار البلاغة : ٣٣ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٢ .
(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

"غرائب التشبيهات" لابن ظافر الأزدي (-٦١٣ هـ) ، ولعل قصدهم إلى غرائب الصور يشير إلى ذوق عصرهم(١) ، ويكشف عن تنافس الأدباء في اختراع الصور الغريبة ، ولعل ذلك يفسر ناحية من نواحي ميلهم إلى تقليد بعضهم في الصور .

وذهب ابن الأثير إلى أن علم البيان بفنونه المتمثلة في التشبيه والتمثيل والاستعارة يهدف إلى "إثبات الغرض(٢) المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد يُنظر عياناً"(٣) ، وهو يتابع في ذلك عبد القاهر الذي ركز على دورها في التوضيح ، إذ "ترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفيّة بادية جليّة" ، وعلى ذلك فهي تقتضي تكثيف العبارة ووجازتها ، غير أن أهم خصائصها هو التجسيم الذي ترى به المعاني الذهنية جسوماً ماثلة للعيون(٤) .

ورأى ابن حجّة أن المراد من التشبيه غرابة أسلوبه ، وسلامة اختراعه ، وعد تشبيهات القدماء "مع عقادة التركيب ، لم تسفر عن بديع معنى إلا ما قل وندر"(٥) ، الأمر الذي يشير إلى "تغير في الذوق وهو تغيّر انعكس أثره في الأدب"(٦) ، في عصر المماليك .

ولم يكن التصوير مقتصراً على بعض موضوعات الرسائل دون بعضها الآخر ، أو على نمط دون نمط ، بل كانت العناية به جليّة في الرسائل بدرجات متفاوتة ، فكان من أبرز الخصائص الفنية للرسائل الجهادية التي صورت المعارك بين المماليك وأعدائهم ، وقد تقدم في الفصل الثاني من هذه الدراسة أن الكتاب اهتموا بتصوير

---

(١) انظر غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، ود. مصطفى الجاويني ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ : ٢٣ - ٢٤م ، ١ ، تاريخ النقد الأدبي : ٥٩٠ .
(٢) الغرض هو الهدف من صياغة الكلام ، وهو المعنى الثاني ، أما المعنى الأول فهو مدلول التركيب ، وقد أطلق عبد القاهر على الغرض : معنى المعنى ، وجعل مداره على الكناية والاستعارة والتمثيل (انظر : دلائل الإعجاز : ٢٠٢-٢٠٣، نهاية الإيجاز: ٢٨ ، منهاج البلغاء : ١٤ ، ٢٣ ، ٢٠٦) .
(٣) المثل السائر ١ : ١١١ ، ٢ : ١٢٣-١٢٤ ، العمدة ١ : ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٢ .
(٤) أسرار البلاغة : ٥٠ ، ٥١ ، وانظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٧٥ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٢ .
(٥) خزانة الأدب ١ : ٣٨٥ ، ٣٨٧ .
(٦) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٣ .

المجاهدين ، والأعداء وحصونهم قبل الفتح وبعده ، وعنوا بتصوير أحداث المعارك وما انجلت عنه من قتل وأسر في صفوف أعدائهم ، وصوروا الأسلحة والأساليب القتالية من حصار وزحف ، وهي صور شارك في رسم ملامحها الفنون البيانية كالتشبيه والاستعارة ، والبديعية كالطباق والمقابلة .

يصور الشهاب محمود غيرة المسلمين على الدين ، وحميّتهم له ، وهجرهم الملاذّ وإعراضهم عن أعراض الدنيا بقوله :"والنفوس قد أضرمت الحميّة للدين نار غضبها ، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنبها"(١) .

وترى براعتهم في تصوير منعة الحصون وعلوها الشاهق ، وقد استعملوا لذلك صوراً متراكمة كلها يدل على الارتفاع ، كما في تصوير الشهاب محمود لحصن المرقب . قال :"قد تقرّط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم . تخال الشمسَ إذا علت أنها تتنقل في أبراجه ، ويظن من سها إلى السها أنه ذبالة في سراجه"(٢) .

وقد أبدع محيي الدين بن عبدالظاهر في تصوير منعة طرابلس على الفتح ، فهي غادة حسناء تعرف حسنها فتدل على الملوك ، وتتمنّع وتأبى ، وسيّدة كثيرة الخدم ، وجلبابها البحر وخمارها السحاب . قال : "كلما مرّت شمخت بأنفها ، وتأنّقت في تحسين منارة منازهها ، وتزيين ريحانها وعصفها ، ومرت وهي لا تغازل ملكاً بطرفها ، وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج ، والأمواجُ من بين يديها ومن خلفها ، إذ البحر لها جلباب ، والسحاب لها خمار"(٣) .

ومن صورهم الجميلة تلك التي تبرز الأضرار التي تلحقها الحصون التي احتلها الصليبيون بما يحيط بها من بلاد المسلمين ، وابتهال المسلمين وشكواهم إلى الله لرفع ذلك الأذى عنهم ، وغرضهم في ذلك الإعلاء من شأن الفتح والفاتح . صور محيي الدين أذى حصن الأكراد بقوله :"كم شكت منه حماةُ تثني بنكثرها قلة الإنصاف ،

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ .
(٢) نفسه ٨ : ٣٩٦ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٤ .

وكم خافته معرة، وما من معرة خاف ، وما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه ، تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصي ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره ، مع عصيانها ، وناهيك بمدمع العاصي"(١) .

كما اهتموا بتصوير أثر المجانيق في الأسوار والحصون . قال محيي الدين مهددا بيمند بعد فتح أنطاكية :"فتعترف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب"(٢) .

وترى في تصويرهم الأسلحة صوراً بديعة قوامها التشخيص والإحياء ، وقد استخدموا تلك الصور في التهديد أحياناً ، فالسيوف جوعى وعطشى إلى أجساد الأعداء ودمائهم ، وهي ضيفة لافكاك منه ، ولاسبيل إلى قضاء حاجته من الطعام والشراب . قال محيي الدين مهدداً بيمند بعد فتح عكّار وأنطاكية :"وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول : إنّها عن الضيافة لاتغيب ، لأن أهل عكّارَ ما سدّوا لها جوعاً ، ولاقضت من ريّها بدمائهم الوطرَ"(٣) .

ومن ذلك تصوير الشهاب محمود لها في رسالة التهديد إلى مَلك سيس الأرمني بعد انتصار المماليك على المغول عام ٧٠٢هـ ، وقد جاءت صورتها في رسالته رهيبة . قال يهدده بعد أن طلب منه الإقلاع عن مساعدة المغول والدخول في طاعة الناصر : "والسيوف الآن مصغية إلى جوابه ، لتكفّ إن أبصر سبيل الرشاد ، أو تتعوّض برؤوس حماته وكماته عن الأغماد إن أصر على العناد"(٤) .

ويسقط ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف على الأسلحة أفعال الجيش المسلم من مخادعة ، وتغيّظ وقلة صبر على الانتظار لخوض المعركة ، فتراها تتحيّن الفرصة ، وتجثم بلاحراك خداعاً للأعداء لأخذهم على حين غرة ، لكن لهفتها وشوقها لخوض المعركة يثيران فيها الحمية فترى كلا منها يتميز غيظاً ، وهو يريد بذلك الجيش المسلم ، ويهدف إلى تحسين صورته ، وتصوير شوقه إلى الجهاد . قال :

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٠ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٤٦ ، وانظر٢ : ٣٤١ .
(٣) نفسه ٢ : ٤٤٦ .
(٤) صبح الأعشى ٨ : ٢٦٢ .

"وأقامت السمهريّة ترمقهم بزُرْق عيونها ، والمشرفية تتناعس لاستنامتهم بتغميض جفونها ، وبقيت ألسنة السناجق في أفواه غُلُفها صامتة ، لسماع الزحافات مصغية ، وكواسر الاساد في آجامها من السمهريّة مُقعية ، وصارت السهام في كنائنها تقلق ، وأخشاب المجانيق لتفرّق أجزائها تتفرّق"(١) .

ويصور محيي الدين خوف المغول في فتح قيسارية الروم تصويراً جميلاً ، فقال بأنهم بعد أن رأوا الجيش المسلم :"رجعوا إلى ماكانوا عقدوا من العزائم فحلوا ، وسُقط في ايديهم ورأوا أنهم قد ضلوا"(٢) ، كما صور خوف بيمند ملك طرابلس بعد إغارة الظاهر بيبرس عليها بقوله :"هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً : علي هذا الصوت"(٣) . وقد استمد ذلك من التصوير القرآني ، وغير خاف ما في كلا الصورتين من سخرية وتهكم من العدو .

وبرعوا في تصوير الأسرى والقتلى من الأعداء بعد المعارك ، ومن ذلك تصوير الشهاب محمود لقتلى المغول في رسالة الناصر إلى غازان بعد عام ٧٠٢ هـ وقد انتصر عليه . قال :"فلو رأيت أيها الملك عساكرك : إما ذليلاً أسيراً ، أو جريحاً عفيراً ، (وكان يوماً على الكافرين عسيراً)(٤) ، يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذئاب والنسور ، وعاد أصحابك طعاماً للذئاب..." ، وصور الأسرى وهم يقادون وقد ضُربت عليهم الذّلة والمسكنة بقوله :"أما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال ، فعادت مُغلك كالكلاب في أيدي أسود الغاب"(٥) ، وإذا كانت السخرية غرضاً من تصوير الأعداء بعد المعركة ، فقد جمع إليها الشهاب الحلبي غرض المديح لجيش المسلمين في صورته الأخيرة .

وترى في رسائلهم المبشرة بالفتوح صوراً جميلة لأثر الفتوح في النفوس ، إذ بها تتهلل الوجوه ، ويزول عنها ما ران عليها من كمدٍ وحسرة وألم ، فتعم البشائر ، ويبسم الدهر بعد طول إدبار . قال ابن العطار في فتح المرقب :"وأذهب

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ .
(٣) نفسه ٨ : ٣٠٥ .
(٤) سورة الفرقان : ٢٦ .
(٥) كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، ١٢٢ ، وانظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٥ .

طهر الإيمان منها رِجسَ النَّجَس . وافترّت عن فتحها ثغور الأيام"(١) . وصوره الشهاب محمود مقابلاً بين حال الإسلام وحال الكفر بقوله :"قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، والتأييد وقد طار به مُحلّق التباشير فخفق في الخافقين جناحه ، والإسلام وقد وطئ هامة الكفر بمقدمه ،...، فأنف أن يكون الشرك من خَدَمه"(٢) .

ويزداد الاهتمام بالصورة الفنية في الرسائل الأدبية ، وبخاصة وصف الطبيعة ، والطرديات ، والشتويات ، فقد أضفوا على مظاهر الطبيعة من خيالهم ما يجسمها ويشخصها ، فبثوا فيها الحياة والحركة ، وخلعوا عليها المشاعر الإنسانية ، فترى الغصون ترقص ، والأوراق تتناجى ، والورود تتهامس خجلى ، وإذا بالنيل ملك جبار متسلط يغزو بجيش مائه البر فيدمر الثمار ، ويجوس خلال الديار ، وإذا بالوباء زائر يُمَلّ منه الثَّواء ، فيهرع الجميع هاربين إذا حلّ ، وتطمئن نفوسهم إذا رحل .

ومن الصور الفنية الجميلة للطبيعة تلك التي رسمها الشهاب الحلبي لوقت الغروب ، مستوحياً العلاقات الاجتماعية بين الناس ، مسقطاً على الشمس والورود مشاعر البشر ، فجعل الشمس كمن يقضي أنفاسه الأخيرة ، وعناصر الطبيعة تبكيها وتأسى لفراقها . قال يصف شمس الأصيل من طرديّة له :" فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها ، وتسير من الأفق الغربي إلى موضع رمْسِها ، وتغازل عيون النَّوْر بمقلة أرمد ، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد ، فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق ، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدة الرمق ، وقد اخضلت عيون النور لوداعها ، وهمّ الروض بخلع حلته المموهة بذهب شعاعها"(٣) .

وترى في وصف النيل صورتين مختلفتين كل الاختلاف ، وهما صورتاه في حالتي وفائه وفيضانه ، والنيل مصدر نعمة وخير وعطاء ، به تتعلق الأماني ، وبوفائه تتحقق الآمال ، لكنه يصبح نقمة عندما يزيد عن حده ، ولذلك أوحى لهم بصور تمثل

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٦ .
(٢) نفسه ٢ : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وانظر ٤ : ٢٤٥ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ .
(٣) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٩ ، وانظر : ٣٣٠ .

خوفهم ورجاءهم ، وفرحهم وشقاءهم . صوّره أحد الكتّاب بجيش الخير الآتي لدفع عدو الجدب ، وهي صورة بديعة تعبر عن عمق الإحساس بالحاجة إلى مائه ، وبرابط نفسي متأصل في النفوس ، فقال :"نشر على الخافقين لواء خصبه ، وأتى بعسكر ريه لقتل المحل وجدبه ، وبينما هو في القاع إذ بلغ بإذن ربه ، فجعل من الذهب لباسه ، وعطر بالشذا أنفاسه ، ولم يترك خلال قطر إلا جاءه فجاسه ،...، وغازلته الشمس فكسته حمرة أصيلها لما غدت بمشاهدتها له ماسة "(١) ، والكاتب هنا لايصور حال النيل المرئية وحسب ، بل يمتد بخياله ليرسم ما ستصبح عليه حال الأرض من حوله بفعل ريّه ، حيث تتفتح الأزهار ، ويعبق عبيرها ، ويصور ماءه وقد انعكست عليه أشعة الشمس بكساءٍ من ذهب ، ويجعله معشوقاً تغازله العاشقة فيتورد وجهه خجلاً ، وهي لاشك صورة جميلة شارك في رسم ملامحها فنون البيان وعناصر البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وفيها جانب ديني ، وقد أضفى جناس الحروف عيها صبغة جمالية أخرى، تلك هي الموسيقيّة الناتجة عن جرس حروف الصفير .

ويصوّره ابن نباتة بالضيف الذي يكثرِم على مضيفه فيحضر قراه معه ، وبالراعي الذي يتجافى جنباه عن المضاجع سهراً على راحة رعيّته وأمنهم ، ولاتفوته العناية بمن غاب منهم فيدخر له نصيباً . قال يصوره بالرسول الهادي : "كم ورد إلى البلاد ضيفاً ومعه القرى ، وكم أتى مُرسَلاً بمعجز آيات الخصب إلى أهل القُرى ، فهو جواد خلع الرسن ، ساهر في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن ، جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ، كم بات سبر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين"(٢) .

أما صورته حين يفيض ، فعكس ذلك ، فتراه أسداً هصوراً كاسراً ، أو ملكاً ظالماً مؤيداً بالنصر ، وقد أبدع فخر الدين بن مكانس حين صور فيضانه عام ٧٨٤ م وما أحدثه من دمار قائلا :"واحمرّت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر"(٣) ، وهي صورة مستمدة من البيئة الشعبية ،إذ يعبر الناس حتى الآن باحمرار العين عن الغضب والوقاحة .

---

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٣٤ .
(٢) نفسه ١٤ : ٢٦٧ .
(٣) نفسه ١٤ : ٣٠٤ ، وانظر : ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

وتفيض الشتويات بالصور الحركية ، غير أن الحركة فيها ناتجة عن تتابع الجمل الفعلية التي يتخللها شيء من الفنون البيانية . قال كاتب من عجلون يصف سيلاً بها عام ٧٢٨ هـ متأثراً بالتصوير القرآني: "أرسل الله تعالى ريحاً عاصفة ، فأثارت سحباً واكفة ، في خلالها بروق خاطفة ، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة ، فطبقت الوهاد وجللت الآكام ، وخيّمت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام ، ثم أرخت عزاليها كأفواه القرب ، حتى خيّل لمن رآها أنّ الوعد الحق قد اقترب"(١) .

ووصف ابن الوردي سقوط الثلج بدمشق عام ٧٤٥ هـ وصفا جميلا ، صوّر فيه الرعودَ موتورة ثارت لتثار ، واستلّت سيوفَ بروقها على الناس حتى سقط في أيديهم ، وأدار حواراً بين الأرض التي أظهرت الشكوى لبرد الثلج ، وبين الثلج الذي جعل نفسه قطنا . قال :"قلّ تجلّدُ الأرض على جليده ظهراً وبطنا ، فقال لها : اتبردين وقد طرح قوس السحاب على جبينك قطنا ،.... كم زمجرت الرعود على الناس كأنها تطالبهم بثأر قتيل وما قتلوه ، وقعقعت عليهم لجم صواهلها حتى تلوا (أتى أمر الله فلاتستعجلوه)"(٢) .

بيْد أن الحركة في الطرديّات أوضح ؛ ذلك لأنها تصور مشاهدَ حركية ، من مطاردة ، إلى قنص ، إلى استباق ، إلى كمون ، إلى قفول من رحلة الصيد ، غير أن الميل إلى الإطناب في وصف الطيور والحيوانات كان يغلب على تلك الصور ، مما يفقد الرسالة شيئاً منقيمتها الفنية فيما يتصل بتصوير مناظر الصيد والطرد .

ومن ذلك وصف الشهاب الحلبي لسرب من الطيور في رحلة صيد . قال : "فسرت علينا من الطير عصابة ، أظلتنا من أجنحتها سحابة ، من كل طائر أقلع يرتاد مرتعاً ، فوجد ولكن مصرعا ، وأسفّ يبتغي ماءً جمّا فوجد ولكن السم منقعا ، وحلّق في الفضاء يبغي ملعبا ، فبات هو أشياعه سجّداً لمحاريب القسي ورُكّعا"(٣) .

---

(١) تذكرة النبيه ٢ : ١٨٩ .
(٢) ديوان ابن الوردي : ١٨٤ ، والآية من سورة النمل : ١ .
(٣) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٣ .

وتكاد صورهم في وصف الطيور تفوق صورهم في صيدها جمالاً ؛ ترى ذلك في تركيزهم على تصويرها مستعيرين ما تصل إليه أفكارهم ويعينهم عليه محفوظهم . قال الشهاب يصف أحد الطيور ويصور صيده :"وشلاه كُنيّ" نقي اللباس ، مشتعل شيب الرأس، كأنه في عرانين شيبه ، ولاوبله ، كبير أناس ، إن أسفّ في طيرانه فغمام، وإن خفق بجناحه فقلع له بيد النسيم زمام ، ذو عيبة كالجراب ، ومنقار كالحراب ، ولون يغر في الدجى كالنجم ويخدع في الضحى كالسراب ، ظاهر الهرم ، كأنما يخبر عن عاد ، ويحدث عن إرم ،...، فثنى الثاني عنان بندقه إليه ، وتوخاه فيما بين رأسه وعنقه ، فخر كمارد انقض عليه نجم" من أفقه ، فتلقاه الكبير بالتكبير ، واختطفه قبل مصافحة الماء من وجه الغدير"(١) .

ويسترعي النظر تلك الروح القصصية الماثلة في رسائل المفاخرات والمناظرات ، مثل اجتماع أربعة الفصول في مجلس ، وقيام كل منها خطيباً ، يبرز محاسنه ، ويتورع خجلاً أن يغمز في جانب خصومه كما في مفاخرة ابن حبيب بينها(٢) ، وترى السيف يثور غاضباً ، ويصيح مهدداً متوعداً ، ويقف معتدلاً يتلو آي القرآن ، وينشد الأشعار ، وينافح ويجادل ، وترى القلم يحتال ، ويروغ عندما يضيق عليه الخناق ، وترتعد فرائصه فيطلب النجاة برأسه فيتلطف في مقاله ويتعطف ، وما من شك في أن هذه الصور القائمة على التشخيص متأثرة بالحكايات والأساطير من حيث إدارة الحديث على لسان غير الإنسان .

ويغلب على صور رسائل المناظرات والمفاخرات قيامها على الطباق والمقابلة ، وليس ذلك مقتصراً عليها وحدها ، بل تشترك معها الرسائل الجهادية في ذلك ، وعلة ذلك هي أن موضوع الرسالة يفرض المطابقة والمقابلة في كلتا الحالين .

وقد يُجمع إلى الطباق والمقابلة الاستعارة ، فتكتسب الصورة جمالاً ودقة في ملامحها ، ومن ذلك قول ابن الوردي ، في مفاخرته بين السيف والقلم ، على لسان القلم مخاطباً السيف :"أنا آلة الحياة وأنت آلة الموت ، ما لنت إلا بعد

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٤ .
(٢) نسيم الصبا : ١٦ - ٢٠ .

دخول السعير ، وما حدث إلا عن ذنب كبير ، أنت تنفع في العمر ساعة ، وأنا أفني العمر في الطاعة . أنت للرهب وأنا للرغب" . فكان رد السيف على ذلك صوراً أخرى ، المقابلة فيها جليّة ، والتأثر بالقرآن الكريم فيها واضح ، وهي صور استعارية . قال السيف :"طالما جعلت بعض فراخي بصددك وهي السكين ، فأصبحت من النفّاثات في عُقدك يا مسكين ، فاخلت من الحشو جثمانك ، وشقّت أنفك وقطعت لسانك ، ويحك ! إن كنت للديوان فحاسبٌ مهموم ، أو للإنشاء فخادم لمخدوم ، أو للبليغ فساحر مذموم" (١) .

وترى في رسائل النقد والهجاء صوراً غاية في السخرية ، يجمع الكاتب فيها ما تسعفه به قريحته وثقافته من صور ينكل من خلالها بخصمه ، ويذيقه مرارة كلمه ، ومن ذلك هجاء محيي الدين بن عبدالظاهر لأحد حاسديه ، الطريف في صوره قيامها على التشبيه الضمني إشارةً ومقابلةً . قال : "وإن كان عرضه لايصلح للهجو ، ولايساوي ثوب ثلبه أجرة الرفو ، فقد يجرب السيف في خف البعير ، ويستحل نكاح المرأة البريئة بالعبد الصغير ، وتصفّى الفضة الخلاص بالرصاص ، وتُفصّل عقود الجوهر بالسحاب ، وتساغ اللقمة المحللة بمحرم الشراب ، ومن لم يجد ماءً طهوراً تيمماً" (٢) .

وقد تمزج صورة الذم بصورة الفخر ، إذ يلجأ الكاتب إلى بيان الحد الفاصل بينه وبين المهجو ، والمقابلة الناتجة عن اقتران فخره بنفسه بهجاء خصمه ، تزيد من قيمة الصورة فنياً ، كما تزيد درجة السخرية فيها من الخصم ، وقد أبدع محيي الدين في رسالته المتقدمة آنفاً حيث حشد في فخره وهجائه معرفته الدينية والأدبية ، إذ استعار كثيراً من الصور القرآنية والشعرية لذلك الغرض . قال : "فإن كان ما قلته حلماً ؛ فإن من الأحلام ما يروع ، أو وهماً ؛ فإن من الأوهام ما يخامر الضلوع ، أو جهلاً ؛ فإن المندل الرطب لايضره كونه حطباً في موطنه ، والتبر لايضيره كونه تراباً في معدنه ، ولايضر الزند الواري قدح القادح ، كما أنه لايضر النجم الساري نبح النابح ، ولاعليّ إذا قلت ملاماً ،

---

(١) ديوانه : ٨١ ، ٨٢ ، وانظر خزانة الأدب ١ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
(٢) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون : ٤٠٥ ، ٤١٢ .

أن أقول : سلاما ، والفخر في أن أحلم إذا قلت اهتضاما ...، وعندك أنك تأكل لحمي ميتاً ، وعندي أني لا أستحل أن آكل لك لقمةً ولا زيتا"(١) .

ويمكن القول بأن الصورة الفنية كانت مركزة في هذه الموضوعات أكثر من غيرها، وهي لاشك قائمة في الرسائل الإخوانية والديوانية غير ماذكرت ، وبخاصة ما اشتمل منها على الوصف مثل رسائل الهدايا ، والتشوق ، والتعازي ، وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة الموضوعات كان لها تحكم في درجة العناية بالصورة الفنية ، فالمهادنات والأيمان والمفاسخات يجب أن تخلو من التصوير والمحسنات كما قال ابن الصيرفي(٢) ، وطابع الجدل والإقناع في رسائل الأوامر والنواهي وإبطال المفاسد يكاد يطمس الصورة ، والأسلوب المباشر فيها وفي مراسيم تحديد أوضاع أهل الذمة يقتضي ندرة الخيال، والتصوير ، وترى الصورة في المبايعات والعهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع في ثنايا مدح المولى ، وهي صور متكررة في العادة ، جامدة لاتثير في النفس ما تثيره صورة المعارك والوصف والمناظرات .

وصور أولي الأمر والموظفين هي صور مثالية ، فنائب السلطنة هو من "عُقد به للرعايا لواء عدل يُجلي بإشراقه ليل الظُّلم الحالك ، وعول عليه من جميل السيرة فيما تعمر به البلاد ، وتأمن به الرعايا ، وتطمئن به المسالك ...، ويتوقع كل كميّ من عظماء الشرك أن رأسه سيكون غمده ، مع سياسة تشتمل على الرعايا ظلالها الممتدة ، وسيرة تضع الأشياء مواضعها"(٣) .

أما شيخ المتصوفة فهو الذي "ذكرت صفاته الجميلة فكانت للعين قرة ، ونبعت عناصر فضائله فكانت شراب الذين صفت قلوبهم من كدرها ، وأمطرت سحائب علومه الإلهية الدّارّة من سماء الحقيقة فسالت أودية بقدرها ، وظهرت لمعة أنوار شمس معارفه عند التجلي على المُريد"(٤) .

---

(١) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون : ٤٠٧ .
(٢) قانون ديوان الرسائل : ١٢٩ .
(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٢٠٣ ، وانظر ١١ : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٢ : ٨ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ .
(٤) نفسه ١٢ : ٤١٣ ، وانظر : ٤١٠ .

إن كثيراً من هذه الصور التي تفيض بها الرسائل الديوانية ، وبخاصة رسائل التولية والتعيين ، مبالغ فيها إلى حد كبير ، والغرض واضح من ورائها ، إذ هو التزيين والمدح لموظفي الدولة ؛ لأن تحسين صورهم من تحسين صورة السلطان ، والقدح فيهم قدح فيه .

وتتسم الصورة الفنية في الرسائل الإخوانية بالمبالغة والغرابة في كثير من الأحيان ، ويبدو أن السبب وراء ذلك هو سعي الكتّاب إلى نيل إعجاب مُكاتبيهم ، وكسب ودهم ، ومن ذلك تلك الصورة الجميلة التي رسمها ابن نباتة لفرحته بوصول رسالة من الصفدي إليه ، وقد استمد صورته من التعبير القرآني . قال :"وضع الطرس على وجه حظّه الأعمى فارتد بصيراً ، وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب ، وإنما جمع مسكيناً ويتيماً وأسيراً "(١) .

وأبدع الشهاب الحلبي في تصوير شوقه إلى صديق له ، وحُرقتِه عندما علم بأنه سيرحل مفارقاً ، والطريف فيها أنه استعار قصة هاجر وإسماعيل عليه السلام وضمّنها في وصف لوعته وفرقه . قال :"ما أم طفل قذفها الزمن العنيد ، في بعض البيد ، في أرض موحشة المسالك ، قليلة السالك ، قد لمع سرابها ، وتوقدت هضابها ، وصرخ بومها ، ونفر ظليمها ، وحضر سمومها ، وغاب نسيمها ، فلما خافت على ولدها من الظمأ الهلاك ، أجلسته إلى جنب الكثيب هناك ، ثم ذهبت في طلب الماء للغلام ، لئلا يقضي عليه الأوام ، فانتهى بها المسير ، إلى روضة وغدير ، وآثار مطيّ بوارك ، تدل على أن الطريق هنالك ، فعادت إلى ولدها مسرعة ، وكل أعضائها إليه عيون متطلعة ، فلما شارفت جنب الكثيب ، رأت ولدها في فم الذيب :

(الطويل)

بأكثر مني حسرة وتلهفاً وأعظم مني حُرقة وتوجّعاً "(٢) .

إن الصورة المتقدمة طريفة من حيث قيامها على تراكم صور جزئية ، بحيث تؤدي صورة كلية في نهاية المطاف ، وليس فيها من فنون البيان سوى اليسير .

---

(١) الوافي بالوفيات ١ : ٣٢٠ .
(٢) خزانة الأدب ٢ : ٣٨٦ .

وفي رسائل التعازي تقوم الصورة الفنية على قصد تخفيف المصيبة عن المعزى ، وتكريم المعزى فيه بتحسين صورته ، ويجعل الكاتب من المصيبة نازلة المسّت بكل شيء ، ومن ذلك تعزية ابن الوردي بالقاضي ابن البارزي ، حيث بث الحياة في العلوم وشخّصها ، فتراها تحزن وتتألم . وتبكي الفقيد ، والمحاسن تصبح أهلـه فتعزى فيه ، وتحل المأساة بالإحسان إذ فقد صاحبه ، وتعم الأقلام والمصنّفات ، فهذه تنكّس رؤوسها حزناً ، وتلك تلبس الحداد حسرةً عليه . قال: "فالعلوم تبكيه والمحاسن تُعـَزّى فيه ، والبِرّ ينعاه ، والحكم يتفداه ، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حِداد المِداد من بعده "(١) .

يتضح مما تقدم أن كتاب مصر والشام في عصر المماليك الأول سلكوا إلى التصوير كل سبيل ، فبنوا صورهم على المجاز والاستعارة ، والتشبيه والتمثيل ، والطباق والمقابلة ، ومراكمة الصور الجزئية لرسم صورة كلية ، وتتابع الجمل الفعلية لتعبر عن سياق حركي .

لكن المدقق يرى أن الصورة الحية الحركيّة غلبت على تصويرهم ، وهي قائمة على عنصري : التشخيص والإحياء العائدين إلى البناء المجازي ، وذلك بإلباس المعاني صوراً حية ، وخلع الصفات الإنسانية على المنعوتات ، وبث الحياة والحركة والمشاعر فيها .

وتجدر الإشارة إلى أن ما تثيره الصورة البيانية المجازية في النفس والعقل يتعدى أثر صورة التشبيه ، ويمكن القول بأن الصور المجازية أجمل من صورة التشبه ، وقد نلمح الفرق بينهما من خلال الموازنة بين قولين لابن الصائغ الحنفي في وصف قوس البندق . قال يشبّهها :"من كل قوس هي في العين كالحاجب ، أو النون التي أجادها الكاتب" ، وقال : "تدوّر الطائر عند الرمي وتذيبه ، وتئِنّ أنيناً أولى به من تصيبه "(٢) . وأوضح منه في وصف الشهاب الحلبي لها . قال :"قسي كالغصون في ترَفها وتلوينها" ، وقال يشخصها ، ويبدو أنه متأثر بالشنفرى في

---

(١) تتمة المختصر ٢ : ٣٢١ .
(٢) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٤ .

وصف القوس :"إن انتضيت لرمي أنّت أنيناً بدا لها أنه أحق به من تصيبه* ، ولعل ذاك الصوت زجر لبندقها أن يبطئ في سيره ، أو يتخطى الغرض إلى غيره ، أو وحشه لمفارقة أفلاذ كبدها ، أو أسف على خروج بنيها من يدها ، على أنّها طالما نبذَت بنيها بالعراء ، وشفعت لخصمها التحذير بالإغراء"(١) .

وقد تمزج الصورة البيانية بتوزيع لوني ، وما من شك في أن الألوان تضفي على الصورة مسحة من الجمال ، وشيئاً من تحديد الملامح ، وتوضيح المعالم . غير أن العناية بالألوان في رسائلهم ضئيلة فيما وقفت عليه ، على الرغم من اهتمامهم بالزخرفة اللفظية ، وانتشار الزخرفة الفنية في فنونهم المعمارية ، ونسج الملابس .

وتتركز العناية بالألوان في وصف الخيول والطيور ، وممن عني بذلك شهاب الدين الحلبي ؛ لإقباله على وصفها . قال يصف فرساً : "ومن أشقر وشّاه البرق بلهبه ، وغشّاه الأصيل بذهبه ، يتوجس ما لديه بدقيقتين ، وينفُض وفريته عن عقيقتين ، وينزل عذار لجامه من سالفتيه على شقيقتين ، له من الراح لونها ، ومن الرياح لينها ، إن جرى فبرق خفق ، وإن أسرع فهلال على شفق"(٢) .

وقال الشهاب يصف طائراً أبيض اللون :"كأنه برق كرع في غسق ، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق ، تحسبه في أسداف المنى غرة نجح ، وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح ، عليه من البياض حلة وقار ، وله كرة من عنبر فوق منقار من قار" ، وقال في آخر :" قد جمع صفرة البهار إلى حمرة الشقيق ، كأنما رقم فيه النهار بالليل ، أو نُقش فيه العاج بالأبنوس"(٣) .

واستخدم علاء الدين بن عبد الظاهر الألوان فيما أجراه على لسان السيف لتحسين صورته في فخره على الرمح . قال :"كم جاء النصر الأبيض لما أسَلت النجيع

---

* في الأصل : إن انتضيت لرمي بدا لها أنها أحق به ممن تصيبه .

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣١ .
(٢) نفسه ٨ : ٣٨٩ ، وانظر : ٣٨٨ ، ٣٩٠ - ٣٩١ .
(٣) نفسه ١٤ : ٣٣٣ ، ٣٣٥ .

الأحمر ، وكم اجتثني ثمر التأييد من خرق حديدي الأخضر"(١) .

كما استخدمها ابن أبي حجلة في وصفه للغلمان الذين مروا به فسلبوا لبّه . قال يصف أول الغلمان :"عليه دم العشاق منثور ، وثغر تزهو من صفاء صفاته بدور النحور ، ومبتسم لو تبسّم في الليل صيّر الظلام نهارا ،...، خضر الثياب كالغصن في ورق ، ومن سواد القبثع كالبدر طالع في غسق"(٢) .

- مصادر الصورة الفنية

لقد تنوعت مصادر الصورة في الرسائل وتعددت ، والمطالع للصور المتقدمة يقف على ذلك ويتبيّنه بوضوح . وتنوع مصادر التصوير ينم عن سعة خيال الكتّاب وقدرتهم على الربط بين أفكارهم ومعانيهم وموضوعاتهم وبين ما يستلهمون خيالهم فيه ، وما توحيه لهم بيئتهم وثقافتهم .

وتعود صورهم إلى مصادر ثلاثة رئيسية ، وهي : البيئة ، والثقافة والصراع مع الأعداء ، وليس شرطاً أن تستوحي الصورة من أحد هذه المصادر فقط ، إذ قد يستمدها الكاتب من مصدرين معاً ، وقد تشترك ثلاثة المصادر في تشكيلها ، وذلك في الحالة التي يتوحد فيها أثر الثقافة والبيئة والإحساس بالصراع العقائدي مع الغزاة ، فيمزج تأثيرها جميعاً في تشكيل صورة واحدة ، ومن أمثلة ذلك قول ابن العجمي يصور حصار حصن صفد المحكم قبل فتحها على يد الظاهر بيبرس: "زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاق بخصره ، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره ، وأمطرنا عليه من السهام وبلاً سحت ذيول سحبه المتراكمة ، وأجرينا حوله من الحديد بحراً غرّقه أمواجه المتلاطمة ، وضايقناه حتى لو قصد وفد النسيم وصولا إليه لما تخلص ، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فيئاً لعجز ؛ لأخذنا عليه أن يتقلّص"(٣) ، إذ اشترك في تكوينها البيئة الاجتماعية وعادات الناس في

---

(١) السماح في أخبار الرماح ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق د. أنور أبوسويلم ود. ماجد الجعافرة ، منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ع ٣٧ ١٩٨٩م : ٢٤٨ .
(٢) رسالة ابن أبي حجلة : ٥ - ٦ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ .

لباسهم من انتطاق ، والتشام ، والبيئة الطبيعية : كالمطر والسحاب والبحر والأمواج والنسيم والشمس والفيء ، وأسماء الأسلحة : كالسهام والحديد الذي هو مرادف للسيوف والرماح ، وقد أفاد الكاتب من قول المتنبي"(١) : (الطويل)

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

كما يتضح تأثره بقول ابن القيسراني في فتح إنّب(٢) على يد نور الدين زنكي(٣) : (البسيط)

والنّبل كالوبل هطّال وليس له سوى القسي وأيدٍ فوقها سحُبُ

ويبدو أنه كان ينظر إلى قوله تعالى :"وإن يروْا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم"(٤) ، وقوله عز وجل من قائل :"ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً"(٥) .

ويقف المطالع في الصور التي أوْردتها آنفاً على أن البيئة الطبيعية كانت من أهم المصادر التي أمدتهم بصورهم ، وكان النيل والحدائق والجبال الشاهقة ، والمشاهد اللطيفة كالغروب ، من أكثر مظاهر البيئة إمداداً لهم . وتعود كثير من صورهم إلى البيئة الاجتماعية والعادات والتقاليد التي تعارف عليها أهل عصرهم ، ومن ذلك تصويرهم الحصون المنيعة بالسيدات المترفات اللواتي يملكن الخدم ، والحسان اللواتي يعرفن جمالهن فيتدللن ويتمنعن ، ويلبسن الخمار والجلباب ، وصورة الحجارة تدخل الحصون فترفع لها الستائر بغير استئذان، وصورة القلق الذي يسببه الانتظار ، وقلة الصبر عليه ، وكذلك صورة الفراق وما يسببه من حزن وبكاء ، وصورة المريض في رمقه الأخير إذ يودعه عوّده .

وقد تستمد الصورة من لغة المجتمع ، غير أنها قليلة جداً فيما وقفت عليه ، ومن ذلك تصوير فيضان النيل في رسالة ابن مكانس وما سببه للناس من خراب ودمار بأنه احمرت عينيه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر كما تقدم ، وقولهم فيه :

---

(١) ديوانه : ٢ : ٢٧٦ .
(٢) حصن إنب : حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب (ياقوت ١ : ٢٥٨) .
(٣) كتاب الروضتين ١ : ١٥٣ .
(٤) سورة الطور : ٤٤ .
(٥) سورة الفرقان : ٤٥ .

"كال فطفّف" ، وهي مستمدة من تعامل البائعين ، وقد تكون مستمدة من قوله تعالى: (ويلٌ للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون)(١) .

وتجد في بعض الصور جانباً عسكرياً مثل تصوير النيل حين وفائه بجيش خيرٍ جاء لقتل الجدب والمحل ، ومثل صورة الحصار والمعركة ، وقد تقدم ذكر أمثلة عليها ، كما توجد بعض الصور المستمدة من الجانب السياسي في المجتمع . ومن ذلك صورتان متناقضتان لولي" الامر نجدهما في وصف النيل ، فمرة تراه حاكماً عادلاً ساهراً في مصالح العباد والبلاد ، ومرة أخرى تراه جائراً يختال متكبّراً ، ظالماً لرعيته ، ويعاملهم بقسوة ، وما من شك في أن هاتين الصورتين أوحى بهما للكتّاب الواقع السياسي في عصر المماليك ، فترى حاكما سَيْب عطائه كالنيل ، وترى آخر قاسياً غليظ القلب تنفض من حوله رعيته .

وتعد ثقافة الكاتب مصدراً مهماً لصوره ، وغير خفي أن ما تقدم من صور يشير إلى ذلك بوضوح ، ويكفي النظر في الاثرين الادبي والديني في رسائلهم لنكون من ذلك على بينة .

- وظيفة الصورة الفنية

يعد التصوير الادبي وسيلة رائعة للتعبير عن المعاني ، إذ يتوصل الكاتب من خلاله إلى التعبير عن المعنى المقصود إليه بدقة بالغة ، وذلك بما يسوقه من ربط المعنى الذهني المجرد الذي يعبّر عنه باللغة المباشرة بغيره مما يدل عليه في سياق مدلولاته ، ويضيف إليه ظلالاً موحية ، تؤكد المعنى وتزيده قوة للتأثير في القارئ أو السامع ، ويقتضي ذلك أن تكون الصورة مناسبة تماماً لموضوع الرسالة ، وأن تؤدي غرضاً آخر غير مدلولها المباشر ، وذلك بما تحمله من إيحاء ، وتلك هي وظيفتها .

وتختلف وظيفة الصورة باختلاف موضوع الرسالة ، واختلاف الغرض من إنشائها ، وتباين السياق الذي ترد فيه . ومن أهم وظائفها في رسائل هذا العصر : التزين ،

---

(١) سورة المطففين : ١ ، ٢ .

والتقبيح ، واستثارة الهمم، والسخرية والتهكم ، والتهديد ، والمبالغة ، وقد أجاد الكتّاب في توظيف صورهم ، فجاءت ناهضةً بالمعاني المنوطة بها لاعبائها عليها . وترى التزين في تصويرهم جيش المسلمين والمناظر الطبيعية قبل غروب الشمس وانعكاس أشعتها على صفحة الماء ، وفي وصف الغلمان ، والخيول ، والطيور ، وأدوات الصيد ، والاشجار والفواكه ، وتراه في تصويرهم ولاة الامر ، إذ رسموا لهم صورة مثالية كما تقدم آنفاً .

أما التقبيح فتراه مثلاً في ذم ابن الوردي للقاضي الرياحي ، وذم ابن عبد الظاهر لأحد حاسديه .

واختصت الرسائل الجهادية باستثارة الهمم والتحريض على الجهاد ضد الغزاة ، واستعمل الكتّاب للوصول إلى ذلك طرقاً كثيرة ، كان منها تصوير الثواب الذي ينتظر المجاهدين ، واستحضار نماذج للجهاد عند المسلمين الأوائل ، وتبصير المسلمين بأعدائهم الذين ركز في تصويرهم على كفرهم وحقدهم وهمجيّتهم وأفعالهم الشنيعة ، وقد تقدم الحديث عن هذا في الفصل الثاني من هذا البحث .

واستخدم الكتاب الصورة الفنية في السخرية من الأعداء الغزاة، ومن ذلك وصفهم لما أسفرت عنه المعارك من قتل وجرح وأسر في صفوف الأعداء في الرسائل التي وجهوها إليهم ، مثل رسالتي بيبرس إلى بيمند وملك قبرص ، ورسالة الناصر إلى غازان بعد معركة مرج الصّفّر ، وترى ذلك التهكم في البشارات بالنصر ، إذ تؤدي الصورة المرسومة لما حل بالأعداء إلى إشاعة الفرح والبهجة ، والطمأنينة التي طالما افتقدتها النفوس .

وكان التهديد هدفاً مهماً في صور الرسائل التي رد فيها المماليك على رسائل التهديد من أعدائهم المغول والصليبيين ، كما ترى التهديد في الرسائل التي وجهها المماليك لأحلاف أعدائهم، وبخاصة أولئك الذين تحالفوا مع المغول غير مرة .

أما المبالغة فهي عنصر مهم في الصور جميعها ، وتراها في وصفهم للحصون ومنعتها أمام الفاتحين ، وفي وصف جيش الأعداء قبل المعركة ، واللوعة والأسى لموت صديق أو التشوق له ، والفرح والسرور بمولود لصاحب .

الخاتمة

من أهم النتائج التي خرجت بها هذه الدراسة نهوض الرسائل بأنواعها : الديوانية ، والإخوانية ، والأدبية بقضايا المسلمين فرادى وجماعة ، فقد واكبت الرسائل الأحداث الجسام التي ألمّت بالمجتمع في مصر والشام في عصر المماليك الأول ، وعبّرت عن مشاعر الأمة وأحلامها ، ووحدتها في الوقوف أمام الغزاة وصدهم ودحرهم ، وصورت فهم المسلمين لطبيعة الصراع مع أعدائهم ، ويقظتهم وعمق تفاعلهم وتأثيرهم في الأحداث من حولهم .

كما صورت الرسائل مواقف سلاطين المماليك من مختلف القضايا السياسية والدينية والاجتماعية ، كما أبرزت نهوضهم بواجب الجهاد وحرصهم على بلاد المسلمين ، وتوظيفهم لبعض الأفكار الدينية لترسيخ حكمهم ، وأن إعادتهم لنظام الخلافة كان أحد اللفتات الذكية منهم لجمع المسلمين وحشد طاقاتهم في صراعهم الدامي مع أعدائهم ، وترسيخ فكرة مشروعية سلطتهم ، كما تصور تعصّبهم للنهج التقليدي في فهم الإسلام ، ورفضهم لمحاولات التجديد ، وسعيهم لوأد كل محاولة من هذا القبيل ، وتبين متابعتهم لأسلافهم الأيوبيين في محاربة الشيعة ، وموقفهم من أهل الذمة الذي استندوا فيه إلى الشروط العمرية في الأوقات الموجبة لذلك . وعلى الرغم من قسوة المماليك وكثرة نزاعاتهم على السلطة فإن الرسائل تظهر مدى عنايتهم بالفقراء والرعية في أوقات الشدة ، وسعيهم للإبقاء على المجتمع نقياً خالياً من مظاهر الفساد والبدع .

وفي هذا السياق تبرز مشاركة الكتّاب في ذلك ، إذ عبّرت الرسائل الإخوانية عن علاقاتهم بعضهم ببعض ، وهي علاقات حسنة في الأغلب الأعم ، غير أن في بعضها شيئاً من التزلّف والتملّق ، كما دل بعضها على جرأة بعض الكتّاب ، واهتمامهم بإصلاح الأحوال ، مثل رسالة ابن تيمية إلى الناصر لحثّه على الجهاد ، ورسالة ابن الوردي في ذمّ القاضي الرياحي .

ومن النتائج المهمة التي أبرزتها هذه الدراسة أن انسياق الكتّاب وراء البديع والاقتباس والحلّ لم يكن عبثاً ، ولاجموداً في التفكير ، ولاعجزاً عن

الابتكار ، بل كان عائداً إلى عوامل كثيرة يقع في أولها أن الكتابة أصبحت صنعة يُتقنّن لها ، ويحدد أسلوبها ، ويؤلّف في تعليمها المؤلفات والدساتير ، وكانت الحروب التي شهدتها الفترة مؤثراً فاعلاً في التوجيه نحو ثقافة خاصة قوامها القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب ، فبرز التأثر بذلك في رسائل الكتّاب ، كما عللت الدراسة انتشار بعض فنون البديع مثل الطباق والمقابلة ، وربطتهما بالموضوعات ، مثل موضوع الجهاد والمفاخرات والمناظرات . وخلصت إلى أن الحكم على الأدب في عصر من العصور لايجوز أن ينطلق من مقاييس عصر آخر ، فلكل عصر ذوقه ومقاييسه .

وبيّنت الدراسة أن أثر البيئة الجغرافية في الرسائل طفيف لايكاد يذكر في هذا العصر ، ويتركز في الموضوعات لا في الأساليب ، فاختصت بيئة مصر بالنيل مثلاً ووصفه ، بينما اختصت بيئة الشام بالشتويّات مثل وصف الثلج والأمطار والسيول ، ودحضت الفكرة القائلة بأن مصر اختصت بفن التورية ، وأن الشام اختصت بالجناس ، وأعادت ذلك إلى أن المؤثرات السياسية : الداخلية والخارجية ، والثقافية ، والاجتماعية كانت واحدة ، وبذلك تضاءلت الفروق في الأسلوب بين كاتب وآخر في البيئة الواحدة ، وأصبحت السمات الأسلوبية لكاتب ما لاتختلف كثيراً عن سمات أسلوب كاتب غيره .

ويمكن القول بأن جلّ الآراء التي قللت من قيمة الرسائل في عصر المماليك الأول لم تكن عن تعمق واستقصاء ، بل كانت سطحيّة ، ويمكن إعادة بعضها إلى موقف أصحابها من المماليك أنفسهم ، كما يمكن إعادة بعضها إلى تلقّف أصحابها ما وسم به المستشرقون ومن تابعهم هذا العصر .

المصادر والمراجع

- أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٣م .
- إحكام صنعة الكلام ، الكلاعي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦م .
- أدب الحروب الصليبية ، د. عبداللطيف حمزة ، دار الفكر ، القاهرة ط ٢ .
- الأدب العربي في العصر المملوكي ، د. محمد كامل الفقي ، دار الموقف العربي ، القاهرة ١٩٨٤م .
- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، د. جودت الركابي ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٣م .
- الأدب في بلاد الشام ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر الحديث ، دمشق ١٩٦٧م .
- الأدب في العصر الأيوبي ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م .
- الأدب في العصر المملوكي ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ١٩٧١م.
- أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٨م ، وتحقيق هـ. ريتر ، استانبول ١٩٥٤م .
- الأسلوب ، د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م .
- الإشارة إلى من نال الوزارة ، ابن الصيرفي ، تحقيق عبدالله مخلص، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ١٩٢٤م .
- اصطلاحات الصوفية ، عبدالرزاق الكاشاني ، تحقيق عبداللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٧م .
- الأصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر و عبدالسلام هارون ، بيروت ط ٥ .
- الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، د. مصطفى الشكعة ، دار الأحد ، بيروت ١٩٨٣م.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ابن شداد ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣م .
- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، طبعة كوستاتوماس ،القاهرة ١٩٥٤م.
- الأفضليات ، ابن الصيرفي ، تحقيق د. وليد قصّاب ، و د. عبدالعزيز المانع ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢م .
- الألفاظ الكتابية ، الهمذاني ، دارالكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م .

- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، حسن الباشا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م .
- أمثال العرب ، المفضل الضّبي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٤٠١ هـ .
- إنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق د. حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٩م .
- البحث الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ابن إياس ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤م .
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت ١٩٨٨م ج ١٢ - ج ١٤ .
- البديع ، ابن المعتز ، طبعة كراتشكوفسكي ، لندن ١٩٣٥م .
- البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، تحقيق د. أحمد بدوي و د. حامد عبدالمجيد ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠م .
- البرهان في وجوه البيان ، إسحق بن وهب الكاتب ، تحقيق د. أحمد مطلوب ، و د. خديجة الحديثي ، بغداد ١٩٧٤م .
- بلدانية فلسطين المحتلة ، أنيس صايغ ، بيروت ١٩٦٨م .
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الألوسي ، القاهرة ١٩٢٤م .
- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨م .
- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، د. عبدالجليل عبدالمهدي ، دار البشير ، عمان ١٩٨٩م .
- تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٩م .
- تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، دار الفكر ، بيروت (ب-ت) .
- تاريخ الدول والملوك، ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين، الجامعة الامريكية ، بيروت ١٩٤٢م .
- تاريخ مختصر الدول ، ابن العبري ، دار المسيرة ، بيروت ط١ .

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣م .

- تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريين، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر (ب-ت) .

- تتمة المختصر في أخبار البشر ، ابن الوردي ، المطبعة الحيدريّة النجف الأشرف ١٩٦٩م .

- تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، تحقيق د. حنفي محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ.

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) ، ابن بطوطة ، تحقيق د. علي منتصر الكتّاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥م.

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ابن حبيب الحلبي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٢م .

- الترسّل وابن عبدالظاهر ، محمد بن الخوجة ، منشورات اتحاد الكتّاب ، تونس ١٩٥٦م .

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ابن عبدالظاهر ، تحقيق د. مراد كامل ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة ، (ب-ت) .

- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، د. أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢م .

- التعريف بالمصطلح الشريف ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨م .

- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، محمد قنديل البقلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (ب-ت) .

- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، ابن أيبك الصفدي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩م .

- ثمرات الأوراق في المحاضرات ، ابن حجّة الحموي ، تقديم د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م .

- جامع التواريخ في تاريخ المغول ، رشيدالدين الهمذاني ، تعريب محمد نشأت ومحمد هنداوي وفؤاد الصياد ، الادارة العامة للثقافة، القاهرة ١٩٦٠ م .

- جمهرة الأمثال ، أبوهلال العسكري ، تحقيق أحمد عبدالسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨م .

- جمهرة اللغة ، ابن دريد ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن (بـت).

- جواهر الألفاظ ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٣٢م .

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، ابن دقماق ، تحقيق محمد كمال الدين علي ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٥م .

- جوهر الكنز ، ابن الأثير الحلبي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية (بـت) .

- ابن حجّة الحموي : شاعراً وناقداً ، د. محمود الربداوي ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٢م .

- حدائق السحر في دقائق الشعر ، رشيد الدين الوطواط ، تحقيق د. إبراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٤٥م .

- حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل ، شهاب الدين الحلبي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠م .

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، السيوطي ، مكتبة مصطفى فهمي الكتبي ، القاهرة ١٩٠٣م .

- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د. أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٧م .

- (كتاب) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٦٦م .

- خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجّة الحموي ، تقديم وشرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، بيروت ١٩٨٧م .

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦م .

- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٢ .

- ديوان بشار بن برد ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية ، والشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ١٩٧٦ م .

- ديوان أبي تمام ، أبوتمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- ديوان حسان بن ثابت ، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٧٨م .
- ديوان ابن حمديس ، تصحيح وتقديم د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (ب-ت) .
- ديوان الخنساء ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م .
- ديوان ابن الرومي ، ابن الرومي ، تحقيق د. حسين نصّار ، الهيئة المصرية العامة للكتّاب ، القاهرة ١٩٤٧م .
- ديوان زهير بن أبي سُلمى ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م .
- ديوان عمرو بن معد يكرب ، تحقيق هاشم الطعّان ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد (ب-ت) .
- ديوان الفرزدق ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م .
- ديوان كثيّر عزة ، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١م .
- ديوان كعب بن زهير بشرح السكري ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ١٩٦٥م .
- ديوان أبي الطيب المتنبي ، المتنبي ، تحقيق عبدالوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤٤م.
- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٢ .
- ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٢م .
- ديوان ابن الوردي ، ابن الوردي ، تحقيق د. أحمد فوزي الهيب ، دار القلم ، الكويت ١٩٨٦م .
- ذيل مرآة الزمان ، قطب الدين اليونيني ، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد الدكن ١٩٥٤ - ١٩٦١م .
- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي ، غانم جواد رضا ، مطبعة أسعد ، بغداد ط ١ .
- رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر ، ابن تيمية ، تحقيق صلاح الدين المنجّد ، بيروت ١٩٧٦م .

- الرسالة العذراء ، إبراهيم بن المدبر ، تحقيق د. زكي مبارك ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣١م .
- رسالة في وصف دمشق ، ابن أبي حجلة ، ميكروفيلم رقم (١٢٧) بمكتبة الجامعة الأردنية .
- روضة المحبّين ونزهة المشتاقين ، ابن قيّم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م .
-(كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ، أبو شامة المقدسي ، دار الجيل ، بيروت (ب-ت) .
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، محيي الدين بن عبدالظاهر ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م .
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، خليل بن شاهين الظاهري، اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م .
- سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، تحقيق عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد صبيح ، القاهرة ١٩٥٣م .
- السفن الإسلامية على حروف المعجم ، درويش النخيلي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.
- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ، د. حياة ناصر الحجّي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨٣م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، المقريزي ج ١ - ج٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨م .
- السماح في أخبار الرماح ، السيوطي ، تحقيق د. أنور أبوسويلم و د. ماجد الجعافرة ، منشورات مجمع اللغة العربية (المجلة ع ٣٧ ١٩٨٩م).
- ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، د. عبدالعزيز الأهواني، مكتبة الانجلو-مصرية ، القاهرة ١٩٦٢م .
- سنن ابن ماجة ، ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبة العلمية ، بيروت (ب-ت) .
- سنن النسائي بشرح السيوطي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (ب-ت) .

- شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٥١م .

- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت (ب-ت) .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القلقشندي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م .

- الصبغ البديعي في اللغة العربية ، أحمد موسى ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩م .

- صحيح البخاري بشرح الكرماني ، البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨١م .

- صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٢٩م.

- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، د. محمود إبراهيم ، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧١م .

- (كتاب) الصناعتين ، أبوهلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢م .

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣م .

- الصورة الفنية في الكتابة الشعرية ، د. صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٨٦م .

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، السخاوي ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .

- الطالع السعيد بجامع أسماء نجباء الصعيد ، الأدفوي ، تحقيق د. سعد محمد حسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م .

- طبقات الشافعية ، الأسنوي ، تحقيق د. عبدالله الجبوري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٠م .

- العسكرية الإسلامية وقادتها العظام ، بهاء الدين محمد أسعد ، مكتبة المنار ، عمان ١٩٨١م .

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، محمود رزق سليم ، مكتبة الاداب ، القاهرة ج ٥ : ١٩٥٦ ، ج ٦ ١٩٦٢ .

- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت (ب-ت) .

- العمدة في محاسن الشعر ونقده ، ابن رشق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٥م .

- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق د. طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦م .

- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، ابن ظافر الازدي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، و د. مصطفى الجاويني ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م .

- فتاوى ابن تيمية ، ابن تيمية ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .

- الفروسية ، ابن قيم الجوزية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧م .

- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٨٠م .

- فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (ب-ت) .

- قانون ديوان الرسائل ، ابن الصيرفي ، مطبعة الواعظ بمصر ١٩٠٥م .

- قطوف الاغاني ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت (ب-ت) .

- قوانين الدواوين ، الاسعد بن مماتي ، تحقيق عزيز سوريال ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٣م .

- كنز الدرر وجامع الغرر ، ابن أيبك الدواداري ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٠م .

- لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار صادر ، بيروت (ب-ت) .

- لوعة الشاكي ودمعة الباكي ، ابن أيبك الصفدي ، مطبعة الجوائب بالاستانة ١٢٩٢ هـ .

- مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، القلقشندي ، تحقيق عبد الستار فراج ، وزارة الإرشاد والإنباء ، الكويت ١٩٦٤م .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م .
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، د. سعيد عاشور ، دار النهضة ، القاهرة ١٩٦٢م .
- مجمع الأمثال ، الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار القلم ، بيروت (ب-ت) .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
- المختصر في أخبار البشر ، أبوالفداء ، دار المعرفة ، بيروت (ب-ت).
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ، ١٩٨٦م .
- المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت (ب-ت) .
- مُستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر في فضل الجهاد ، بدرالدين ابن جماعة ، تحقيق أسامة النقشبندي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ١٩٨٣م .
- مُسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت (-١٩).
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، د. سعيد عاشور ، دار النهضة العربية ، بيروت (ب-ت) .
- مطالع البدور في منازل المرور ، علاءالدين الغزولي ، مطبعة الإدارة الوطنية ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، ابن نباتة المصري ، تحقيق د. عمر موسى باشا ، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢ م .
- المعالم الأثرية في البلاد العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الشركة المصرية للطباعة ، القاهرة ١٩٧٢م .
- معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، ابن شيث القرشي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ١٩٨٨م .

- معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة ، د. هاشم ياغي ، الفجر للطباعة والنشر ١٩٩٠م .

- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، طبعة دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٨٤م .

- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٦م .

- معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين السّبكي ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٤٨م .

- مفتاح العلوم ، السكاكي ، ضبط وشرح نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م .

- مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٩٦٠م (ج٤) .

- منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦م .

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ابن تغري بردي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤م .

- المهلهل بن ربيعة : حياته وشعره ، نافع بن منجل بن شاهين الراجحي ، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة الجامعة الأردنية ، اعدت بكلية الآداب في الجامعة المستنصرية ١٩٨٦م .

- الموازنة بين الطائيين ، الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر (ب-ت) .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) ، المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (ب-ت) . (ج١ ، ج٢) .

- الموطأ ، مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٥م .

- النثر العربي في القرن الرابع الهجري ، د. زكي مبارك ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤م .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩م .
- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، موسى بن محمد اليوسفي ، تحقيق أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٦م .
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، علي بن داود ، تحقيق د. حسن حبشي ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٠م .
- نسيم الصبا ، ابن حبيب الحلبي ، تصحيح محمود العلاف ١٢٨٩ هـ .
- نثمرة الثائر على المثل السائر ، ابن أيبك الصفدي ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م .
- النقد الأدبي في العصر المملوكي ، د. عبده عبدالعزيز قلقيله ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ١٩٧٢م .
- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٧٨م .
- نكت الهميان في نكت العميان ، ابن أيبك الصفدي ، وقف على طبعه الأستاذ أحمد زكي ، المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، النويري ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (ب-ت) .
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخرالدين الرازي ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
- نهج البلاغة ، الإمام علي بن أبي طالب ، بشرح محمد عبده ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣م .
- النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ابن أبي الفضائل ، طبعة باريس ١٩٣٢م .
- النيل في الأدب المصري ، د. نعمات أحمد فؤاد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .
- الوافي بالوفيات ، ابن أيبك الصفدي :

ج١ تحقيق هلموت ريتر ، فيسبادن ١٩٦٢م .

ج٢ تحقيق س. ديدرينغ ، فيسبادن ١٩٧٤م .

ج٣ تحقيق س. ديدرينغ ، دمشق ١٩٥٣م .

ج٧ تحقيق د. إحسان عباس ، فيسبادن ١٩٦٩م .

ج٩ تحقيق فان إس ، فيسبادن ١٩٧٤م .

- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، د. محمد حمادة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٩م .

- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي ، القاهرة ط ٣ .

- الوشي المرقوم في حل المنظوم ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق د. جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٩م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

Faculty of Higher Studies
Department of Arabic
University of Jordan

Epistles in The First Memlukid Era in Egypt and Syria

A Master's Thesis Presented by :

Khalid Abd ul-Rauf Jabr

Supervised by :

Prof. Abdul Jalil Abdul Muhdi

This thesis was submitted in partial fulfillment of the requirements for the master degree of arts in Arabic at the Faculty of Graduate Studies in the University of Jordan .

1992

Abstract

This study attempts to show a clear picture of the language of epistles during the Memlukid rule of Egypt and Syria . It therefore concentrated on the style of epistles which usually began with a preface followed by the text of the epistle and ended by a conclusion .

The study comprised a preface , an introduction , three chapters and a conclusion . In the introduction , the present writer wrote about "Diwan al-Inshā'" - the Government Secretariat - and the eduction of the top secretary .

In the first chapter the epistles were classified into three categories : the official , the friendly and the purely-literary .

The writer then studied the themes of the official epistles , and attempted to scrutinize them in relation to the political , religious and social aspects of the Memlukid society . The epistles showed that their writers expressed the views of the Memlukid rulers in the different issues , as well as their attitudes towards certain sects such as the Shiis and the Sufis .

As for the letters of friendship , the writer found out that their themes were related to congratulations , condolements , gratifications , apologies and gentle centures . Such themes usually are linked with the relationships of friends , and they are characterized by sentimental expressions .

As for the literary epistles , they vary in their topics and are usually different from the aforementioned themes . The topics might relate to hunting , entertainment , or the depiction of nature . Some topics take the form of debates between two different objects , such as the "Pen" and the "Sword" . Certain epistles of this kind talk about mishaps and disasters such as epidemics and earthquakes .

In the second chapter , the writer discussed the impact of the Crusading and the Mongol invasions on the material of the epistles . Their writers wrote about Jihad - the Holy War , the happy news of victory, and defeat , the glorious picture of Moslem fighters , the image of adversaries , the description of weapons and the methods of fighting .

The third chapter was assigned for the artistic and stylistic features of the epistles : their structure , openings , texts and conclusions . The writer exposed in this study specific kinds of rhetoric which were prevalent and appreciated in that age . He also tried to trace the origins of the images used in these epistles and discussed the dynamic trait of their texts .

In the conclusion , the writer showed that the literature of that age represented an artistic taste of the society . Therefore it should not be judged according to our taste and norms .